
فرصتي الثانية
تأليف منصف الوسلاتي
بين عالمين ..
قصة لا تنتهي

فهرس الفصول

الفصل		الصفحة
01	فتى الرماد	1
02	فارس الزمن	6
03	بين السيف و العقل	12
04	قهوة بطعم الخيبة	17
05	حين مات نصف الروح	20
06	ابتسامة على حافة الهاوية	26
07	عذرًا، من سمح لهذا الرجل بالدخول؟	33
08	دفء لم أعرفه من قبل	42
09	مذاق لم تعرفه الملوك	53
10	صديقٌ جديد، ووعدٌ من حياةٍ قديمة	69
11	حين يتعلم الفرسان أبجديات الحياة	81
12	ألعاب، عقوبات، ووليمة لا تنتهي	97
13	حين يتعلم الجسد لغة الروح	108

فهرس الفصول

الفصل		الصفحة
14	أعياد لم أعرفها، ومغامرات لم أخطط لها	115
15	مغامراتي مع عائلتي	117
16	حين عانق الماضيُ الحاضر	119
17	بين قلبٍ خائف وأبٍ كثير الأسئلة	121
18	إمبراطورية من الفوضى، ومشاعر بلا اسم	127
19	إرثٌ من القوة، وقليلٌ من الجنون	133
20	حين اختلّ إيقاع القلب	137
21	حين يصبح الصمت أثقل من الروح	146
22	أشين، الرجل الذي لا تعترف به قوانين المنطق	157
23	ظلالٌ لا تنام، وخيانةٌ في وضح النهار	165
24	ليلة الحرية، وكارثة ذات اثنين وثلاثين عامًا	172
25	منديلٌ قديم، ومشاعر لا تعرف طريقها	187
26	أجمل ورطة في العطلة الصيفية	199

الفصل الأول: فتى الرماد

كان الجنوب آخر الأماكن التي يفكر المرء في زيارتها إذا كان يبحث عن الحياة.

هناك، حيث تمتد الأراضي القاحلة تحت سماء شاحبة، كانت القرى تتناثر بين التلال كأنها بقايا أحلام قديمة نسيها أصحابها. وكان الناس يقولون إن الرياح في الجنوب تحمل رائحة الرمل وحده، لكن تلك الليلة كانت تحمل شيئًا آخر. رمادًا.

كانت القرية قد ماتت. لم يبقَ من بيوتها سوى جدران سوداء متصدعة، ولا من أبوابها سوى ألواح متناثرة بين الحجارة. الأشجار التي كانت تمنح أهلها الظل تحولت إلى أعمدة محترقة، والأرض التي شهدت يومًا لعب الأطفال صارت مغطاة بطبقة من الرماد. لم يكن هناك صوت. لا صراخ. لا بكاء. حتى الريح بدت وكأنها تخشى أن توقظ الموتى.

كان الملك ماركوس عائدًا من جولته في الجنوب عندما مر بالقرب من المكان. لم يكن ينوي التوقف. كان الليل قد بدأ يهبط، وفرسانه يحثون الخيول على الإسراع قبل أن تبتلعهم ظلمة الصحراء. ثم سمع صوتًا. ضعيفًا. متقطعًا. كأنه آخر خيط بين الحياة والموت. رفع الملك يده، فتوقفت القافلة. التفت الفرسان حولهم.

قال أحدهم:

— سيدي؟

لم يجب ماركوس. كان يصغي. ثم سمعها مرة أخرى. بكاء طفل. ترجل الملك عن حصانه، وسار بين الأنقاض. لم يكن الصوت يأتي من بيت، فقد لم يبقَ بيت أصلًا. كان يأتي من بين كومة من الحجارة والخشب المحترق، حيث وجد شيئًا صغيرًا ملفوفًا بقطعة قماش رمادية. اقترب. توقفت خطواته. كان طفلًا رضيعًا. وحيدًا. لا يتجاوز عمره بضعة أشهر. كان وجهه مغطى بالغبار، وعلى جبينه خدش صغير، لكنه كان حيًا. قبضته الصغيرة كانت مشدودة حول طرف القماش، وكأنه يتمسك بآخر شيء بقي له من عالم لم يعد موجودًا. حمله ماركوس بين ذراعيه. سكت الطفل. فتح عينيه. عينان صافيتان، تنظران إلى الرجل الذي حمله وكأنهما تسألانه سؤالًا لم يكن الملك يعرف إجابته.

من أنت؟ وأين أخذتَ عالمي؟

ظل ماركوس صامتًا لحظات. ثم نظر إلى القرية المحترقة خلفه. كان قد رأى الحروب. رأى المدن تسقط، والجنود يموتون، والملوك يوقعون على أوامر لا يعرفون كم أمًّا ستبكي بسببها. لكن رؤية طفل وحيد وسط قرية ميتة كانت مختلفة. مد إصبعه، فقبض الطفل عليه. تنفس الملك ببطء. وقال:

— لن أتركك هنا.

كانت تلك الكلمات بسيطة. لكنها كانت أول وعد في حياة لوسين.

حين عاد الملك إلى القصر، كانت الملكة إليانا تنتظره. كانت تقف عند أعلى الدرج، وإلى جوارها طفلاها؛ الأمير أدريان والأميرة إيلارا. كانا في العمر نفسه تقريبًا، لا يزالان في تلك المرحلة التي لا يعرف فيها الطفل الفرق بين أمير وأميرته، وبين قصر وحديقة، وبين العالم كله ولعبة صغيرة. لكن عيني الملكة تغيرتا حين رأت الطفل بين ذراعي زوجها. اقتربت ببطء.

— ماركوس... من هذا؟

نظر إليها الملك. ثم إلى الطفل.

— وجدته في الجنوب.

لم تسأل عن والديه. ربما كانت تعرف الإجابة من نظرة زوجها. مدت ذراعيها. ناولها الملك الطفل. وحين حملته، فتح لوسين عينيه مرة أخرى. ابتسمت. ابتسامة صغيرة، حزينة، لكنها دافئة.

— يبدو أنه لم يعد لديه أحد.

اقتربت إيلارا. كانت طفلة صغيرة بشعر طويل وملامح هادئة، أمسكت بثوب أمها ونظرت إلى الرضيع بفضول.

— هل سيبقى معنا؟

نظر الملك إليها.

— إن أراد الله ذلك.

قالت بلا تردد:

— أنا أريده أن يبقى.

ضحك أدريان.

— لكنه لا يستطيع اللعب.

نظرت إليه أخته باستنكار.

— لأنه صغير.

ثم اقتربت من الطفل ومدت إصبعها نحوه. قبض لوسين على إصبعها. توقفت إيلارا. ثم ضحكت. ضحكة صافية ارتفعت في القاعة الواسعة، وبددت للحظة شيئًا من الحزن الذي جاء به الملك من الجنوب. نظر ماركوس إلى المشهد. زوجته تحمل طفلًا لم يعرف اسمه بعد. ابنه يقف بجوارها متذمرًا لأنه وجد منافسًا جديدًا للعب. وابنته تضحك لأن يدًا صغيرة أمسكت بإصبعها. كان المشهد بسيطًا. بسيطًا إلى درجة أن الملك لم يدرك حينها أنه كان ينظر إلى بداية قصة ستغير مستقبل مملكته.

قالت الملكة:

— وما اسمه؟

نظر الملك إلى السماء من خلال النافذة. لم يكن يعرف لماذا جاء الاسم إلى ذهنه.

— لوسين.

ومنذ تلك الليلة، صار للطفل الذي وُلد بين الرماد بيت. وصارت له عائلة. وصار له اسم. لكن لم يعد له ماضٍ.

مرت السنوات. كبر لوسين داخل القصر كما تكبر شجرة غُرست في أرض لم تعرفها جذورها الأولى. لم يكن أحد يعامله كخادم. ولا كضيف. ولا كغريب. كان فردًا من العائلة. كان يأكل معهم. يتعلم معهم. ويلعب مع الأمير والأميرة في حدائق القصر. كان أدريان وإيلارا يناديانه باسمه دون ألقاب، وكان لوسين يفعل الشيء نفسه.

لكن الملك كان يرى شيئًا لم يره الآخرون. حين بلغ لوسين السادسة، لاحظ أن الطفل يستطيع الركض أسرع من أقرانه. في الثامنة، كان يتسلق جدران الحديقة التي كان الحراس يحتاجون إلى السلالم للوصول إلى أعلاها. وفي العاشرة، كان يستطيع حمل سيف التدريب لفترة أطول من معظم الأطفال الذين يكبرونه بعامين أو ثلاثة. لم يكن الأمر مجرد قوة. كان هناك شيء في جسده. سرعة استجابة غريبة. توازن طبيعي. وقدرة على تحمل الألم لا تناسب عمره.

وذات صباح، شاهد الملك لوسين يتدرب مع الأمير أدريان. كان التدريب بسيطًا. سيفان خشبيان. مساحة صغيرة من الرمل. وقواعد واضحة. لكن بعد دقائق قليلة كان أدريان يلهث، بينما ظل لوسين واقفًا. رفع المدرب حاجبه.

— مرة أخرى.

هجم أدريان. صد لوسين الضربة. ثم أخرى. ثم ثالثة. وفي اللحظة التي اندفع فيها الأمير إلى الأمام، انحرف لوسين جانبًا، وأدار جسده، فسقط أدريان على الرمل. ساد الصمت. نظر لوسين إلى يده. ثم إلى صديقه. مد يده إليه.

— هل أنت بخير؟

أمسك أدريان يده ونهض. لكن الملك لم ينظر إلى ابنه. كان ينظر إلى لوسين. وفي عينيه ظهر شيء لم يكن موجودًا من قبل. توقع. قال لاحقًا لقائد حرسه:

— ذلك الفتى سيصبح فارسًا عظيمًا.

سأله القائد:

— فارسًا؟

ابتسم ماركوس.

— إن استمر على هذا النحو، فقد يصبح أكثر من ذلك.

توقف قليلًا.

— ربما قائدًا للجيش يومًا ما.

لكن الملك لم يكن يعلم أن الجملة التي قالها كمديح ستصبح بالنسبة إلى لوسين عبئًا يطارده لسنوات.

بدأ التدريب الحقيقي. في البداية كان لوسين يظنه لعبة. ثم أدرك أنها لم تكن كذلك. كان يستيقظ قبل شروق الشمس. يركض حتى تحترق رئتاه. يتدرب على السيف حتى ترتجف أصابعه. يتعلم ركوب الخيل، قراءة الخرائط، معرفة التضاريس، الحساب، تاريخ الممالك، فنون الحرب، أساليب القتال، وحتى كيفية قيادة مجموعة من الجنود. لم يكن الأمير أدريان يفعل شيئًا من ذلك. ولا إيلارا. ولا أطفال النبلاء. كانوا يستيقظون متأخرين. يدرسون ما يحتاجون إليه. يمضون أيامهم بين القاعات والحدائق والاحتفالات. أما لوسين فكان يرى الشمس أكثر مما يرى سقف غرفته. كان يعود في المساء متعبًا إلى درجة أنه بالكاد يستطيع رفع يده. وفي بعض الليالي كان يجلس وحيدًا أمام نافذته. ينظر إلى القصر. ثم يتساءل:

لماذا أنا؟ لماذا يجب أن أركض أكثر؟ لماذا يجب أن أتعلم أكثر؟ لماذا يجب أن أصبح أقوى؟

كان الملك يقول له دائمًا:

— لأن لديك موهبة.

لكن الموهبة لم تكن جوابًا كافيًا لطفل. كان لوسين يريد أن يعرف شيئًا آخر. هل كان الملك يحبه؟ أم كان يحبه لأنه وجد فيه سلاحًا جيدًا؟ لم يكن يعرف. وهذا الجهل كان أقسى من التدريب.

في إحدى الليالي، عاد لوسين إلى غرفته ووجد إيلارا جالسة على الأرض أمام الباب. كانت تحمل طبقًا صغيرًا.
قالت:

— تأخرت.

نظر إليها متعبًا.

— التدريب طال.

— أعرف.

رفعت الطبق.

— لذلك أحضرت لك الطعام.

جلس بجانبها.

— أنتِ لا تفعلين هذا لأدريان.

— أدريان لا يتدرب حتى يفقد القدرة على المشي.

ابتسم لوسين.

— صحيح.

دفعت الطبق نحوه.

— كل.

بدأ يأكل. راقبته إيلارا للحظات، ثم قالت:

— هل تكره التدريب؟

توقف. فكر.

— أحيانًا.

— إذن توقف.

رفع عينيه إليها. ضحكت.

— ماذا؟

— لو توقفت، سيغضب الملك.

— فليغضب.

— وسيقول إنني ضعيف.

صمتت. ثم قالت بهدوء:

— أنت لست ضعيفًا.

نظر إليها.

— كيف تعرفين؟

أشارت إلى يديه. كانت أصابعه مليئة بالخدوش.

— لأن الضعيف لا يصل إلى هنا.

ثم أشارت إلى قلبه.

— ولأنك ما زلت تبتسم.

لم يعرف لوسين ماذا يقول. كانت إيلارا تفعل شيئًا غريبًا معه. حين يكون العالم كله ثقيلًا، كانت تجعل الأشياء أخف. وحين يبدأ الشك في داخله، كانت تنظر إليه وكأنها لا ترى أي شيء يستحق الشك. مرت السنوات، وتغيرت طفولتهما إلى مراهقة دون أن يلاحظا. في السادسة عشرة، لم تعد إيلارا تلك الطفلة التي كانت تمسك إصبعه في القاعة. ولم يعد لوسين الطفل الذي وجدوه في الجنوب. كان أطول، أكثر قوة، ووجهه يحمل ملامح شاب بدأ يعرف قسوة العالم. أما إيلارا، فقد أصبحت أميرة يعرف الجميع أنها ستكون يومًا ملكة.

ومع ذلك، حين يكونان وحدهما، كان كل شيء يعود كما كان. يجلسان قرب البحيرة. تسأله عن تدريبه. ويخبرها عن أخطائه. تضحك حين يخبرها أن المدرب ضربه بالعصا لأنه شرد للحظة. وأحيانًا، كانت تصمت فقط. وتنظر إليه. كان لوسين يعرف تلك النظرات. لكنه لم يكن يملك الشجاعة ليمنحها اسمًا. لأنه كان يعرف الفرق بينه وبينها. هي أميرة. وهو طفل وجدوه بين الرماد. قد يصبح أفضل فارس في المملكة. قد يحمل راية الجيش. قد يحمي القصر كله. لكن هل يمكن لفارس أن يصبح شيئًا أكثر من حارس للأميرة؟ كان هذا السؤال يطارده. ولذلك استمر. كل ضربة. كل جرح. كل صباح بارد. كل ليلة نام فيها وعضلاته تؤلمه. كان يتحملها لأنه كان يحمل حلمًا صغيرًا لا يخبر به أحدًا. أن يصبح يومًا الرجل الذي يقف إلى جوار إيلارا. ليس خلفها. وليس بعيدًا عنها. بل إلى جانبها. وإذا كان عليه أن يقضي حياته كلها ليصبح جديرًا بذلك، فسيفعل.

لكن القصر لم يكن خاليًا من العيون. في أحد الأروقة، كان الأمير أدريان يقف وحده. كان قد رأى إيلارا تغادر الحديقة قبل دقائق. ورأى لوسين يبقى خلفها. لم يكن يعرف ما الذي يحدث بينهما. وربما لم يكن يريد أن يعرف. كان يرى كيف ينظر لوسين إلى أخته. ويرى كيف تغير وجهها حين يكون بالقرب منها. كان هناك شيء يتحرك في الظلال. شيء لا يتحدث عنه أحد. اقترب منه أحد الحراس.

— سمو الأمير؟

لم يجب أدريان فورًا. كان ينظر إلى المكان الذي اختفى فيه لوسين. ثم قال:

— هل تعرف أين ذهب؟

— لا، سموك.

ظل صامتًا. ثم ابتعد. لم يكن الغضب واضحًا في وجهه. ولم يكن الغيرة واضحة تمامًا. لكن شيئًا ما كان ينمو في داخله. شيئًا لم يكن يعرف كيف يسميه. وفي القصر، كانت هناك أشياء كثيرة لا تُقال. أسرار عن طفل جاء من قرية مدمرة. أسرار عن سبب نجاة ذلك الطفل. وأسرار عن سبب اختيار الملك له دون سائر الناجين. أما لوسين، فلم يكن يعرف شيئًا من ذلك. كان يظن أن حياته بدأت يوم حمله الملك بين ذراعيه. ولم يكن يعلم أن حياته الحقيقية ربما بدأت قبل تلك اللحظة بسنوات. في مكان ما من الجنوب. تحت رماد قرية لم يبقَ منها شيء. وفي ليلة بعيدة، قبل أن يعرف معنى اسمه، كان هناك من يبحث عنه. وكان هناك من أراد موته. وكان هناك من عرف منذ البداية... أن ذلك الطفل لن يكون فارسًا عاديًا. بل شيئًا أكبر بكثير.

الفصل الثاني:فارس الزمن

كان الصباح في الأكاديمية الملكية يبدأ قبل أن تستيقظ الشمس تمامًا.

تتسلل خيوط الضوء الأولى من خلف الجبال، فتنعكس على أبراج القصر البعيدة، بينما كانت ساحة التدريب تضج بأصوات الحديد والخشب وصيحات المدربين. رائحة التراب المبتل تختلط برائحة العرق والجلد، وصفير السيوف الخشبية وهي تشق الهواء يتردد بين الجدران الحجرية.

في إحدى الحلبات، كان لوسين يقف وسط مجموعة من الفتيان. كانوا جميعًا في مثل سنه تقريبًا، يرتدون ملابس التدريب الخفيفة، وقد غطى العرق وجوههم.

— مجددًا!

صرخ المدرب.

انطلق الجميع. اندفعت الأقدام فوق الرمل، وارتفعت السيوف الخشبية في الهواء. كان التدريب اليوم مخصصًا للحركات الأساسية: التقدم، التراجع، المراوغة، والضرب من الزوايا المختلفة.

أما لوسين، فكان يتحرك بهدوء غريب. لم يكن الأسرع دائمًا، لكنه كان يرى الحركة قبل حدوثها. تقدم أحد المتدربين نحوه وضرب من اليمين. مال لوسين قليلًا. مرت الضربة بجانب وجهه. ثم لمس كتف الفتى بطرف سيفه.

— مت.

تجمد الفتى.

— ماذا؟

ابتسم لوسين.

— لو كان السيف حقيقيًا.

— أنت مزعج.

— أعرف.

وقبل أن يرد عليه، جاء صوت المدرب:

— لوسين! لا تتحدث أثناء التدريب!

— هو الذي بدأ.

— لا يهمني!

رفع لوسين يديه باستسلام. كان الصباح يسير كأي صباح آخر. حتى جاء أحد الفتيان راكضًا من الجهة الأخرى للأكاديمية. كان يرتدي زي قسم السحر، وشعره منكوش، وأنفاسه متقطعة كأنه فرَّ من وحش. دخل الساحة دون إذن، وصرخ:

— شباب! شباب!

توقفت السيوف. التفت الجميع إليه.

قال أحد المدربين بغضب:

— كيف تجرؤ على مقاطعة التدريب؟

انحنى الفتى وهو يلهث.

— فارس... فارس الزمن!

ساد الصمت. ثم قال:

— ظهر!

لم يحتج إلى قول المزيد. انفجرت الساحة.

— ماذا؟!

— فارس الزمن؟!

— أين؟!

— هل هو هنا؟!

— مستحيل!

وفي لحظات، تحولت الأكاديمية الملكية إلى ما يشبه خلية نحل ضربها البرق. ترك المتدربون أسلحتهم، واندفعوا نحو الساحة الكبرى. حتى بعض المدربين وجدوا أنفسهم يركضون معهم. أما لوسين فحدق للحظة في الفوضى. ثم قال:

— ...يا لها من أكاديمية عظيمة

وركض خلفهم.

كانت الساحة الكبرى مكتظة بالبشر. طلاب من مختلف الأقسام، أساتذة، حراس، وحتى بعض العاملين في القصر تجمعوا حول المكان. كل شخص يريد أن يرى الرجل الذي لم يكن ظهوره يحدث إلا نادرًا. وفي وسط الزحام، وجد لوسين مكانًا جيدًا. لكن أحدهم كان واقفًا أمامه. نظر إليه. ثم إلى المكان الذي يحتله. ثم قال:

— تنحَّ.

— ماذا؟

أمسكه لوسين من شعره وسحبه إلى الخلف.

— آي! ماذا تفعل؟!

أخذ لوسين مكانه بهدوء.

— أشاهد.

— هذا مكاني!

— كان.

تركه الفتى يشتكي خلفه، بينما رفع لوسين عينيه إلى الساحة. وهناك... رآه. توقفت أنفاسه للحظة. رجل يقف إلى جانب الملك. كان يرتدي درعًا أسود قاتمًا، تزينه نقوش بيضاء دقيقة تمتد على صدره وكتفيه، بينما غطت خوذة كاملة رأسه، فلم يظهر من وجهه شيء. وعلى ظهره كان رمح طويل. لم يكن بحاجة إلى أن يقدم نفسه. الجميع يعرفه. فارس الزمن. بطل الحكايات التي كان لوسين يسمعها في طفولته. الرجل الذي ظهر في أعظم كوارث التاريخ، وقاتل في أماكن لم يعد أحد يعرف موقعها، ثم اختفى دون أن يترك خلفه سوى الأساطير. كان بالنسبة إلى لوسين أكثر من شخصية تاريخية. كان البطل الذي جعله يمسك أول عصا خشبية في حياته ويتخيل نفسه فارسًا. وكانت تلك اللحظة أشبه بأن تتحول إحدى صفحات كتاب طفولته إلى حقيقة أمام عينيه.

وصل آرثر أخيرًا بجانبه، يلهث. كان زميله في تخصص الفروسية وصديقه الأقرب. همس:

— بس... بس، أسمع.

— ماذا؟

— ما حكايته؟ لماذا الجميع متحمس هكذا؟

التفت إليه لوسين ببطء. ثم صفعه في مؤخرة رقبته.

— أيها الجهل اللعين! ألا تعرف حارس الزمن؟

فرك آرثر رقبته.

— كان بإمكانك الشرح دون قتلي.

— اسمع فقط. فارس الزمن شخصية تاريخية. ظهر اسمه منذ حادثة مملكة الظلال.

اتسعت عينا آرثر.

— ألم تحصل تلك الكارثة منذ ألفي سنة؟

— نعم.

— وأنت تتحدث عنه وكأنه جاركم القديم.

— أعرف أن ذلك غريب. وهذا المريب فيه أيضًا.

خفض لوسين صوته.

— لو قمت ببعض الدراسات، كما قال الأستاذ، فستلاحظ شيئًا غريبًا. كل من رأى فارس الزمن يقاتل عن قرب يصف الشيء نفسه.

— ماذا؟

— الأسلوب القتالي نفسه. نفس الحركات. نفس طريقة استخدام الرمح... وحتى السحر الهوائي.

رفع آرثر حاجبيه.

— هاه؟ هو ساحر هواء؟ لم أعتقد أن الملك يقبل بالسحر.

نظر إليه لوسين كأنه سمع أكثر جملة سخيفة في حياته.

— فارس الزمن عمك.

— ماذا؟

— وعم الجميع.

— لوسين، أنت تخيفني عندما تتحدث بهذه الثقة.

— لا تهتم. الأمر معقد.

وقبل أن يكمل، غمز آرثر له.

— انظر.

— إلى ماذا؟

— الملك والناظر وفارس الزمن... ينظرون إليك.

تجمد لوسين.

— ماذا؟

التفت ببطء. كان آرثر محقًا. الملك ينظر إليه. الناظر ينظر إليه. وفارس الزمن... ينظر إليه أيضًا. شعر لوسين بأن الألوان انسحبت من وجهه.

— لماذا ينظرون إليّ؟

— لا أعرف.

— لا تساعدني إذن.

ثم حدث شيء لم يتوقعه. رفع فارس الزمن يده إلى خوذته. وانطفأ الضوء الذي كان يضيء داخلها. للحظة، لم يرَ لوسين سوى الظلام. ثم ظهرت العينان. عينان خضراوان. اتسعت عينا لوسين. شعر بشيء دافئ يملأ صدره. سعادة صافية، بسيطة، لا تحتاج إلى تفسير. بطل طفولته كان أمامه. وبينما ظل لوسين يحدق، قال الملك:

— أثار هذا الفتى اهتمامك؟

ساد الصمت.

أجاب فارس الزمن بصوت هادئ:

— إنه ابنك؟

ابتسم الملك.

— ابني بالتبني. فارس ذو موهبة نادرة.

صمت فارس الزمن لحظة. ثم ابتسم تحت خوذته.

— أرى ذلك بوضوح.

عاد الصمت. ثم قال:

— على أي حال، هذه المعلومات هي كل ما أستطيع أن أمدك به في الوقت الحالي. استغلها جيدًا، يا جلالة الملك.

ابتسم الملك.

— حسنًا. ولكن لا تختفِ لعشرين سنة أخرى.

لم يجب فارس الزمن. وفجأة، انفجر حوله ضياء أبيض. رفع الجميع أذرعهم أمام وجوههم. وفي اللحظة التالية... اختفى. بقيت الساحة غارقة في الصمت. ثم بدأ الجميع يتحدثون في وقت واحد. أما لوسين، فظل واقفًا مكانه. كان يبتسم.

في الليل، كان القصر هادئًا.

طبعًا، سأحافظ على المشهد كما هو تقريبًا، وأجعل الرسم أكثر تفصيلًا بحيث تكون العينان الخضراوان جزءًا مقصودًا من رسم لوسين، وهذا هو ما يجعل إيلارا تشعر بالغيرة اللطيفة لأنها لم ترَ فارس الزمن عن قرب مثله.

في الليل، كان القصر هادئًا.

كانت السماء مغطاة بالنجوم، والقمر يسكب ضوءه الفضي على شرفة القصر، حتى بدا كل شيء ساكنًا كأنه لوحة معلقة في ظلام واسع.

جلس لوسين مع إيلارا حول طاولة صغيرة. أمامهما إبريق شاي وطبق من البسكويت، وكانت الأميرة ترتشف بهدوء، بينما كان لوسين غارقًا في ورقة أمامه، يمسك قلمًا بين أصابعه ويضيف لمسته الأخيرة إلى الرسم.

راقبته إيلارا للحظات.

— ماذا ترسم؟

لم يجب.

اقتربت منه قليلًا.

— لوسين؟

— لحظة.

نظرت إلى الساعة المعلقة على الجدار.

— لقد قلت ذلك قبل خمس دقائق.

— التفاصيل تحتاج وقتًا.

رفعت حاجبًا.

— منذ متى وأنت تعرف الرسم؟

أجاب بكل جدية:

— منذ اليوم.

ضحكت إيلارا. ثم مدت يدها وانتزعت الورقة من أمامه.

— أعطني!

— إيلارا!

رفعتها أمام عينيها. كان فارس الزمن مرسومًا عليها. الدرع الأسود بدا واضحًا بكل تفاصيله، والنقوش البيضاء التي تزينه مرسومة بعناية، والرمح الطويل على ظهره، وحتى الخوذة التي أخفت معظم وجهه. لكن أكثر ما أوقف إيلارا لم يكن الدرع ولا الرمح. بل العينان. كان لوسين قد رسمهما بدقة شديدة، بلون أخضر واضح، وحاول أن ينقل حتى النظرة الهادئة التي لمحها للحظة عندما أطفأ فارس الزمن نور خوذته. حدقت إيلارا في الرسم. ثم رفعت عينيها إلى لوسين.

— أنت رسمت عينيه أيضًا؟

— بالطبع.

— بهذه الدقة؟

أخذ لوسين الورقة منها وأشار إلى العينين.

— انظري. كان لونهما أخضر. لم أكن لأخطئ في ذلك.

ابتسم بفخر واضح.

— حتى أنني تذكرت شكل الدرع والنقوش الموجودة عليه.

نظرت إيلارا إلى الرسم مرة أخرى. ثم تنهدت.

— يا لك من محظوظ.

رفع لوسين حاجبه.

— محظوظ؟

— نعم.

ثم أخذت قطعة بسكويت، وقالت بنبرة تحمل شيئًا من الغيرة الطفولية:

— أنا أحسدك بصراحة.

ضحك لوسين.

— على ماذا؟

— أنت رأيته عن قرب، ورأيت وجهه وعينيه، بينما أنا لم أرَ سوى رجل يلمع ثم اختفى.

— لم يلمع هو، كان ذلك بسبب السحر.

— لا يهم.

أخذت الورقة منه وتأملت العينين مرة أخرى.

— لو كنت مكانك لرسمت عينيه أولًا أيضًا.

ابتسم لوسين.

— لهذا رسمتهما.

نظرت إليه إيلارا لحظة، ثم ابتسمت دون أن تجيب. عاد لوسين إلى مقعده، وأخذ رشفة من الشاي. وللمرة الأولى منذ الصباح، شعر أن يومه الطويل انتهى حقًا. أما إيلارا، فبقيت تنظر إلى الرسم قليلًا. ربما كانت تحسد لوسين فعلًا. ليس لأنه رأى فارس الزمن فحسب... بل لأنه استطاع أن يرى شيئًا لم يستطع أحد آخر رؤيته. تلك العينان الخضراوان، اللتان بقيتا عالقتين في ذاكرة لوسين منذ اللحظة التي ظهرتا فيها أمامه. وكان لوسين يظن أنه رسمهما لأنه أراد الاحتفاظ بصورة بطله. لكنه لم يكن يعرف أن تلك العينين تحديدًا... ستصبحان يومًا ما واحدة من أكثر التفاصيل أهمية في حياته.

الفصل الثالث: بين السيف و العقل

كان صباح اليوم التالي أكثر هدوءًا من المعتاد.

جلست مجموعة المتدربين في قاعة الاستراتيجيات الحربية، حيث امتدت أمامهم خرائط كبيرة مرسومة على أوراق سميكة، تتناثر فوقها علامات خشبية صغيرة تمثل الجنود والفرسان ومواقع التحصينات.

كانت القاعة مستطيلة، جدرانها مغطاة بخرائط قديمة، وعلى الجدار الأمامي لوحة سوداء كبيرة امتلأت بالرسوم والخطوط منذ بداية الدرس. وقف الأستاذ أمامها، ممسكًا بقطعة طبشور.

— في الحرب، القوة وحدها لا تكفي. الجيش الذي يملك العدد الأكبر قد يخسر أمام جيش أصغر إذا أُجبر على القتال في المكان الخطأ، وفي الوقت الخطأ.

كان لوسين يصغي باهتمام. عيناه تنتقلان بين الخريطة والقطع الخشبية أمام الأستاذ. أما آرثر، الذي كان يجلس إلى جواره، فقد بدا وكأن الكلمات تمر من أذنه اليمنى لتخرج من اليسرى دون أن تترك أثرًا. ظل الأستاذ يشرح توزيع القوات، بينما كان لوسين يكتب بعض الملاحظات. وفجأة، همزه آرثر بمرفقه. التفت لوسين.

— ماذا؟

اقترب آرثر منه وهمس:

— أسمع.

— ماذا؟

— متى ستعترف بحبك للأميرة إيلارا؟

توقفت يد لوسين فوق الورقة. نظر إليه بطرف عينه.

— هل جننت؟

— سؤال طبيعي.

— لا، ليس طبيعيًا.

— بالنسبة إليّ طبيعي جدًا.

خفض لوسين صوته.

— لا أعرف بصراحة. الموضوع خطأ بشكل كبير.

— خطأ؟

— ...هي الأميرة وأنا

توقف لحظة.

— أنا أنا.

رفع آرثر حاجبه.

— تفسير عبقري.

تنهد لوسين.

— أخاف أن يكتشف الملك الأمر ويجلدني على بكرة أبي.

— لن يفعل.

— وأخاف أن تكون إيلارا تعرف بالفعل.

ابتسم آرثر بثقة مصطنعة.

— لا تخف. عملائي المندسون يؤكدون لي أنها لا تعلم.

حدق لوسين فيه.

— عملاؤك المندسون؟

— لا تسأل عن مصادر استخباراتي.

— ليس لديك مصادر استخباراتية.

— لدي.

— من؟

— خادم المطبخ.

كاد لوسين يضحك.

— أنت أحمق.

— أحمق، نعم. لكنني أحمق يعرف متى تكون الفتاة معجبة بشخص.

ثم مال نحوه وقال:

— وبصراحة، لا أعتقد أن الملك سيجد أحدًا أكفأ لأميرته سواك.

تردد لوسين.

— لا تجعل الأمر يبدو بهذه السهولة.

— أنا فقط أقول الحقيقة.

ثم ابتسم آرثر ابتسامة ماكرة.

— على الرغم من أنني أتمنى، يا ذنوبي، أن يقبل بك الأمير أدريان أصلًا.

لم يكد ينهي جملته... حتى التفت الأستاذ. وفي حركة خاطفة، رمى قطعة الطبشور. انطلقت في الهواء كالسهم. لم يرَ آرثر سوى نقطة بيضاء تقترب من وجهه.

— ماذا...؟

لكن قبل أن تصيب عينه، امتدت يد لوسين. أمسك قطعة الطبشور بين إصبعين. توقفت على بعد شعرة من عين آرثر. تجمد آرثر في مكانه. تسللت قطرة عرق باردة من صدغه، ثم تبعتها أخرى. ظل جسده متيبسًا، وكتفاه مرفوعين، وعيناه تحدقان في قطعة الطبشور التي كادت تدخل في تاريخه الطبي إلى الأبد.

قال لوسين بهدوء:

— أنت بخير؟

بلع آرثر ريقه.

— أظن أن روحي خرجت من جسدي وعادت للتو.

تعالت ضحكات بعض الطلاب. أما الأستاذ فقال:

— ردة فعل جيدة يا لوسين.

وضع لوسين قطعة الطبشور على الطاولة.

— شكرًا، أستاذي.

— ...وما دمت مركزًا إلى هذا الحد

أشار إلى اللوحة.

— فلتجب عن هذا السؤال.

ساد الهدوء. رسم الأستاذ خريطة جديدة. جيش عدو قوامه أكبر من جيشك بنحو الثلث، يتمركز في سهل مفتوح أمام مدينة محصنة. قواتك أقل عددًا، لكن لديك حصن خلفك، وتضاريس مرتفعة على جانبي السهل، وقوة فرسان تستطيع التحرك بسرعة. قال:

— العدو يريد إجبارك على التراجع إلى المدينة قبل أن يصل إليه جيش إمداد بعد يومين. لديك يوم واحد فقط لتعطيل تقدمه. إذا هاجمته مباشرة ستخسر بسبب تفوقه العددي. ماذا تفعل؟

نظر لوسين إلى الخريطة. لم يجب فورًا. اقترب من اللوحة. كان أمامه خط طويل يمثل جيش العدو، وفي الوسط أرض مفتوحة، بينما كانت المرتفعات على الجانبين تضيقان تدريجيًا كلما اقتربتا من المدينة. أخذ قطعة خشبية.

— لن أقاتله هنا.

وضعها خلف خط العدو.

— سأجعله يعتقد أنني أقاتله هنا.

رفع الأستاذ حاجبه. تابع لوسين:

— أقسم قواتي إلى ثلاثة أجزاء. المركز يكون أضعف من الجناحين، وأعطي العدو انطباعًا بأنني أريد الدفاع عن الطريق المؤدي إلى المدينة.

حرك القطع.

— عندما يبدأ بالضغط، يتراجع المركز ببطء، لا هروبًا، بل تراجعًا محسوبًا. سيظن أن خطوطنا تنهار، فيدفع مزيدًا من رجاله إلى الأمام للحاق بنا.

أشار إلى الجناحين.

— في الوقت نفسه، أبقي المشاة الأقوى هنا وهنا، خارج مدى نظره قدر الإمكان.

ثم أخذ قطع الفرسان.

— أما الفرسان فلا أرسلهم إلى قلب المعركة. أجعلهم يلتفون خلف الجناحين، ويهاجمون مؤخرة الجيش عندما يندفع مركزه إلى الأمام.

قال أحد الطلاب:

— لكنه سيكتشف الخطة.

هز لوسين رأسه.

— إذا اكتشفها مبكرًا، نعم.

ثم أشار إلى المرتفعات.

— لذلك لن تكون المهمة الأولى للفرسان هي الهجوم. سيقطعون طرق الإمداد ويهاجمون رسل العدو، ثم يظهرون من الخلف للحظات ويختفون. أريد أن يشعر قائدهم أن خطوطه الخلفية مهددة.

صمت قليلًا. ثم وضع آخر قطعة.

— عندما يصبح مركز جيشه متقدمًا عن جناحيه، وتتكدس قواته في المساحة الضيقة بين المرتفعات، أتوقف عن التراجع.

ثم أغلق بيده المسافة بين القطع.

— هنا تبدأ المعركة الحقيقية.

تحرك الجناحان إلى الداخل.

— تضغط الجناحان عليه من الجانبين، بينما يثبت المركز مكانه، وتغلق الفرسان الطريق خلفه.

نظر إلى الأستاذ.

— لن أحتاج إلى تدمير جيشه بالكامل. أحتاج فقط إلى جعله عاجزًا عن التقدم ليوم واحد.

ساد الصمت. حتى آرثر، الذي كان قبل دقائق يوشك على فقدان عينه بسبب قطعة طبشور، كان ينظر إليه بفم مفتوح. تأمل الأستاذ الخريطة طويلًا. ثم ابتسم.

— أنت لم تبحث عن طريقة لهزيمة الجيش.

أجاب لوسين:

— بحثت عن طريقة لأجعل تفوقه العددي بلا قيمة.

اتسعت ابتسامة الأستاذ.

— بالضبط.

استدار نحو الطلاب.

— أنت بالفعل موهبة فذة يا لوسين. ولا عجب أنك في أفضل المراتب. إذا حافظت على هذا المستوى، فستصل إلى أماكن عظيمة في المستقبل.

ثم نظر إليه.

— ولهذا سألتك أنت.

توقف لحظة. وأشار إلى آرثر.

— ولم أسأل الهائشة بجانبك.

رفع آرثر يده باعتراض.

— أستاذي!

ضحك بعض الطلاب. قال الأستاذ:

— هل يمكنك أن تحل هذه المسألة بنفس هذه البراعة؟

جلس آرثر مستقيمًا. فكر لثلاث ثوانٍ. ثم قال بكل صدق:

— أستاذي... أنا لا أفهم النظرية.

تنهد الأستاذ.

— وماذا تعرف إذن؟

ابتسم آرثر.

— أعرف أن آخذ سيفي وأحارب.

وضع الأستاذ يده على جبينه. ثم التفت إلى بقية الطلاب.

— ألم أقل لكم إنه هائشة؟ لا يعرف سوى المضي إلى الأمام برأس فارغ!

انفجرت القاعة بالضحك. أما آرثر، فالتفت إلى لوسين وهمس:

— على الأقل رأسي ليس فارغًا تمامًا.

— صحيح.

نظر لوسين إليه.

— فيه صدى.

— سأعتبرها مجاملة.

ابتسم لوسين. وعاد إلى الخريطة. لكن خلف ابتسامته، كان شيء آخر قد بدأ يتشكل. للمرة الأولى، لم يكن الأستاذ ينظر إليه باعتباره مجرد فتى قوي يحمل سيفًا. بل باعتباره شخصًا يستطيع أن يفكر كقائد. ولوسين نفسه بدأ يدرك أن الطريق الذي يسير فيه لم يعد مجرد طريق فارس. ربما كان يقوده إلى شيء أكبر بكثير.

الفصل الرابع – قهوة بطعم الخيبة

خمسة عشر عامًا مرّت منذ أن خطا لوسين أولى خطواته في أروقة الأكاديمية الملكية، وخمسة عشر عامًا كانت كافية لتحوّل الطفل الذي كان يتساءل عن سبب قسوة تدريبه إلى واحد من أعظم الفرسان الذين أنجبتهم المملكة.

تخرّج لوسين في المرتبة الأولى، متفوقًا على جميع أقرانه في المبارزة وركوب الخيل والتخطيط العسكري، حتى إن معلميه الذين اعتادوا توبيخه وجدوا أنفسهم يومًا يقفون أمامه بفخر لا يخلو من شيء من الحرج. لكنه لم يكتفِ بشهادة معلقة على جدار، ولا بسيف يتلألأ تحت ضوء الشمس؛ فقد جاءت الحرب لتختبر ما تعلّمه، ولتمنحه ما لم تستطع قاعات الدراسة أن تمنحه إياه.

خاض أولى معاركه وهو لا يزال في مقتبل شبابه، وهناك اكتشف أن ساحة الحرب لا تشبه الخرائط المرسومة على الورق. رائحة الدم والحديد، صرخات الجرحى، وصوت الخيول الهائجة كانت كفيلة بتحطيم أكثر الرجال ثباتًا. ومع ذلك، ظل لوسين واقفًا، يقاتل حين يتطلب الأمر القتال، ويفكر حين يكون التفكير أثمن من ألف ضربة سيف.

في إحدى المعارك، حاصر جيش العدو كتيبته بين غابة كثيفة ونهر سريع الجريان. ظن القادة أن الهزيمة أصبحت مسألة وقت، لكن لوسين لاحظ أمرًا لم ينتبه إليه أحد: آثار عجلات حديثة على الطين، ومسار إمدادات لا يتناسب مع حجم الجيش المحاصر لهم.

لم يندفع إلى الهجوم، بل أرسل مجموعة صغيرة عبر ممر ضيق، وأخفى فرسانه خلف مرتفع صخري، ثم ترك للعدو طريقًا بدا وكأنه منفذ للنجاة. وحين اندفعت قواته لملاحقتهم، أُغلقت الطرق خلفها، وانقلب الانسحاب الوهمي إلى فخ محكم. انتهت المعركة بانتصار بدا مستحيلًا في بدايتها. ومنذ ذلك اليوم، لم يعد اسم لوسين يُذكر بوصفه فارسًا بارعًا فحسب، بل عقلًا عسكريًا يصعب التنبؤ بخطوته التالية. ثم جاءت حادثة الخيانة.

كان أحد النبلاء يسرّب تحركات الجيش إلى العدو، مستغلًا مكانته وثقة الملك به. لم تكن هناك أدلة واضحة، ولم يكن الرجل يتصرف بما يثير الشبهات؛ بل كان من أول الواقفين في قاعة الحرب، وأكثرهم حرصًا على إظهار الولاء. لكن لوسين لاحظ أن العدو كان يعرف في كل مرة موعد تحرك إحدى الكتائب، حتى حين لا تُسجّل الأوامر في السجلات الرسمية.

بدأ التحقيق بصمت. راجع الرسائل، وقارن أوقات وصولها، وتتبع طرق الخدم والرسل، حتى اكتشف أن المعلومات لم تكن تُسرّب من قاعة الحرب نفسها، بل من ملخصات تُرسل إلى أحد مستشاري النبيل.

وفي اجتماع حضره كبار القادة، وضع لوسين الرسائل أمام الملك، ثم عرض سلسلة من الأدلة التي لم تترك للخائن مجالًا للمراوغة. ساد الصمت القاعة. حاول النبيل الإنكار، ثم الغضب، ثم التذرع بأن الأمر كله مؤامرة، لكن لوسين لم يرفع صوته مرة واحدة. اكتفى بأن دفع آخر رسالة نحوه وقال:

«.الغريب أنك كنت تعرف موعد الهجوم قبل أن يعرفه قائد الكتيبة نفسها»

في تلك اللحظة، تغيّر وجه الرجل. لم يحتج لوسين إلى سيف كي يهزمه؛ فقد كان قد انتزع منه سلاحه قبل أن يدخل القاعة.

بعدها توالت الترقيات، حتى مُنح رتبة جنرال أعلى في سنّ مبكرة على نحو أثار دهشة المملكة. صار اسمه يسبق وصوله إلى ساحات القتال، وصار الجنود يطمئنون حين يعرفون أنه يقودهم.

ومع ذلك، لم يستطع الفوز بكل شيء. ففي القصر الذي عاد إليه منتصرًا مرارًا، كانت هناك أميرة واحدة يخسر أمامها دون أن يخوض معركة. إيلارا.

لم تعد الفتاة التي كانت تحمل إليه الشاي والبسكويت حين يطول تدريبه، ولا تلك التي كانت تجلس إلى جواره في الشرفة وتستمع إلى أحلامه. أصبحت أكثر هدوءًا، أكثر انشغالًا، وأكثر بعدًا عنه. كانت تحيّيه حين تلتقيه، تسأله عن أحوال الجيش إن اقتضى المقام، ثم تمضي كأن بينهما مسافة لا تُقاس بالخطوات.

في البداية، أقنع نفسه بأنها كبرت، وأن واجبات الأميرة أثقلت أيامها. ثم أقنع نفسه بأن الحروب غيّرت كليهما. وبعد ذلك، بدأ يتجنب البحث عن عينيها في القاعات، لأن نظرة عابرة منها كانت توقظ فيه أملًا يندم عليه طوال الليل.

كان الأمر أشبه بسكاكين صغيرة تستقر في قلبه كلما مرّت بجانبه دون أن تتوقف.

كم مرة وقف أمام باب غرفته، عازمًا على مصارحتها، ثم عاد أدراجه؟ وكم مرة قال لنفسه إن عليه أن يتوقف عن التعلق بحلم قد لا يكون له مكان في قلبها؟

ومع ذلك، ظل شيء خافت في داخله يرفض الاستسلام. صوت صغير، عنيد، يخبره أن بعض المعارك لا تُربح بالسيوف، بل بكلمة واحدة تُقال في الوقت المناسب.

لكن لوسين، الذي واجه جيوشًا كاملة دون أن ترتجف يداه، لم يعرف كيف ينطق بتلك الكلمة.

في الزمن الحاضر، جلس لوسين في أحد مكاتب القصر، يحتسي قهوته بينما يتربع آرثر على الكرسي المقابل له، وقد وضع قدميه على طرف الطاولة رغم أن لوسين هدده مرارًا بإلقائه من النافذة إن كرر فعلته.

كانت رائحة القهوة تملأ الغرفة، وأشعة الشمس تتسلل من النافذة لتستقر فوق كومة من التقارير العسكرية.

قال آرثر وهو يدير فنجانه بين يديه:

«أتذكر حين ظننت أن بإمكانك الفوز في مبارزة وأنت مصاب بحمى؟»

أجابه لوسين ببرود:

«.أتذكر جيدًا. وأتذكر أيضًا أنني فزت»

«.نعم، ثم أغمي عليك فوق خصمك. لا أعرف كيف أهنئك على ذلك الإنجاز»

ضحك لوسين، وكاد يجيبه، لكن آرثر اعتدل فجأة في جلسته وقال:

«على ذكر الإنجازات، ألا ترى أنه من الغريب أن يرسلنا الملك في مهمة في يوم زفاف الأميرة؟»

تجمّد لوسين في مكانه. وفي اللحظة التالية، بصق القهوة دفعة واحدة.

«!أحححححاااا! زواج مَن؟»

حدّق آرثر فيه، ثم نظر إلى القهوة المتناثرة على الطاولة.

«الأميرة، يا عبقري. إيلارا ستتزوج. ألا تعرف؟»

ظل لوسين يحدّق فيه لثانيتين، وكأن الكلمات وصلت إلى أذنيه بلغة لا يفهمها. انخفضت يده ببطء، واختفى المرح عن وجهه، ثم رمش بعينيه وكأنه يحاول التأكد من أنه لم يسمع خطأ.

«بحقك... هل نسيت أنني كنت في مهمة في أقصى البلاد منذ أشهر؟ كيف سأعرف؟»

قالها بنبرة حاول أن يجعلها طبيعية، لكن أصابعه انقبضت حول الفنجان الفارغ. أطلق زفرة قصيرة، ثم رفع حاجبيه نحو آرثر.

وماذا سأفعل برأيك؟ أقتحم الزفاف بفأس وأقول: إما أن تتزوجيني وإما نموت معًا؟ بالطبع، إن عدنا مبكرًا فسأهنئها. أنا مجرد» «.فارس، في النهاية

صمت آرثر قليلًا، ثم قال بصدق خالطه شيء من المزاح:

«.لم أتوقع هذه الإجابة من الفتى المحب»

أغمض لوسين عينيه، وأسند رأسه إلى ظهر الكرسي.

«.أرحمني يا أخي. فكّ عن سمائنا وأرضنا! لا أعرف لماذا أحببتها أصلًا»

ثم نظر إليه، ولاحظ أن ابتسامته قد خفّت.

«.أعتذر... لم أقصد أن أقول ذلك بهذه الطريقة»

رفع آرثر حاجبيه باستنكار.

وما هذا الكلام أيها المعتوه؟ أنت صديقي وأنيس دربي. بالطبع سأتقبل فشلك العاطفي! بل سأحرص على تذكيرك به حتى آخر يوم» «.في حياتك

صفعه لوسين بخفة على مؤخرة رقبته.

«!أيها الوغد»

ضحك آرثر وهو يفرك رقبته، ثم مد قبضته نحو صديقه. لامس لوسين قبضته بقبضته، كما اعتادا أن يفعلا منذ أيام الأكاديمية. لكن حين عاد آرثر إلى فنجانه، ظل لوسين ينظر إلى قهوته الباردة. كان يستطيع مواجهة الخونة، وقيادة الجيوش، وتغيير مسار الحروب. أما فكرة أن يقف يومًا أمام إيلارا ويبتسم لها وهي ترتدي ثوب زفافها لرجل آخر... فلم يكن يعرف أي سيف في العالم يمكنه أن يحميه من ذلك.

الفصل الخامس : حين مات نصف الروح

مرّ شهر كامل. شهرٌ حاول فيه لوسين أن يقنع نفسه بأن الحياة لا تتوقف عند بابٍ أُغلق في وجهه، وأن زفاف إيلارا ليس سوى فصلٍ آخر من فصول الحياة التي لم تمنحه يومًا ما أراد. شهرٌ أمضاه غارقًا في التقارير العسكرية والتدريبات، متظاهرًا بأن خبر زواج الأميرة لم يترك في صدره سوى فراغٍ عابر. ثم جاء اليوم المنتظر.

كان الصباح ملبّدًا بسحب رمادية ثقيلة، حتى إن الشمس بدت كأنها نسيت طريقها إلى المملكة. هبّت الرياح بين أبراج القصر، وحملت معها برودة غير مألوفة، بينما راحت الأشجار تنحني تحت وطأة الريح كأنها تتلقى إنذارًا لا يفهمه سواها. في ساحة التجمع، وقف الجنود أمام خيولهم، يتفقدون سيوفهم ودروعهم ويشدّون أحزمة معداتهم. كان من المفترض أن تكون مهمة روتينية لدعم جبهة بعيدة في عمق الغابة، وفقًا لأوامر مختومة بختم الملك. لكن الملك لم يحضر. لم يقف أمامهم ليلقي خطابًا يحفّزهم، ولم يأتِ حتى ليودّع القادة كما اعتاد قبل المهمات المهمة. ومع ذلك، لم يبدُ الأمر غريبًا لأحد؛ فاليوم زفاف ابنته، ولا عجب أن يفضّل البقاء في القصر. على الأقل، هكذا قال الجميع. كان لوسين يفحص قائمة الجنود حين اقترب منه آرثر، وهو يشدّ قفازه الجلدي بأسنانه.

«.أتعلم؟ لو كنت ملكًا، لجعلت كل المهمات العسكرية تتوقف في يوم زفافي»

رفع لوسين عينيه إليه.

«.أنت لو كنت ملكًا، لأعلنت الحرب على أول شخص يرفض إعارتك حصانه»

«.هذا افتراء. سأعلن الحرب على الشخص الذي يرفض إعارتي حصانه الجميل فقط»

ابتسم لوسين ابتسامة قصيرة، ثم عاد إلى القائمة. شيء ما لم يعجبه. كان تشكيل الكتيبة غريبًا؛ فرسان من وحدات مختلفة، ومخططون عسكريون، وحدادون عسكريون، وجنود من أقسام لم يسبق لها العمل معًا. والأغرب أن معظمهم يعرف بعضهم بعضًا، إما لأنهم درسوا في الصفوف نفسها، أو لأنهم خدموا معًا في وحدات مترابطة. لم يكن ذلك مستحيلًا، لكنه لم يكن التشكيل الذي يختاره قائد عاقل لمهمة دعم عادية. لاحظ آرثر الأمر أيضًا.

«هل تظن أنهم جمعونا على عجل؟»

أجاب لوسين وهو يمرر إصبعه على الخريطة:

«.ربما. نحتاج إلى حدادين ميدانيين في الجبهة، والمخططون قد يكونون لتقييم الوضع»

«والفرسان من خمس وحدات مختلفة؟»

«.لا أعرف»

نظر آرثر إلى ختم الملك على وثيقة الأوامر، ثم هز كتفيه.

«.ما دام الأمر يحمل توقيعه، فليس لدينا سبب للشك»

أعاد لوسين طي الورقة ووضعها في حقيبته.

«.صحيح. هيا، قبل أن تقرر مهاجمة الحدادين لأنهم يحملون مطارق أكبر من مطرقتك»

«.مطرقتي ليست كبيرة»

«.بالطبع. إنها مجرد سلاح حصار صغير»

انطلقت ضحكة من أحد الجنود القريبين، وانطلق معها شيء من المرح الخافت بين الرجال. ثم دوّى صوت البوق، فتحركت الكتيبة نحو الغابة، تاركة خلفها ساحة القصر وجرسًا بعيدًا بدأ يعلن احتفالات الزفاف. كان ذلك آخر صوت سعيد يسمعه بعضهم في حياتهم.

***

كلما توغلوا في الغابة، ازدادت الأشجار كثافة، وتحوّل ضوء النهار إلى خيوط باهتة تتسلل بين الأغصان. كانت الأرض رطبة، والضباب يزحف بين الجذور، فيما راحت الخيول تصهل بقلق لم يستطع الفرسان تفسيره. حاول آرثر كسر الصمت.

«هل تتذكر أول مرة خرجنا فيها من الأكاديمية؟»

«حين سقطت عن حصانك أمام قائد الفرسان؟»

«.كان الحصان هو المخطئ»

«.لقد كنت تسير إلى الخلف»

«.كنت أختبر قدرته على التراجع»

هز لوسين رأسه ضاحكًا، لكن ابتسامته اختفت حين لمح آثارًا غريبة على الأرض. لم تكن آثار أقدام عادية؛ بل علامات متقطعة، كأن عددًا كبيرًا من الرجال مرّ من هناك ثم حاول إخفاء مساره. وقبل أن يتكلم، أشار آرثر إلى الأمام.

«.وصلنا تقريبًا»

كانت الجبهة التي قيل إنهم سيعززونها تقع في منخفض بين الأشجار، لكن لم تظهر أمامهم رايات صديقة، ولا حواجز دفاعية، ولا حتى دخان مخيم عسكري. فقط صمت. صمت كثيف، كأن الغابة تحبس أنفاسها. مال آرثر نحو لوسين، وانخفض صوته.

«.هناك شيء خاطئ»

نظر إليه لوسين بطرف عينه.

«وما هو، يا صاحب نظريات المؤامرة؟ هل اكتشفت أن الأشجار تتآمر علينا؟»

لم يضحك آرثر.

«أتحدث بجدية. هل فكرت يومًا في الرابط الذي يجمعنا جميعًا؟»

«.نحن جنود في الجيش نفسه. هذا رابط كافٍ»

«.لا. أقصد الرابط الحقيقي»

توقف لوسين عن تفقد محيطه ونظر إليه. تابع آرثر بصوت أثقل:

«.كل واحد منا يحمل ضغينة ضد الأمير. أنا مثلًا، الفتاة التي أحببتها اختارته هو. وأنت... أنت تحب أخته»

شعر لوسين بأن شيئًا باردًا انزلق على طول ظهره. أكمل آرثر:

«بعضنا خسر مكانته بسببه، وبعضنا تضررت عائلته بسبب قراراته. لسنا مجرد مجموعة من الجنود؛ نحن أشخاص جمعهم شيء واحد، حتى لو لم نعترف به. أظن أن أحدهم اختارنا لهذا السبب.»

فتح لوسين فمه ليجيبه، لكن—

.انفجرت الأرض تحتهم

ابتلع الضوءُ الغابةَ في ومضة بيضاء، ثم ارتفع التراب والحجارة والخيول والرجال في الهواء كأن يدًا عملاقة انتزعتهم من العالم. دوّى الانفجار حتى اهتزت الأشجار، وتكسرت الأغصان فوق الرؤوس، وانطلقت صرخات لم تكتمل قبل أن تبتلعها الانفجارات التالية. سقط لوسين عن حصانه بعنف. ارتطم كتفه بصخرة، وشعر بشيء حاد يمزق جانبه. للحظات، لم يسمع سوى صفير حاد داخل أذنيه. ثم عاد العالم إليه دفعة واحدة. صليل الحديد. صراخ الرجال. خيول تتلوى على الأرض. سهام تنطلق من بين الأشجار. أعداء يندفعون من كل جانب. لم تكن هناك جبهة تحتاج إلى الدعم. لقد أُرسلوا إلى المذبحة.

نهض لوسين مترنحًا، وانتزع سيفه. كان الدم يسيل من جبهته إلى عينيه، لكنه قاتل. ضرب الأول، وأسقط الثاني، ثم صدّ هجوم ثالث قبل أن يطعنه في كتفه. لم يعد يفكر في الخطة أو التشكيل، بل في البقاء، وفي الأصوات التي أخذت تخفت من حوله. كان رجال الكتيبة يسقطون من الجهتين. أولئك الذين قاتلوا إلى جانبه لسنوات، والذين شاركوه الخبز والضحكات والمخاطر، كانوا يختفون واحدًا تلو الآخر وسط الطين والدم. وبعد زمن لم يعرف طوله، انتهى كل شيء. لم يبقَ سوى الريح.

وقف لوسين في وسط الخراب، يلهث بعنف. كان جسده مغطى بدمائه ودماء الآخرين، واختلط الطين بعرقه على وجهه. اهتز سيفه في يده، لا من الخوف وحده، بل من الإرهاق الذي كاد يسلبه القدرة على الوقوف. صرخ:

«!آرثر»

لم يجبه أحد.

«!أيها الحمقى! هل يسمعني أحد؟»

دار بعينيه بين الجثث، يتعثر بجثث الخيول وبقايا الدروع المحطمة. ثم لمح يدًا ترتفع قليلًا من خلف صخرة. ركض نحوها. لكن رجلًا من الأعداء كان لا يزال يتحرك قرب الطريق. أمسك لوسين بسيفه، وغرسه في يد الرجل قبل أن يتمكن من التقاط خنجره. صرخ العدو، فقبض لوسين على درعه وجرّه نحوه.

«!من أرسلكم؟ اعترف»

«—لا أعرف... أقسم»

ركله لوسين بعنف.

«!لا تكذب عليّ! من أرسلكم؟»

ارتجف الرجل تحت قبضته، وراح يستجدي الرحمة، لكن لوسين لم يعد يرى أمامه سوى الوجوه التي سقطت منذ لحظات.

«الرحمة؟»

ضحك ضحكة قصيرة خالية من أي فرح.

«أين كانت رحمتكم حين ذبحتم رجالي؟»

تلعثم الرجل، ثم قال بصوت متقطع:

«!الأمير... أمير مملكتكم، وأمير مملكتنا... اتفقا على هذا. لا أعرف شيئًا آخر»

تجمد لوسين. للحظة، بدا وكأنه لم يفهم الكلمات. ثم انخفض رأسه قليلًا، وارتسمت على وجهه ابتسامة صغيرة، مرعبة أكثر من غضبه.

«الأمير؟»

ارتجفت شفتاه.

«أهذا هو السبب؟»

بصق الرجل قرب قدميه، وقال:

«.لقد أُمرنا بقتل كل من في الكتيبة. لم يكن ينبغي لأحد أن يعود»

حدق لوسين فيه طويلًا، ثم دفعه إلى الأرض.

«الرحمة؟ أين كانت رحمتكم حين قتلتم أعز من في قلبي؟»

توقف، والتفت نحو اليد التي لمحها من بعيد.

«.صلِّ لأن يكون آرثر حيًا. وإلا، أقسم لك أن مصير الأميرين سيكون أسوأ من مصيرك»

أخذ من حقيبته مسحوقًا متفجرًا كان يستخدمه في المهمات الميدانية، ولفه بقطعة قماش. لم يكن يفكر بوضوح، ولم يحاول أن يقنع نفسه بأن ما يفعله عدالة أو انتقام. كان الغضب قد استولى على كل شيء داخله، ولم يبقَ إلا صوت واحد يصرخ بأن العالم أخذ منه ما لا يحق له أخذه. أشعل الفتيل، ثم حشر العبوة في فم الرجل وابتعد. دوّى انفجار قصير خلفه.و تناثرت أشلاء رأس رجل مع عدم و لحم و دم لم يلتفت. كان يركض نحو آرثر.

***

وجده ممددًا على جانبه، وقد انزاح جزء من درعه عن صدره. كان وجهه شاحبًا، وشفته ترتجف مع كل نفس. ضغط بيده على جرحه، لكن الدم كان يتسرب بين أصابعه، دافئًا وثقيلًا. سقط لوسين على ركبتيه بجانبه.

«آرثر؟»

فتح صديقه عينيه بصعوبة.

«.تأخرت... كالعادة»

خرجت من لوسين ضحكة مختنقة، سرعان ما تحولت إلى شهقة.

اصمت. سأخرجك من هنا. هل تسمعني؟ ستعود معي، وسأجعل الطبيب يعالجك، وبعدها سأكسر ساقك بنفسي لأنك جعلتني أركض» «.كل هذه المسافة

حاول آرثر الضحك، لكنه سعل دمًا.

«.يا لك من... رجل رومانسي»

ضغط لوسين على جرحه بكلتا يديه.

«.تماسك، أرجوك. لا ترحل»

نظر آرثر إليه طويلًا، وكأنه يحاول حفظ ملامحه.

«.لوسين... اسمعني»

«.لن أسمع شيئًا. ستنهض أولًا»

«.أعطني دقيقة، أيها الغبي»

رفع آرثر قبضته ببطء، بصعوبة بدت أكبر من قدرته على الاحتمال. فهم لوسين ما يريد، فرفع قبضته المرتجفة ولمسها بقبضة صديقه. ابتسم آرثر ابتسامة واهنة.

«.أولًا... أعطيك الإذن بأن تتخذ شخصًا آخر صديقًا مقرّبًا»

حدق لوسين فيه، والدموع تتجمع في عينيه رغم محاولاته حبسها.

«ما هذا الهراء؟»

«.أعرفك... أيها الوغد الوفي. ستعزل نفسك عن الناس، وستقضي بقية حياتك تتحدث إلى سيفك. ولا أريد أن أراك تفعل ذلك»

ارتجفت شفتا لوسين. تابع آرثر، وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة:

«.ثانيًا... إذا تزوجت يومًا، أريد أن تسمي ابنك الأول باسمي»

«.ستسميه بنفسك، أيها الأحمق»

«.لا، لا... أريد أن أضمن أن طفلًا واحدًا على الأقل في هذه المملكة سيحمل اسمًا عظيمًا»

خرجت من لوسين ضحكة صغيرة رغمًا عنه، ثم انهارت على وجهه كأنها لم تكن. أغمض آرثر عينيه لحظة، قبل أن يفتحهما من جديد.

«.وثالثًا... أريدك أن تقطع ذلك الأمير الخائن إربًا إربًا. وانسف رجولته إن كانت موجودة أصلًا»

ضحك كلاهما. كانت ضحكة مكسورة، تتعثر بين السعال والدموع، لكنها كانت ضحكتهما؛ الضحكة نفسها التي رافقتهما في قاعات الأكاديمية، وعلى طرقات السفر، وفي الليالي التي ظنا فيها أن العالم مهما اتسع لن يستطيع التفريق بينهما. ثم سكت آرثر. رفع لوسين رأسه بسرعة.

«آرثر؟»

لم يجبه.

«.آرثر، انتهت المزحة. افتح عينيك»

حرّك كتفه برفق، ثم بعنف أكبر.

«!هيا! لا تفعل هذا بي»

تنفس آرثر نفسًا أخيرًا، وخرج صوته خافتًا، بالكاد بلغ أذن صديقه:

«.أتمنى... في حياة أخرى... أن نلتقي يا صديقي»

ارتخت يده. وانطفأت عيناه. ظل لوسين ينظر إليه، ينتظر حركة من صدره، أو ارتعاشة من أصابعه، أو حتى ابتسامة ساخرة تخبره أن الأمر مجرد مزحة أخرى من مزح آرثر السخيفة. لكن الصمت لم يتغير.

«آرثر؟»

لا شيء.

مد يده المرتجفة إلى وجه صديقه، وأغمض عينيه برفق. بقيت أصابعه فوق جفنيه لحظات طويلة، كأنه يخشى إن رفعها أن يضطر إلى الاعتراف بأن الرجل الذي عرفه طوال عمره لن ينظر إليه مجددًا. انحنى حتى لامست جبهته جبهة آرثر.

«.أنا آسف يا صديقي»

خرج صوته ضعيفًا، غريبًا، كأنه صوت رجل آخر.

«.أنا آسف لأنني لم أكن أسرع. لأنني لم أفهم ما يحدث. لأنني لم أستطع حمايتك»

ابتلع ريقه، وارتجف فكه.

«لقد وعدتني أن تبقى... أتذكر؟ قلت إنك ستأتي معي عندما أصبح جنرالًا، وإنك ستشرب قهوتي الرديئة كل صباح، وإنك ستسخر .منني حتى أموت»

انكسرت كلماته.

«فلماذا... لماذا أنت الذي رحلت أولًا؟»

حاول التماسك. كان يعرف أن الصراخ بجانب الموتى لن يعيدهم، وأن البكاء لن يوقف الدم عن التجلط، وأن الجنرال لا يملك رفاهية الانهيار حين لا يزال الخطر قريبًا. لكن لم يكن هناك أحد يراه الآن. لا جنود. لا ملك. لا أميرة. لا رتبة عسكرية تُلزمه بأن يكون صلبًا. كان هناك لوسين فقط، وصديقه الميت. وفجأة، انفجر الألم داخله. صرخ. صرخة شقت سكون الغابة، فارتجفت الطيور بين الأغصان، وتردد صداها بين الأشجار كأن الأرض نفسها تنوح على من ابتلعتهم. ضرب الأرض بقبضتيه، ثم احتضن جسد آرثر، وبكى كما لم يبكِ قط. كانت دموعه تسقط على وجه صديقه، تختلط بالتراب والدم، فيما راحت جروحه تنفتح من جديد تحت ضغط حركته. شعر بالألم في كل جزء من جسده، لكنه لم يحاول إيقاف النزيف. لم يكن ذلك شيئًا يُذكر. ليس مقارنة بما انكسر داخله.

«!آرثر»

تشبث به أكثر.

«!عد إليّ، أرجوك! سأفعل أي شيء! سأعطيك كل شيء! فقط... لا تتركني وحدي»

لم تجبه إلا الريح. وفي مكان بعيد، كانت أجراس القصر تعلن اكتمال زفاف الأميرة. أما في الغابة، فقد جلس جنرال المملكة بين جثث رجاله، يحتضن صديقه الذي لم يستطع إنقاذه، بينما كانت السماء الرمادية تبدأ أخيرًا في إسقاط المطر. لم يعرف لوسين إن كان المطر هو الذي ابتل وجهه، أم أن السماء كانت تبكي معه. لكنه عرف شيئًا واحدًا. في ذلك اليوم، لم يخسر رفيق دربه فحسب. لقد مات الجزء الأخير من الفتى الذي كان يظن أن العالم، مهما قسا، لا يزال يستحق أن يُحَب

الفصل السادس: ابتسامة على حافة الهاوية

الفصل السادس: ابتسامة على حافة الهاوية

لم يعد لوسين يسمع المطر، ولا الريح، ولا حتى أنفاسه المتقطعة. كان كل ما يراه وجه آرثر، وعيناه اللتان أغمضهما بيديه منذ لحظات، وابتسامته الأخيرة التي بقيت عالقة في ذاكرته كطعنة لا تنتهي. ظل جالسًا بين الجثث، وذراعاه ملطختان بالدماء، حتى شعر بشيء يتغير في داخله. لم يكن حزنًا هذه المرة، بل غضبًا. غضبًا أسود وثقيلًا، أخذ يزحف من أعماق صدره حتى غطّى على كل ما تبقى فيه من رحمة. انقبضت أصابعه حول مقبض سيفه، وارتجفت شفتاه، بينما راحت أنفاسه تخرج متقطعة من بين أسنانه.

«...الأمير»

قالها بصوت خافت، ثم رفع رأسه نحو الغابة.

«.أنت فعلت هذا»

نهض بصعوبة، وكاد يسقط حين خانته ساقاه، لكنه تشبث بجذع شجرة حتى استقام. كان الدم يتسرب من جروحه، وثيابه الممزقة تلتصق بجسده. حاول أن يتجاهل الألم، إلا أن كل حركة كانت تذكّره بحالته. وبينما كان يتلفت بحثًا عن حصان صالح، لمح حركة بين الأشجار. كان فارسًا من العدو يراقب ساحة المذبحة من بعيد. التقت عيناهما. تراجع الفارس مذعورًا، واستدار بحصانه محاولًا الفرار.

«!لن تفلت، أيها اللعين»

انتزع لوسين قوسًا من جوار أحد الجنود القتلى، والتقط سهمًا من جعبة ملقاة في الوحل. كادت أصابعه تعجز عن تثبيته، لكن ذاكرة التدريب القديم عادت إليه، وكأن جسده يعرف ما ينبغي فعله حتى حين تكاد قوته تنفد. شد الوتر وأطلق السهم. شق السهم الهواء وأصاب الفارس، فاختل توازنه وسقط عن حصانه، بينما تابع الحصان ركضه قبل أن يختفي بين الأشجار. وصل لوسين إليه بخطوات متعثرة. كان الرجل يحاول الابتعاد عنه، مستعينًا بما بقي له من قوة.

«...انتظر... أرجوك»

لم يجبه لوسين. أمسك بدرع الرجل وجذبه نحوه، ثم انهالت قبضتاه عليه. لم يكن يسأله عن خطط العدو، ولم يكن يبحث عن معلومات. لقد أراد أن يخرج شيئًا من ذلك الألم الذي أخذ يطبق على صدره، ولو للحظات. لكمة، ثم أخرى. ومع كل ضربة، كانت ...صورة آرثر تعود إلى ذهنه، وصوته الأخير يتردد في أذنيه. في حياة أخرى

«!اصمت»

هتف بها لوسين، وكأنه يخاطب صديقه الميت، ثم واصل ضرباته. لم يتوقف إلا حين انقطعت مقاومة الرجل تمامًا. عندها بقي جاثيًا أمامه، يحدق في يديه المرتجفتين، كأنه لم يعد يعرفهما. لم يشعر بالراحة التي تخيل أنه سيجدها. لم يختفِ وجه آرثر، ولم يتراجع الألم. كل ما بقي هو صمت الغابة وثقل ما فعله. نهض بصعوبة، وأخذ حصان الفارس، ثم استند إلى سرجه بكل ما بقي له من قوة وانطلق نحو القصر. لم يكن عائدًا بصفته جنرالًا، بل بصفته رجلًا لم يبقَ له شيء يخسره.

وصل إلى القصر مع حلول المساء، حين كانت الأضواء تتلألأ خلف النوافذ، وتنساب الموسيقى من قاعة الاحتفالات إلى الحدائق. كانت المملكة تحتفل. في الداخل، ارتفعت الكؤوس، وتعالت الضحكات، وتبادلت الوجوه التهاني. أما في الخارج، فقد ترجل لوسين عن حصانه عند مدخل جانبي قديم، يستخدمه العاملون لنقل مخلفات الوحوش التي تُستغل جلودها وعظامها في صناعة المعدات

والمواد السحرية. كان يعرف ذلك المدخل منذ طفولته، كما يعرف الممرات التي لا يلتفت إليها أحد. دخل مترنحًا، ومر بين الصناديق والأقفاص الفارغة وبقايا الوحوش المحفوظة في مستودعات باردة. أثارت رائحة الحديد والمواد الكيميائية القديمة دوارًا حادًا في رأسه، فأسند يده إلى الجدار. وفجأة، لم يعد يرى المستودع. رأى ممرًا مضاءً بشمس الصباح، وطفلًا صغيرًا يركض أمامه، بشعر أشعث وركبتين مغطاتين بالغبار. كان هو؛ لوسين الصغير، يركض ضاحكًا، بينما تتبعه طفلة صغيرة بفستان فاتح، ترفع طرفه كي لا تتعثر. إيلارا. بدت كما كانت في طفولتها، بوجهها البريء وعينيها اللامعتين.

«!أسرع يا لوسين»

ضحك الطفل والتفت إليها.

«!لن تمسكي بي أبدًا»

اختفت الصورة حين ارتطم كتف لوسين بالجدار. عاد المستودع مظلمًا وباردًا، وخاليًا إلا منه. أغمض عينيه وابتلع الألم الذي صعد إلى حلقه.

«...بدأت أرى أشياء غير موجودة»

رفع يده إلى جرحه، ثم نظر إلى الدم العالق بأصابعه. كان يعرف ما يعنيه ذلك. لم تكن جراحه تلتئم، ولم يمنح جسده فرصة لالتقاط أنفاسه منذ الكمين. لقد استنزف نفسه في القتال، ثم واصل السير رغم النزيف والإرهاق. كان يستطيع الوقوف والتحرك، لكن ذلك لم يكن دليلًا على أنه بخير. كان جسده يقترب من حدوده الأخيرة، ولم يعد أمامه وقت طويل إن استمر على هذا الحال. ومع ذلك، تحرك. وجد خرطومًا قرب حوض التنظيف، فاستخدمه لإزالة الطين والدم عن درعه قدر ما استطاع. ثم تسلل إلى مركز تخزين الدروع، حيث أخذ خوذة كاملة تغطي وجهه، واختار عباءة داكنة تخفي ما تمزق من ملابسه. كان القصر بأكمله منشغلًا بالزفاف. لم يكن أحد ينظر إلى الممرات الخلفية، ولم يكن أحد يتوقع عودة الجنرال الذي أُرسل إلى الموت. بعد ذلك، وصل إلى مخزن المتفجرات. وقف أمام البراميل لحظات، يتأملها بعينين غائرتين. كان في وسعه أن يتراجع، أو يطلب النجدة، أو يسلم الأدلة إلى الملك وينتظر العدالة. لكن صورة آرثر وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة عادت إليه، فمد يده وأخذ ما يحتاج إليه من المتفجرات. لم تتحرك يداه بثبات كامل، غير أن عقله، على نحو غريب، صار هادئًا. كان ذلك هدوء رجل تجاوز الخوف، لأنه لم يعد يرى أمامه مستقبلًا يخشى خسارته.

في غرفة الأمير، عمل لوسين بصمت. رتّب البراميل والمواد القابلة للاشتعال في مواضع تخدم فخًا مميتًا، ثم راجع ما أعدّه ليتأكد من أن آثاره لن تقود إلى رجال أبرياء. لم يكن يريد أن يسقط خدم القصر أو حراسه الذين لا ذنب لهم. كان يريد شخصًا واحدًا: الأمير الذي باع جنوده، وترك صديقه يموت. وحين انتهى، جلس إلى الطاولة وأخرج ثلاث أوراق. ظل القلم بين أصابعه وقتًا طويلًا. كانت الرسالة الأولى إلى إيلارا، والثانية إلى الأمير، والثالثة إلى الملك والملكة. بدأ برسالة إيلارا، لكنه لم يستطع الكتابة فورًا. رفع رأسه، فرأى في خياله شرفة القصر، وفنجاني الشاي، ولوحة فارس الزمن التي رسمها في طفولتهما. ابتسم بحزن، ثم بدأ يكتب. طوى الرسالة بعناية، ووضعها داخل درعه قرب صدره. أما رسالة الأمير، فعلّقها على باب غرفته. واحتفظ بالرسالة الأخيرة ليضعها في غرفة الملك. وقبل أن يغادر جناح الأمير، اعترضه الحارسان اللذان كانا يعملان لحساب الأخير. لم يكن الحارسان من أصحاب الخبرة الكبيرة؛ كانا جنديين مبتدئين، ولم يتوقعا أن يواجها رجلًا مثل لوسين. أما هو، فرغم جراحه وإرهاقه، فقد أمضى سنوات في التدريب والقتال، وصار قادرًا على قراءة حركة خصمه قبل أن يقرر كيف يواجهه. لم يمنحهما الوقت الكافي لتنظيم صفوفهما. تفادى هجوم الأول، وأبعد سلاحه عن مساره، ثم حيّده قبل أن يلتفت إلى الثاني. حاول الحارس الآخر المقاومة، لكن فارق الخبرة كان أكبر مما يستطيع تعويضه. انتهى الاشتباك سريعًا. غير أن الانتصار لم يمر بلا ثمن. ما إن ابتعد لوسين عنهما حتى اضطر إلى الاستناد إلى الجدار. ضاق نفسه، وشعر بأن الألم الذي تجاهله طوال الوقت يعود دفعة واحدة. انتظر لحظات حتى استطاع الوقوف، ثم واصل طريقه. لم يكن قد انتصر على جراحه؛ كان يؤجل سقوطه فحسب. وضع رسالة الملك والملكة فوق مكتبه، ثم ابتعد عن الغرفة بخطوات أثقل من ذي قبل، متجهًا نحو قاعة الاحتفالات.

كانت إيلارا تمشي إلى جوار والدها حين لمحته. رجل يرتدي درعًا داكنًا وخوذة تخفي ملامحه، يقف عند طرف القاعة، بعيدًا عن الأضواء والضيوف. لم تعرف كيف عرفته. ربما لأن بعض الأشخاص يصبحون مألوفين إلى حد أن حضورهم يُعرف قبل أن تلتفت إليهم العين. وربما لأنها اعتادت البحث عنه في الأماكن التي يغيب عنها طويلًا. لوسين. لم ترَ وجهه، لكنها شعرت بأن الرجل الواقف هناك ليس غريبًا عنها. توقفت خطواتها للحظة، والتفتت نحوه. كان واقفًا باستقامة غريبة، وكتفاه ساكنتين على نحو أثار قلقها. لم يرفع يده لتحيتها، ولم يقترب. فقط وقف هناك، كأنه جاء ليتأكد من شيء ثم يرحل. التقت عيناهما من خلف فتحة الخوذة. لم تستطع إيلارا معرفة ما الذي كان يمر في ذهنه، لكنها شعرت بتعبه، وبشيء ثقيل يحيط به، كأن الرجل الذي أمامها يحمل على كتفيه حزنًا لا تستطيع الكلمات احتواءه. أرادت أن تذهب إليه. أن تسأله أين كان، ولماذا يبدو كأنه لم ينم منذ أيام، ولماذا شعرت فجأة بالخوف عليه. لكن المراسم كانت قد بدأت، ووالدها يمسك بذراعها، والضيوف ينتظرون. فاكتفت بأن منحته نظرة هادئة، نظرة حاولت أن تضع فيها كل ما عجزت عن قوله. لوسين، الذي لم يعد يملك القوة لرفع سيفه، شعر بتلك النظرة كأنها يد تمتد إليه من خلف جدار طويل. هدأ قلبه قليلًا. لثوانٍ معدودة، عاد إلى الشرفة القديمة، وإلى الفتاة التي كانت تقول له إنه ليس مضطرًا إلى إثبات قوته كل يوم. أغمض عينيه تحت الخوذة. شكرًا، إيلارا. كانت تلك آخر لحظة شعر فيها بالسلام.

انتهت المراسم، وتعالت التهاني، ثم بدأ الضيوف يتفرقون داخل القصر. لمح الأمير الرجل المدرع عند طرف القاعة، فتغير وجهه. اقترب منه بخطوات غاضبة، بينما كان الملك يسير خلفه، وإيلارا وزوجها الجديد على مقربة منهما.

«ماذا تفعل هنا، أيها الحثالة؟»

لم يتحرك لوسين. اقترب الأمير أكثر، وازداد صوته ارتفاعًا.

«ألم تفهم أن هذا ليس مكانك؟ أم أنك عدت لتتوسل إلى أختي بعد أن تزوجت؟»

ساد صمت متوتر حولهم. التفت الملك نحو ابنه، وقد اشتعل الغضب في عينيه.

«ماذا قلت؟»

حاول الأمير التراجع عن كلماته، لكنه كان قد تجاوز الحد. صفعه الملك بقوة، حتى انحرف وجهه إلى الجانب.

«!ماذا تظن نفسك، أيها اللعين؟ ألف رجل مثلك لا يساوون إصبعًا من لوسين»

ثم التفت إلى الرجل المدرع.

«لوسين؟»

لم يجبه. خطا الملك نحوه، وقد بدأ القلق يحل محل غضبه.

«يا بني؟»

لاحظت إيلارا شيئًا داكنًا يتسرب من أسفل الدرع، ثم يسقط على الأرض قطرة تلو أخرى. دم. تجمدت في مكانها.

«...أبي»

لم يسمعها أحد. حدقت في الأرض، ثم رفعت عينيها إلى الرجل الذي وقفت أمامه مشاعر كثيرة لم تجد لها اسمًا واضحًا.

«...لا»

ركضت نحوه.

«!لوسين»

لم يتحرك. وصل الملك أولًا، ومد يديه المرتجفتين إلى الخوذة. نزعها ببطء، وفي اللحظة التي ظهر فيها وجه لوسين، تراجع الملك خطوة كأن أحدهم طعنه في صدره. كان وجهه شاحبًا، وعيناه مغلقتين، وآثار الدم قد جفت على جانب فمه. بدا هادئًا على نحو لا يشبه التعب الذي كان ينهش جسده منذ ساعات. وكانت على شفتيه ابتسامة صغيرة، كأن شيئًا من السلام الذي شعر به قبل قليل قد بقي معه حتى النهاية.

«لوسين...؟»

هز الملك كتفه.

«!لوسين! افتح عينيك»

لم يستجب. اقتربت إيلارا، وقد بدأ الخوف يتسلل إلى صوتها.

«.لوسين... أرجوك»

لم يفتح عينيه. حاول الملك أن يسنده، لكن جسد لوسين فقد ما تبقى له من قوة. كان نزيفه قد استمر طوال الطريق، ولم تمنحه رحلته الطويلة ولا ما فعله داخل القصر فرصة للراحة. لقد ظل يتحرك بإرادة وحدها، متجاهلًا إشارات جسده حتى لم يعد قادرًا على تجاهلها. ترنح بين يدي الملك، ثم انهار. صرخت إيلارا صرخة مزقت القاعة.

«!لوسين»

أمسكت بدرعه، وراحت تهزه بكلتا يديها.

«لا تفعل هذا! أرجوك، انظر إليّ! لقد رأيتني، أليس كذلك؟ كنت هنا! فلماذا لا تتكلم؟»

انهارت على ركبتيها، والتقطت يده بين كفيها. كانت باردة، وقد بدأ لونها يفقد دفئه. شعرت بأن شيئًا في داخلها ينسحب إلى مكان لا تستطيع الوصول إليه. وصل الأطباء والحرس، وارتفعت الأصوات، لكن أحد الأطباء، بعد فحص طويل، خفض رأسه أخيرًا.

«.مولاي... لقد مات. جراحه شديدة، ويبدو أنه استنزف ما بقي من قوته قبل وصوله إلى هنا»

لم يفهم الملك الجملة في البداية. ثم هز رأسه بعنف.

«!لا. استدعوا طبيبًا آخر! أحضروا جميع الأطباء! هذا أمر ملكي»

لكن الموت لا يطيع الأوامر الملكية. احتضن ماركوس لوسين، الملك الذي وجده رضيعًا بين الأنقاض، وبكى كما لم يبكِ ملك أمام رعيته قط.

«.لقد وعدتك... وعدتك أن أحميك»

ارتجف صوته.

«لماذا لم أستطع حمايتك؟»

أما إيلارا، فكانت تحدق في وجه لوسين، عاجزة عن استيعاب أن الرجل الذي عرفته منذ طفولتها، والذي ظنت أن الوقت ما زال يمنحها فرصة للحديث معه، قد رحل دون أن يقول لها كلمة واحدة. لم تستطع أن تحدد ما الذي كان يؤلمها أكثر: غيابه المفاجئ، أم الكلمات التي لم تعرف أنه يحملها، أم ذلك الشعور الغامض بأنها فقدت شيئًا لم تفهم قيمته إلا حين صار بعيدًا عن متناولها. ثم لاحظت الورقة المثبتة داخل درعه. مدت يدًا مرتجفة وانتزعتها. كان اسمها مكتوبًا عليها بخط تعرفه جيدًا. خط لوسين.

هربت إيلارا من القاعة دون أن تسمع نداءات والدها. ركضت عبر الممرات حتى وصلت إلى الشرفة القديمة، المكان الذي كانت تجلس فيه مع لوسين حين كانا طفلين، قبل أن تتعلم كيف تخفي ما يضطرب في داخلها خلف واجباتها، وقبل أن يتعلم هو كيف يخفي ألمه خلف ابتسامة. كان كل شيء كما تركاه تقريبًا: الكرسيان الخشبيان، والطاولة الصغيرة، والنافذة التي تطل على الحدائق. وفوق رف قريب، كانت لوحة فارس الزمن، مرسومة بيد طفل مولع بأسطورته، بدرع أسود ونقوش بيضاء ورمح طويل وعينين خضراوين رسمهما لوسين بعناية لا تشبه عناية طفل عادي. اقتربت منها واحتضنتها إلى صدرها، ثم فتحت الرسالة.

إلى إيلارا،

لا أعرف إن كنت سأجد الشجاعة يومًا لأقول لك ما سأكتبه هنا، لذلك سأترك للكلمات أن تفعل ما عجزت عنه طوال حياتي.

أحببتك. أحببتك حين كنت طفلة تركضين في حدائق القصر، وحين كنت تحملين إليّ الشاي لأنك ظننت أن التدريب يجعلني حزينًا. أحببتك حين كنت تضحكين من حماقات آرثر، وحين كنت تجلسين بجانبي تحت النجوم وتخبرينني أنني لست مضطرًا إلى أن أكون قويًا طوال الوقت. وأحببتك حتى في الأيام التي كنت تمرين فيها بجانبي دون أن تنظري إليّ.

كنت أقول لنفسي إنني سأخبرك غدًا. ثم يأتي الغد، فأخاف أن أخسرك، وأختار الصمت. لم أفهم يومًا كيف يستطيع رجل أن يقف أمام جيش كامل ولا يخاف، ثم يرتجف من فكرة أن يقول لفتاة واحدة: أنتِ تعنين لي كل شيء. ربما لم يكن خوفي من رفضك، بل من أن أسمع منك أنني تأخرت.

واليوم، حين رأيتك في ثوب زفافك، فهمت أن بعض الأبواب لا تُغلق لأننا لا نستطيع الوصول إليها، بل لأننا ننتظر طويلًا حتى يصبح الوصول مستحيلًا.

لا تلومي نفسك. لا أكتب لك لأجعلك تحملين ذنبي، ولا لأطلب منك أن تتذكري رجلًا لم يستطع الاعتراف بحبه في الوقت المناسب. أنتِ لا تدينين لي بشيء، يا إيلارا. لا حبًا، ولا وعدًا، ولا حتى دمعة.

لكن اسمحي لي باعتراف أخير. في كل مرة كنت أعود فيها من الحرب، كنت أبحث عنك قبل أن أبحث عن الملك. وفي كل مرة كنت أخسر فيها شيئًا، كنت أقول لنفسي إنني سأتحمل، ما دمت أستطيع العودة إلى تلك الشرفة ورؤيتك.

كنت أظن أنني أريد أن أصبح أعظم فرسان المملكة كي أكون جديرًا بك. لكنني أدركت متأخرًا أنني كنت أريد فقط أن أكون الرجل الذي تختارينه أنتِ، لا الرجل الذي يختاره الجميع.

إذا كنتِ سعيدة، فأرجوك أن تحافظي على سعادتك. لا تسمحي لذكرى رجل صامت بأن تسرق منك ما تستحقينه من حياة.

أما أنا، فقد تعبت يا إيلارا. تعبت من الحروب، ومن الخوف، ومن محاولة أن أكون الشخص الذي يحتاجه الجميع. وتعبت من الوقوف أمامك وأنا أحمل في صدري كلامًا يكفي لملء ألف ليلة، ثم أعود إلى غرفتي دون أن أقول شيئًا.

اليوم، وأنا أكتب إليك، أتذكر تلك اللوحة التي رسمتها حين كنا صغيرين. كنت أظن أن فارس الزمن لا يخاف شيئًا، ثم رأيت عينيه الخضراوين واكتشفت أن حتى الأبطال يحملون أسرارًا لا يعرفها أحد. ربما كنت أريد أن أكون مثله. وربما كنت أريد أن أكون بطلك أنتِ. لكنني لم أكن فارسًا في حكايتك، أليس كذلك؟ لا بأس. يكفيني أنني كنت، ولو لبعض الوقت، جزءًا من أيامك.

وداعًا يا إيلارا. إن تذكرتني يومًا، فلا تتذكريني وأنا أرحل. تذكريني طفلًا يركض في الحديقة، وفتى يرسم فارسًا أسطوريًا، ورجلًا كان يضحك من سخافة صديقه حتى تنهمر دموعه. تذكريني حيًا.

لوسين.

الرجل الذي أحبك، ولم يطلب منك يومًا أن تحبيه.

انخفضت الرسالة بين يديها، لكنها لم تسقط. ظلت إيلارا ممسكة بها، تحدق في الكلمات كما لو أنها تقرؤها للمرة الأولى. لم تبكِ في البداية. جلست على الكرسي الذي كان لوسين يفضله، وحدقت في الفراغ، كأن عقلها يرفض أن يسمح لقلبها بفهم ما حدث. ثم رفعت يدها إلى فمها.

«...لا»

خرجت الكلمة هامسة.

«...لا، لوسين»

لم تستطع أن تكمل. عادت إلى الرسالة، ومررت عينيها على السطور التي كتب فيها عن صمته وخوفه. حاولت أن تستعيد السنوات الماضية، وأن تجد جوابًا عن سؤال لم تفكر فيه بوضوح من قبل. لماذا كان غيابه يؤلمها أحيانًا أكثر مما توقعت؟ ولماذا كانت تشعر بالارتياح حين يعود من الحرب، حتى قبل أن تراه؟ وهل كان خوفها من الاقتراب منه خوفًا من خسارة الصداقة وحدها، أم أنها كانت تخشى اكتشاف حقيقة لم تكن مستعدة لمواجهتها؟ لم تجد جوابًا.

«...كنت أظن أنك لا تراني إلا أختًا»

خرجت الكلمات من بين شفتيها، مترددة، كأنها تحاول إقناع نفسها بها.

«.أو ربما كنت أخشى أن أعرف أنك لا تراني كذلك»

انحنت، وضغطت الرسالة إلى صدرها. لم تعرف إن كان صمتها قد حماها يومًا أم أنه أبعد عنها شيئًا كان يمكن أن يتغير لو امتلك أحدهما الشجاعة في الوقت المناسب. رفعت رأسها نحو لوحة فارس الزمن، ومسحت دموعها عن عيني الرجل المرسوم، كأنها تستطيع أن تعيد إلى الرسم شيئًا مما فقدته.

«...أنت الأحمق»

ارتجف صوتها.

«...أنت الأحمق لأنك لم تقل شيئًا، وأنا»

توقفت. لم تستطع أن تصف نفسها بالحمقاء، ولم تستطع أن تدافع عن صمتها أيضًا. احتضنت اللوحة والرسالة معًا، وبكت حتى خارت قواها. لم تكن تعرف كيف تتقبل أن الرجل الذي منحته نظرة واحدة في آخر لحظاته قد رحل، تاركًا وراءه كلمات لم تعد قادرة على الإجابة عنها. وفي النهاية، همست:

«...كنت تستحق أكثر من هذا يا لوسين»

ثم سكتت طويلًا، عاجزة عن تحديد ما الذي كانت تتمنى لو أنها منحته إياه، أو ما الذي كانت تتمنى لو أنه طلبه منها.

دوّى الانفجار من الجهة الأخرى للقصر. اهتزت النوافذ، وارتفعت سحابة من الدخان فوق جناح الأمير. تلاشت الموسيقى، وتحولت الاحتفالات إلى صراخ وركض، واندفع الحرس نحو مصدر الصوت. كان الأمير قد دخل غرفته قبل لحظات، ثم دوّى الانفجار، فانهار جزء من الجناح واشتعلت النيران خلف الأبواب المحطمة. حاول رجال الإطفاء السيطرة على الحريق، بينما راح آخرون يفتشون عن ناجين. وبعد وقت طويل، لم يبقَ مجال للشك في أن الأمير قد مات. لم يكن ذلك حادثًا. كانت الغرفة قد تحولت إلى فخ. وفي أثناء التحقيق، اكتشف الحرس جثتي الحارسين اللذين كانا يعملان لحساب الأمير. أما الملك، فعاد إلى مكتبه بخطوات متثاقلة، وكأن كل خطوة تضيف عامًا آخر إلى عمره. وجد رسالة فوق الطاولة. كانت ملطخة بالدماء. عرف الخط قبل أن يقرأ الاسم. جلس ببطء، وفتح الورقة.

إلى الملك ماركوس والملكة إليانا،

شكرًا لكما على كل شيء. شكرًا لأنكما انتشلتماني من بين الأنقاض، ومنحتُماني اسمًا وبيتًا وعائلة. لم أشعر يومًا أنني غريب في قصركما، حتى حين لم أفهم سبب قسوة التدريب، وحتى حين تمنيت أن أعيش حياة الأطفال الآخرين. لقد منحتُماني أكثر مما كان يحق لطفل مثلي أن يحلم به.

لكنني فشلت في حماية من أحببتهم. أعترف بأنني قتلت الأمير، وأنني قتلت الحارسين اللذين كانا يعملان لحسابه. وقد أعددت الفخ في غرفته، وأخذت المتفجرات من المخزن. ستجدون في سجلات المستودع ما يوضح ما استُخدم، كما ستجدون ما يربط الأمير بالمجزرة التي وقعت في الغابة.

لم يكن رجالي خونة. كانوا ضحايا مؤامرة، وأرجو ألا تُحمّلوا عائلاتهم ثمن ما حدث. أما ما فعلته، فسأتحمل مسؤوليته وحدي.

أرجو أن تُدفن جثث جنود الكتيبة معًا، وأن تُسلّم متعلقاتهم إلى عائلاتهم. لا أريد أن يُنسى أحد منهم لمجرد أنه لم يكن جنرالًا أو نبيلًا. لقد ماتوا وهم يثقون بأوامر المملكة، وكان أقل ما يستحقونه أن يعودوا إلى بيوتهم بكرامة.

أما آرثر، فادفنوه إلى جواري إن أمكن. لقد كان أخي الذي لم تلده أمي، وصديقي الذي جعل أثقل الأيام قابلة للاحتمال.

وإن وصلت هذه الرسالة إليكما، فاعلما أنني لم أعد أملك ما يكفي من القوة لأنتظر عدالة البشر. سامحاني.

لوسين.

لم يستطع الملك إكمال الرسالة واقفًا. انحنى فوق المكتب وغطى وجهه بيديه. كان قد فقد ابنه مرتين؛ مرة حين اختار طريق الخيانة، ومرة حين سقط جسد لوسين أمامه، ذلك الطفل الذي وجده بين الأنقاض وظن أنه يستطيع أن يمنحه مستقبلًا أفضل من الماضي الذي نجا منه. والآن، كان عليه أن يدفن الاثنين.

في الأيام التالية، أقيمت جنازة جماعية لجنود الكتيبة. اصطف الجنود الناجون من الوحدات الأخرى على جانبي الطريق، وانحنت الرايات السوداء فوق التوابيت. لم تُطلق المدافع احتفالًا بالنصر، بل أُطلقت طلقات تكريم متباعدة، ارتج صداها فوق السهول. دُفن الرجال بأسمائهم ورتبهم، واحدًا بعد آخر. حضر أهلهم، يحملون صورًا ورسائل وأشياء صغيرة تركوها خلفهم. كانت بعض الأمهات يصرخن بأسماء أبنائهن، بينما وقف آخرون عاجزين عن البكاء، كأن الحزن استهلك كل ما فيهم قبل أن تبدأ الجنازة. أما آرثر، فدُفن إلى جوار لوسين. وُضع سيفه فوق قبره، ومعه رسالة قصيرة بخط لوسين وجدها الملك في متاعه:

إلى أخي الذي سبقني إلى الطريق،

احتفظ بمكاني قربك. أعرف أنك ستشتكي إن تأخرت عليك.

لوسين.

لم يعرف أحد متى كتب لوسين الرسالة. ضمها الملك إلى صدره طويلًا، ثم وضعها فوق القبر. أما لوسين، فحملوه إلى مثواه في نعش مغطى براية المملكة. لم تُرفع الخوذة عن وجهه أمام الجموع، ولم يُرَ سوى ملامحه الهادئة حين ودعه الملك في غرفة الوداع الأخيرة. كانت إيلارا هناك. لم تضع وردة على نعشه، ولم تقل شيئًا. اكتفت بأن وضعت لوحة فارس الزمن بجانبه، ثم انحنت وهمست:

«.لن أنساك»

لكن حين ابتعد الجميع، بقيت واقفة أمام القبر، تحدق في التراب الجديد. كانت تعرف أنها ستعيش، وستضحك يومًا، وربما تتعلم كيف تنام دون أن ترى وجهه في أحلامها. لكنها عرفت أيضًا أن هناك جزءًا من قلبها سيظل جالسًا في تلك الشرفة، ينتظر رجلًا لن يعود. ولم تستطع أن تعرف إن كانت تنتظر عودته لأنه كان جزءًا من حياتها لا يمكن استبداله، أم لأن كلمات رسالته تركت في داخلها سؤالًا لم يعد هناك من يجيب عنه.

في تلك الليلة، بعد أن هدأت أصوات الجنازات وانطفأت المشاعل في القصر، تحركت الريح بين أشجار الحديقة. اهتزت أغصان شجرة قديمة قرب الشرفة، وسقطت منها ورقة جافة على المقعد الذي كان لوسين يجلس عليه. لم يكن هناك أحد ليراها. ولم يكن هناك أحد ليسمع الصوت الخافت الذي بدا كأنه همسة بعيدة، آتية من زمن لا ينتمي إلى هذه المملكة:

«...ليس بعد»

ثم عاد الصمت. وبقيت السماء، كما كانت يوم رحيل لوسين، ملبدة بالسحب الرمادية.

الفصل السابع: عذرًا، من سمح لهذا الرجل بالدخول؟

لم يكن هناك ضوء.

ولا ظلام.

ولا سماء تتسع للنجوم، ولا أرض تحمل الخطوات، ولا حتى نسمة هواء عابرة تذكّر المرء بأنه كان يومًا جزءًا من عالم حي.

كان هناك فراغ فحسب.

فراغ لا نهاية له، يمتد في جميع الاتجاهات، كصفحة بيضاء نسي أحدهم أن يكتب عليها شيئًا، أو ككتاب ضخم انتُزعت منه كل صفحاته، ولم يبقَ منه سوى الغلاف.

وفي ذلك اللاشيء، كانت روح تطفو بلا وجهة.

لوسين.

لم يعد يحمل سيفًا، ولا يرتدي درعًا، ولم تعد جروحه تؤلمه. لم يكن يشعر بالبرد أو الحرارة، ولم يعد بحاجة إلى التنفس. ومع ذلك، ظل يشعر بشيء أثقل من كل الجروح التي أصابته في حياته.

الندم.

كان يطفو ببطء، ويداه تتدليان إلى جانبيه، بينما تتناثر حوله ذكريات حياته كصور منعكسة على سطح ماء مضطرب.

رأى الطفل الذي وجده الملك ماركوس بين الأنقاض. رأى نفسه يركض في حدائق القصر، ثم رأى الفتى الذي كان يحمل سيفًا خشبيًا أكبر من ذراعه، ويصرخ معلنًا أنه سيصبح أعظم فرسان المملكة.

ورأى آرثر.

ضحكته المزعجة، تعليقاته الغبية، ابتسامته التي كانت تظهر دائمًا في أسوأ الأوقات الممكنة، حتى حين كان لوسين يوشك على خنقه.

ثم رأى وجهه الأخير.

أتمنى... في حياة أخرى... أن نلتقي يا صديقي.

أغمض لوسين عينيه.

«.حياة جيدة نوعًا ما، على ما أظن»

تردد صوته في الفراغ، لكنه لم يجد أذنًا تسمعه.

«.لديّ عائلة تبنتني، وحققت ما أردته، وأصبحت جنرالًا... وحتى إنني كدت أتزوج المرأة التي أحببتها»

توقف قليلًا.

«.حسنًا، لم أقترب من الزواج أصلًا، لكن التفاصيل الصغيرة لا تهم»

حاول الضحك، فلم يخرج منه سوى زفير خافت.

«.ومع ذلك... أشعر بأن كل شيء ضاع في مهب الريح»

كان قد عاش ليصبح فارسًا، فصار سلاحًا في أيدي الملوك. عاش ليحمي من أحب، فانتهى به الأمر عاجزًا عن إنقاذ أقرب أصدقائه. وانتظر طويلًا ليعترف بمشاعره، حتى أصبحت كلماته الأخيرة رسالة إلى امرأة لن يستطيع احتضانها أبدًا.

«...لو مُنحت فرصة ثانية»

رفع رأسه نحو الفراغ الذي لا يملك رأسًا ولا قاعًا.

لو استطعت أن أعيش مرة أخرى، لفعلت أشياء كثيرة بطريقة مختلفة. كنت سأقول ما أشعر به بدلًا من الاختباء خلف صمتي. كنت» «.سأقضي وقتًا أطول مع آرثر... وربما كنت سأضربه أقل

صمت لحظة.

«.لا، كذبة. كنت سأضربه بالمقدار نفسه»

للمرة الأولى، ظهرت على وجهه ابتسامة حقيقية، لكنها اختفت سريعًا.

«.أريد فقط فرصة أخرى»

...وفجأة

اهتز الفراغ.

لم يكن اهتزازًا يمكن الشعور به بالجسد، بل اضطرابًا أصاب الوجود نفسه، كأن يدًا عملاقة أمسكت بأطراف العالم وراحت ترجّه لتوقظ شيئًا نائمًا في أعماقه.

انشق السكون عن ضوء أزرق.

لم يكن الضوء ناعمًا أو مريحًا، بل نارًا زرقاء متوهجة، تلتف حول هيئة طويلة القامة ظهرت وسط الفراغ. اشتعلت ألسنة اللهب على كتفيها وذراعيها، وانسابت فوق جسدها دون أن تحرق شيئًا، بينما كانت ملامحها تتشكل وتختفي داخل وهج متغير.

ومع ذلك، كان أكثر ما أثار الحيرة في مظهرها هو ملابسها.

بذلة أعمال سوداء أنيقة، وربطة عنق مرتبة، وحذاء لامع يصلح لاجتماع مهم في شركة كبرى، لا للظهور أمام روح ميتة في مكان لا وجود فيه للشركات أصلًا.

وقف الكيان أمام لوسين، وعدّل أكمام سترته ببرود، ثم قال:

أهلًا أيها الفاني الشجاع. يجب أن أعترف بأن حياتك، مقارنة بحياة نظرائك في خطوط الزمن الأخرى، كانت مثيرة للاهتمام.» «.بصراحة، لديك موهبة نادرة في تحويل أبسط المواقف إلى كوارث كونية

حدق لوسين فيه.

ثم ضيّق عينيه.

«انتظر... هل أنت روح الزمن؟»

توقف الكيان عن تعديل ربطة عنقه.

ساد الصمت.

حتى النيران الزرقاء حوله بدت وكأنها توقفت عن الاشتعال للحظة.

«عفوًا؟...»
رفع لوسين حاجبه.

«.روح الزمن. الكيان الذي يتحكم في الخطوط الزمنية، ويراقب الأحداث التي تتجاوز حدود العالم العادي»

ظل الكيان ينظر إليه طويلًا، ثم مال برأسه قليلًا.

«من أخبرك بهذا؟»

«.لا أحد»

«إذًا كيف عرفت؟»

«.فارس الزمن»

للمرة الأولى، انطفأت ابتسامة الكيان تمامًا.

تابع لوسين، وكأنه يشرح مسألة بسيطة في قاعة الدرس:

شككت في وجودك منذ ظهور فارس الزمن في الأكاديمية. كانت هناك أمور لا تتفق مع التاريخ، خصوصًا أن كل الشهادات تصف» أسلوبه وحركاته وسحره بالطريقة نفسها، رغم الفارق الهائل بين الأزمنة. ثم ربطت ذلك بحادثة مملكة الظلال، وبدأت أشك في أن «.هناك شيئًا يتجاوز مجرد الخلود

صمت قليلًا، ثم أضاف:

«.وبصراحة، لم أتوقع أن يكون الكيان المسؤول عن كل ذلك مرتديًا بذلة أعمال»

حدق الكيان في ملابسه، ثم عاد ينظر إلى لوسين.

«...أولًا، هذه بذلة ممتازة. ثانيًا، لا علاقة للأناقة بالخلود. وثالثًا»
رفع إصبعه.

«.لقد أبهرتني»

تراجعت النيران الزرقاء قليلًا، ثم عادت للاشتعال.

لم أتوقع من أي فانٍ أن يكشف هويتي بهذه السرعة. كنت أظن أنني سأضطر إلى إلقاء خطاب غامض مدته ثلاث ساعات، يتخلله» «.برق وموسيقى ملحمية، وربما ظهور طائر أسطوري في الخلفية

نظر لوسين إلى الفراغ خلفه.

«أين الطائر؟»

«.لا تختبر صبري»

«.كنت أسأل فقط»

تنهد الكيان، ثم شبك يديه خلف ظهره.

«على أي حال، كنت أنوي إعادتك إلى الماضي، ومنحك فرصة أخرى في خط زمني مختلف. يبدو أن حياتك لم تنتهِ بالطريقة التي كان ينبغي لها أن تنتهي، وأنا أرى أنك تستحق أن تعيش تجربة أخرى.»

اتسعت عينا لوسين.

«أتعني أنني سأعود إلى الحياة؟»

«نعم.»

«بجسدي؟»

«ربما.»

«وبذكرياتي؟»

«هذا يعتمد.»

«وهل سأتمكن من—»

«يا بني، دعني أنهي جملة واحدة في حياتي! حتى الموتى أصبحوا يقاطعونني الآن»

أغلق لوسين فمه فورًا.

رفع الكيان ذقنه بشيء من الاعتزاز، ثم قال:

«ستحصل على فرصة جديدة، لكن ليس في الخط الزمني نفسه. لا يمكنني أن أعدك بأن كل شيء سيكون كما تريد. الحياة الثانية ليست نسخة محسنة من الأولى، ولا تأتي مع دليل استخدام أو ضمان لمدة عشر سنوات.»

تردد لوسين.

كان يريد أن يسأل عن آرثر، وعن إيلارا، وعن الملك والملكة، وعن مصير المملكة بعد رحيله. أراد أن يعرف إن كانت ذكرياته ستبقى، وإن كان يستطيع إصلاح شيء مما كسره الزمن.

لكنه أدرك أن الكيان أمامه ليس شخصًا يمكن التفاوض معه بسهولة.

لذلك اختار سؤالًا واحدًا.

«سيدي، أيها الكيان الزمني المبجل... هل فارس الزمن هو الشخص نفسه في كل تلك الأزمنة؟»

التفت الكيان إليه ببطء.

هذه المرة، لم يبدُ مندهشًا.

بل بدا مستمتعًا.

«بما أنك أظهرت قدرًا ملحوظًا من الذكاء، وبما أنني معجب بك، فسأجيبك.»

اقترب منه خطوة، واشتعلت النيران الزرقاء حول كتفيه.

«نعم. فارس الزمن شخص واحد.»

توقف لوسين عن الحركة.

أكمل الكيان:

«...وهو»

ثم رفع إصبعه، وطرق به الهواء.

طَق!

اختفى لوسين.

لم يترك وراءه سوى دوامة صغيرة من الضوء، تلاشت في أقل من ثانية.

وقف الكيان وحده في الفراغ، ونظر إلى المكان الذي كان لوسين يطفو فيه.

«.يا له من فتى مثير للاهتمام»

ثم التفت إلى شيء لم يكن موجودًا قبل لحظات.

شيء يقع خارج الفراغ، وخارج الزمن، وخارج حدود الحكاية نفسها.

...شيء اسمه

الراوي.

الراوي: وهكذا، بدأت الخطة الكبرى لكيان يتجاوز حدود الزمان والمكان، كيان يحمل أسرارًا لا يمكن للعقل البشري إدراكها، ...ويخفي بين طيات وجوده مخططًا قد يغير مصير جميع الخطوط الزمنية

روح الزمن: أرحم عمي!

الراوي: عفوًا؟

روح الزمن: أتريد إفساد المتعة على الجميع؟ الرجل اختفى للتو، وأنت بدأت تكشف الأسرار! هل تعلم كم استغرق مني إقناع المؤلف بألّا يجعلني أظهر بملابس النوم؟

الراوي: أنت تعرف أنك ستقع في مشكلات إن علم بك المؤلف.

توقف الكيان لحظة.

ثم نظر إلى جهة غير محددة، ووضع يده على ذقنه متظاهرًا بالتفكير.

روح الزمن: أرحمني. لن يعرف إن توقفت عن الكلام، أليس كذلك؟

الراوي: أنا الراوي. وظيفتي أن أصف الأحداث.

روح الزمن: ووظيفتي أن أجعل حياتك بائسة إن أزعجتني.

الراوي: هذه إساءة واضحة لاستقلالية السرد.

روح الزمن: وهذه جملة واضحة ستجعل القراء ينامون. نحن متعادلان.

تنهد الراوي تنهدًا طويلًا، ذلك النوع من التنهدات الذي يصدر عن موظف اكتشف للتو أن مديره سيبقى في منصبه إلى الأبد.

أما روح الزمن، فقد استدار نحو الفراغ، ورفع ذراعه بتحية مبالغ فيها.

روح الزمن: والآن، أهلًا بكم أيها القراء الأعزاء! نعم، أنتم. أصحاب العيون التي قضت وقتًا طويلًا في قراءة هذه السطور بدلًا من النوم أو الدراسة أو القيام بأي نشاط مفيد للحياة البشرية.

اقترب منكم خطوة، أو هكذا بدا، لأن الاقتراب من القارئ مسألة معقدة حين يكون القارئ خارج العالم الذي تتحرك فيه الشخصيات.

روح الزمن: أعترف بأنني كنت أنتظر هذه اللحظة منذ زمن طويل. فرصة التحدث إليكم مباشرة، دون أن يتدخل هذا الرجل الذي يسمّي نفسه راويًا.

الراوي: لأنني الراوي فعلًا.

روح الزمن: لا تقاطعني. أنت تفسد هيبتي.

الراوي: أي هيبة؟ أنت لهب أزرق يرتدي بدلة موظف مبيعات.

نظر الكيان إلى ملابسه، ثم أعاد ترتيب ربطة عنقه.

روح الزمن: بدلة أعمال راقية، أيها الجاهل. هناك فرق بين الأناقة والجهل، ويبدو أنك قررت أن تجمع الاثنين في شخصية واحدة.

ثم عاد إلى مخاطبة القراء.

روح الزمن: على أي حال، أتمنى أن تكون هيئتي قد أعجبتكم. آه، نسيت أنني ما زلت مجرد حروف وكلمات على صفحة! يا لها من إهانة وجودية». كيان يتحكم في خطوط الزمن كلها، ولا يستطيع حتى أن يرفع حاجبه دون أن يكتب المؤلف: «رفع حاجبه.

رفع حاجبه.

الراوي: فعلت ذلك للتو.

روح الزمن: أعرف! وهذا ما أقصده!

اقترب قليلًا، وخفض صوته كما لو كان يشارككم سرًا بالغ الخطورة.

روح الزمن: إن كان بينكم رسام موهوب، فأنا أرحب برؤية تصوركم لهيئتي. نار زرقاء، قامة طويلة، بذلة أعمال، حضور مهيب... أريد عملًا فنيًا يليق بكيان مثلي.

توقف لحظة، ثم أضاف بجدية مصطنعة:

روح الزمن: وإن لم تعجبني الرسمة، فقد أمحو الخط الزمني الذي رُسمت فيه.

الراوي: هذا تهديد للقراء!

روح الزمن: هذا نقد فني صارم.

الراوي: لا يمكنك محو الخطوط الزمنية لمجرد أن رسمة لم تعجبك!

روح الزمن: أيمكنك إثبات ذلك؟

ساد صمت قصير.

الراوي: ...سأراجع العقد.

ضحك الكيان، ثم أشار بإصبعه نحو القارئ.

روح الزمن: وأنت، نعم أنت، الذي يقرأ الآن ويبتسم رغمًا عنه، لا تتظاهر بأنك لم تسمعني. دعمك للمؤلف مهم، سواء بمتابعة الرواية أو ترك تعليق أو مشاركة رأيك. صدقني، كتابة هذه الفوضى ليست سهلة، خصوصًا حين أكون أنا أحد شخصياتها.

الراوي: أنت شخصية مزعجة.

روح الزمن: وأنا من القلة التي تحطم الجدار الرابع، لذا احترم إنجازاتي.

الراوي: الجدار الرابع ليس إنجازًا. إنه مجرد اصطلاح سردي.

روح الزمن: وهذا بالضبط ما يقوله شخص لم يستطع يومًا الخروج من الصفحة.

ثم التفت الكيان فجأة، كأنه تذكر شيئًا بالغ الأهمية.

روح الزمن: بالمناسبة، أنتِ أيتها القارئة ذات النظارات، ما بك؟ لماذا تنظرين إليّ بهذه الصدمة؟ هل توقعتِ أن أكون أقصر؟ أم أنك منزعجة لأنني لم أظهر على هيئة أمير وسيم بشعر فضي؟

توقف، ثم هز رأسه.

روح الزمن: لا تجيبي. لا أريد الدخول في نقاشات لا نهائية عن معايير الجمال.

الراوي: أنت تدرك أنك تتحدث إلى قراء قد لا يرتدون نظارات أصلًا؟

روح الزمن: التفاصيل، يا صديقي. التفاصيل هي التي تصنع الأدب.

الراوي: أنت لا تعرف حتى ما إذا كانت هذه الجملة صحيحة.

روح الزمن: وأنا لا أعرف لماذا ما زلت أسمح لك بالتحدث.

أدار الكيان ظهره، وبدأ يرسم دائرة من النار الزرقاء في الفراغ. ظهرت داخلها صور متقطعة لعوالم أخرى، ومدن غريبة، ووجوه لم يكن من المفترض أن تظهر في هذه الحكاية.

توقف أمام إحدى الصور.

روح الزمن: هممم... هذا غريب.

الراوي: ماذا؟

روح الزمن: يبدو أن هناك خطأ في أحد الخطوط الزمنية. أظن أنني سأزور عالمي الخاص بعالم الأصدقاء غير الشرعيين. يبدو أن أحدهم عبث بشيء لم يكن ينبغي له لمسه.

الراوي: هل تقصد أنك ستغادر الآن؟

روح الزمن: وهل تريدني أن أبقى؟ أرى أنك بدأت تستمتع بوجودي.

الراوي: أفضل أن أُروى أحداث موت بطل مأساوي على أن أتحمل خمس دقائق أخرى من حديثك.

روح الزمن: ذوقك الأدبي يحتاج إلى إعادة تأهيل.

ثم رفع إصبعه فجأة، كأنه تذكر أمرًا آخر.

روح الزمن: آه، قبل أن أذهب! نعم، أنا الكيان نفسه الذي ظهر لداركن في رواية حياتي بين العوالم والأبعاد. لا داعي للتصفيق، أعرف أن ظهوري هنا حدث تاريخي.

الراوي: أنت تدرك أن الروايتين مختلفتان؟

روح الزمن: بالطبع. أنا مختلف عن قوانينكم الصغيرة. أتنقل حيث أشاء، وأظهر متى أشاء، وأتحدث إلى من أشاء.

الراوي: وتفسد الحبكة متى شئت.

روح الزمن: هذه موهبة إضافية.

استدار الكيان نحو الراوي، ووضع يده على كتفه بحركة ودية مبالغ فيها.

روح الزمن: والآن، يا صديقي، أرجوك أن تصف خروجي بطريقة تليق بعظمتي. أريد مشهدًا أسطوريًا، ألسنة نار، موسيقى ملحمية، وربما بعض الكلمات اللاتينية الغامضة.

الراوي: سأصف خروجك ببساطة.

روح الزمن: ماذا؟!

الراوي: ستصفق، وتختفي.
حدق الكيان فيه بذهول مصطنع، ثم ابتسم ابتسامة عريضة.

روح الزمن: تعرف؟ لو لم تكن مجرد صوت بلا جسد، لوجدت لك وظيفة ممتازة في قسم التعذيب الأبدي.

الراوي: وكيف سأصف حركاتك إن أصبحت أنا عرضًا مسرحيًا؟

توقف الكيان، ونظر إليه ببطء.

روح الزمن: أنت تعرف الإجابة.

الراوي: لا، لا أعرف.

روح الزمن: حينها ستصبح بلا فائدة، صحيح؟

الراوي: ...

روح الزمن: هاه! أخيرًا، صمت الراوي!

رفع الكيان يديه، واشتعلت النيران الزرقاء حوله حتى غمر ضوؤها الفراغ كله.

روح الزمن: إلى اللقاء أيها القراء! لا تنسوا دعم المؤلف، ولا تنسوا أنني أراقبكم من خارج الزمن!

الراوي: لا تراقب أحدًا، أنت شخصية خيالية!

روح الزمن: قل هذا مرة أخرى، وسأجعلك تروي رواية كاملة عن حياة ملعقة.

ثم صفق بيديه.

صفقة واحدة.

انطفأ الضوء.

اختفت النيران.

اختفى الكيان.

واختفى الفراغ نفسه للحظة، كما لو أن أحدهم أطفأ شاشة العالم.

سواد تام.

لا أصوات.

لا صور.

لا راوي.

ولا حتى كيان أزرق مزعج يرتدي بذلة أعمال.

ثم ظهرت عبارة صغيرة في وسط السواد:

...يتبع

وبجانبها، بخط أصغر بكثير:

«.أخبرتكم أنني سأعود»

الفصل الثامن: دفء لم أعرفه من قبل

لم أكن أعلم أن الموت يمكن أن يكون بداية لسقوط جديد.

كنت أهبط.

أهبط من مكان لا أعرف أين يقع، عبر ظلام شاسع لا نهاية له، وكأن أحدهم قرر أن يقذف روحي من أعلى السماء ثم يتركها لتكتشف وحدها متى ستصطدم بالأرض.

لم يكن حولي سوى الفراغ، ولم تكن لديّ يد أتشبث بها، ولا أرض أستعد لاستقبالها، ولا حتى جسد أستطيع أن أصرخ من خلاله احتجاجًا على هذا العبث.

ومع ذلك، كان لديّ متسع من الوقت لأفكر في أمر واحد.

تلك الرسالة.

آه، تلك الرسالة العظيمة التي تركتها للأمير أدريان قبل أن أفجّر غرفته وأرسل ذلك الوغد إلى الجحيم الذي يستحقه.

أتعلمون؟ لقد فكرت طويلًا فيما ينبغي أن أكتبه له. رسالة مليئة بالحقد؟ اعتراف أخير؟ كلمات تشرح له لماذا انتهت حياته على يد الرجل الذي حاول قتله؟

لا.

لم أكن لأمنحه شرف الحصول على خطاب أخير من رجل مثلي.

لذلك، رسمت له رسمًا كرتونيًا.

نعم، رسمًا كرتونيًا سخيفًا لي أنا وآرثر، نقف فيه جنبًا إلى جنب ونرفع إصبعنا الأوسط في وجهه، بابتسامتين عريضتين لا تليقان إلا بأكثر شخصين وقاحة في المملكة.

وأسفل الرسم كتبت بخط واضح:

«.فلتمت يا وبش»

أجل.

كانت تلك تحفة فنية تستحق أن تُعلّق في أعظم متاحف المملكة، لو أن صاحبها لم يمت قبل أن يراها بنفسه.

آه، آرثر... ليتك كنت هناك لترى وجهه.

ربما كنت ستضحك حتى تسقط أرضًا، ثم تنهض لتخبرني بأنني أخيرًا كتبت شيئًا يليق بمستواي الفكري المتواضع.

أو ربما كنت ستقول إن الرسم سيئ، وإنني أبدو فيه أقبح مما أنا عليه في الواقع.

اللعنة عليك أيضًا يا آرثر.

حتى بعد موتك، ما زلت أجد طريقة لأتجادل معك.

ابتسمت، أو ظننت أنني ابتسمت. لم أعد أملك وجهًا لأتأكد من ذلك.

واصلت السقوط، وبدأت الأفكار تتلاشى من حولي، كأن الظلام يبتلعها واحدة تلو الأخرى. حاولت أن أستحضر صورة وجوه الذين تركتهم خلفي؛ الملك ماركوس، الملكة إليانا، إيلارا...

إيلارا.

توقفت ابتسامتي المتخيلة عند اسمها.

هل كانت بخير؟

هل استطاعت أن تواصل حياتها بعد رحيلي؟

هل وضعت رسالتي قرب الرسم الذي رسمته لفارس الزمن؟ أم أنها ما زالت تجلس في شرفتها، تحتسي الشاي وحدها، وتنتظر شخصًا لن يعود؟

لم أجد إجابة.

وللمرة الأولى منذ وقت طويل، تمنيت لو أنني أستطيع العودة.

ليس لأنتقم، ولا لأقتل أدريان مرة أخرى، ولا لأغيّر ما حدث في الغابة.

كنت أريد فقط أن أراها مرة أخيرة.

أن أخبرها بأنني أحببتها.

أن أقول لها إنني لم أندم على كل ما عشته معها، حتى تلك اللحظات التي جعلتني أشعر بأن قلبي يُسحق ببطء.

لكن الأوان كان قد فات.

أو هكذا ظننت.

فجأة، شعرت بشيء يتغير.
لم يكن صوتًا، ولا ضوءًا، ولا يدًا امتدت إليّ من أعماق الظلام.

كان إحساسًا غريبًا، كأن العالم نفسه انطوى على ذاته، ثم أعاد فتح صفحاته على شيء لم أعرفه من قبل.

حاولت أن أرفع رأسي.

لم أجد رأسًا أرفعه.

حاولت أن أفتح عينيّ.

ولم أرَ سوى السواد.

ثم...

صرخة.

لم أفهم في البداية من أين جاءت.

كانت حادة، مرتجفة، مليئة باليأس، وكأن صاحبها يطلب النجدة من عالم لا يفهم لغته.

وبعد لحظة أدركت الحقيقة التي جعلتني أتمنى لو أنني بقيت ميتًا.

كانت صرختي أنا.

لم أستطع التحكم في جسدي.

كانت أطرافي تتحرك بعشوائية، وذراعاي الصغيرتان تتلوّحان في الهواء بلا هدف، بينما تنقبض أصابعي وتنبسط كأنها تحاول الإمساك بشيء لا تراه.

شعرت بحرقة في حلقي، وبألم غريب يمتد من صدري إلى فمي. كنت أصرخ، أو أبكي، أو أفعل الأمرين معًا، ولم أستطع التوقف مهما حاولت.

ما الذي يحدث لي؟

أين أنا؟

لماذا لا أستطيع تحريك جسدي كما أريد؟

حاولت أن أتكلم، أن أقول أي شيء، أن ألعن روح الزمن وأطالب ذلك الوغد بتفسير ما فعله بي.

لكن ما خرج من فمي كان مجرد بكاء متقطع، تتخلله شهقات صغيرة لا تشبهني في شيء.

أعدت المحاولة.

«!آآ... آآآه»

يا إلهي.

هل هذا صوتي حقًا؟

أين ذهبت نبرة صوتي؟ أين ذهبت قوتي؟ أين ذهبت يداي اللتان حملتا السيف وقاتلتا حتى آخر لحظة من حياتي؟

لم أعد أملك حتى القدرة على التحكم في أصابعي.

بدأت أستوعب الحقيقة ببطء، حقيقة كانت سخيفة إلى درجة أنني لم أستطع تقبّلها.

لقد عدت إلى الحياة.

لكنني لم أعد إلى جسدي.

كنت رضيعًا.

رضيعًا عاجزًا لا يستطيع حتى أن يوقف بكاءه بنفسه.

لو كان بإمكاني البكاء من الإحباط وحده، لفعلت.

...ولحظة

كنت أبكي بالفعل.

يا للسخرية.

بعد كل ما عشته، وبعد كل الدماء التي رأيتها، وبعد أن متّ وأنا أظن أنني دفنت آخر ما تبقى لي من الضعف، ها أنا ذا أبدأ حياتي الجديدة بالصراخ كأن العالم ارتكب جريمة في حقي.

حسنًا، العالم ارتكب جريمة فعلًا.

وكان اسم المجرم روح الزمن.

أقسم أنني إن رأيت وجهه مرة أخرى، فسأجد طريقة لأجعله يندم على اليوم الذي قرر فيه العبث بمصيري.

لكن قبل أن أتمكن من مواصلة شتائمي الداخلية، اخترق الضجيج من حولي صوت آخر.

صوت ناعم.

هادئ.

مرهق، لكنه يحمل في نبرته حنانًا جعلني أتوقف للحظة، رغم أن جسدي الصغير واصل الارتجاف.

«.اهدأ يا صغيري... لا بأس، أنا هنا»

لم أفهم الكلمات كلها في البداية، لكنني فهمت نبرة الصوت.

كانت قريبة.

قريبة جدًا.

ثم شعرت بيدين ترفعانني بحذر.

كان الارتفاع بسيطًا، ومع ذلك بدا لي وكأن العالم كله يتحرك من حولي. انقلبت الأصوات، وتغير اتجاه الضوء، ولامس جسدي الصغير دفء لم أعرف مصدره بعد.

حاولت فتح عينيّ.

كان الضوء أبيض وقويًا، فارتجفت جفوني وانغلقت من تلقاء نفسها. التقطت أذناي أصواتًا متداخلة؛ خطوات سريعة، همسات متبادلة، أصوات أجهزة تصدر نغمات منتظمة، وصوت امرأة تحاول تهدئتي بينما كان شخص آخر يتحدث في الخلفية.

لم تكن هذه أصوات قصر ماركوس.

لم تكن هناك سيوف تتصادم، ولا حوافر خيول، ولا صرير عربات خشبية.

كان المكان مختلفًا تمامًا.

حتى الهواء بدا غريبًا؛ باردًا ونظيفًا، يحمل رائحة لم أعرف لها اسمًا، مزيجًا من النظافة والأدوية وشيء معدني خفيف.

لم أكن بحاجة إلى كثير من الوقت لأدرك أنني في عالم مختلف عن عالمي القديم.

عالم لم أعرف عنه شيئًا.

عالم لم أرَ فيه حصانًا واحدًا، ولم ألمح فيه درعًا أو سيفًا، بل أضواء ساطعة وأجهزة غريبة وأشخاصًا يرتدون ملابس بيضاء ويتحركون حولي بسرعة مدروسة.

مستشفى.

لم أعرف كيف عرفت ذلك بهذه السرعة، لكن الكلمة ظهرت في ذهني واضحة، كأن ذكرى بعيدة قد انفتحت فجأة.

مستشفى عصري.

إذن، لم أعد إلى الماضي الذي جئت منه.

لقد انتقلت إلى زمن آخر، إلى حضارة بلغت من التطور ما جعلني أشعر بأنني غريب حتى قبل أن أرى العالم بعينيّ.

لكن كل تلك الأفكار تلاشت عندما سمعت المرأة التي تحملني تتحدث مجددًا.

«.أرجوكم، هل يمكنني حمله قليلًا؟ إنه يبكي منذ لحظات... أريد فقط أن أطمئن عليه»

كان في صوتها قلق صادق، لا ذلك القلق المهذب الذي اعتدت سماعه من الخدم حين كانوا يخشون غضب الملك، ولا ذلك الاهتمام الذي يُقدَّم لأن الواجب يفرضه.

لقد كانت قلقة عليّ حقًا.
لماذا؟

أنا لا أعرفها.

وهي لا تعرفني.

ومع ذلك، كانت تتحدث عني كما لو أن سلامتي أهم شيء في العالم بالنسبة إليها.

شعرت بذراعين تقتربان مني مرة أخرى، ثم انتقل جسدي الصغير من يد إلى أخرى، حتى وجدت نفسي مستلقيًا بين ذراعيها.

وعندها رأيتها.

كانت أمي الجديدة.

لا أعرف لماذا خطرت لي هذه العبارة بتلك السهولة، ولا لماذا شعرت بشيء غريب ينقبض في صدري عندما نظرت إليها.

ربما لأنني لم أكن أملك اسمًا آخر أطلقه عليها.

أو ربما لأن روحي، رغم كل ما حملته من ذكريات، كانت تبحث عن شيء لم تعرف يومًا كيف تطلبه.

كانت بشرتها بيضاء ناعمة، ينساب فوقها الضوء الخافت فيجعل ملامحها تبدو هادئة كأنها لوحة رُسمت في صباح ربيعي. انسدل شعرها البني الطويل حول كتفيها، وقد تناثرت بعض خصلاته على جانبي وجهها بعدما بدا عليها الإرهاق. لم تكن زينتها أو ملابسها هي ما لفت انتباهي، بل ذلك التعب الرقيق الذي استقر تحت عينيها، وتلك الابتسامة المرتجفة التي حاولت رسمها رغم القلق.

...أما عيناها

كانتا بلون عسلي مائل إلى الأصفر الخفيف، يمتزج فيه دفء البني بلمعة ذهبية هادئة، كأشعة الشمس حين تتسلل عبر نافذة في صباح بارد.

لم تكونا عينين تشبهان عيني إيلارا.

ولم تكونا عيني أي شخص عرفته من قبل.

ومع ذلك، عندما نظرت إليّ، شعرت للحظة بأنني أمام شيء افتقدته طوال حياتي، دون أن أمتلك الشجاعة للاعتراف بأنني كنت أحتاج إليه.

ابتسمت لي.

ابتسامة صغيرة، متعبة، لكنها صادقة.

«.ها أنت ذا... أخيرًا»

قالتها وكأنها كانت تنتظر هذه اللحظة منذ زمن طويل، مع أنني لم أكن سوى رضيع وصل إلى الدنيا قبل قليل.

مررت إصبعها برفق على خدي، ثم عدّلت الغطاء حول جسدي الصغير، محاولة أن تحميني من برودة الهواء.

«.أعرف، أعرف... لا بد أنك خائف»

خائف؟

أنا؟

لقد واجهت الموت دون أن أتراجع. وقفت أمام رجال أرادوا تمزيقي، وخضت معارك كنت أعرف أن فرص النجاة منها ضئيلة، وشاهدت أعز أصدقائي يموت بين ذراعيّ دون أن أستطيع إنقاذه.

لم أكن خائفًا.

على الأقل، هذا ما أردت تصديقه.

لكن عندما لامست يدها وجهي، وعندما قربتني من صدرها لتضمني إلى دفئها، شعرت بشيء لم أكن مستعدًا له.

كان حضنها دافئًا.

دافئًا بطريقة لم أعرفها من قبل.

لم يكن مجرد دفء جسدي، بل إحساس بالأمان، كأن العالم الذي صرخت في وجهه قبل لحظات قد توقف فجأة عن مطاردتي.

وضعت رأسي الصغير قرب صدرها، وراحت تهدهدني بحركات بطيئة. كان صوت أنفاسها يصل إليّ بوضوح، منتظمًا وهادئًا، بينما راحت يدها تربت على ظهري بخفة.

«.ششش... لا بأس يا حبيبي. ماما هنا»

ماما.

تلك الكلمة.

كلمتان بسيطتان، سمعت مثلهما من قبل في حكايات الأطفال، وربما قرأتهما في كتب لم أعد أذكرها، لكنهما الآن بدتا مختلفتين تمامًا.

لم أكن أعرف هذه المرأة.

لم أكن أعرف اسمها، ولا حياتها، ولا أي شيء عن العالم الذي وُلدت فيه.

ومع ذلك، كانت تضمّني وكأنها تعرفني منذ الأزل.

كانت تحاول تهدئتي، تمسح دموعي الصغيرة بإبهامها، وتهمس لي بكلمات لم أستطع تمييزها كلها.

«.أنا معك... لن يحدث لك شيء. خذ وقتك يا صغيري»

يا صغيري.

كم مرة تمنيت، في حياتي السابقة، أن أسمع كلمات تشبه هذه دون أن أشعر بأن وراءها واجبًا أو شفقة أو انتظارًا لمقابل؟ لقد عشت في قصر ملكي، ونشأت بين أشخاص كان من المفترض أن يكونوا عائلتي. حصلت على الطعام والملابس والتعليم والتدريب، وحظيت بمكانة لم يحلم بها كثيرون.

لكنني تعلمت منذ طفولتي أن أكون قويًا.

أن أتحمل الألم.

أن أقف عندما أسقط.

أن أبتلع دموعي قبل أن يراها أحد.

كان عليّ دائمًا أن أكون جديرًا بالمكان الذي مُنح لي، جديرًا بثقة الملك، جديرًا بالدرع الذي ارتديته، جديرًا بأن أكون فارسًا لا ينكسر.

حتى عندما كنت طفلًا، كان الجميع يرون ما يمكنني أن أصبح عليه.

الفارس العظيم.

المقاتل الموهوب.

القائد الذي يستطيع إنقاذ الجنود من الموت.

لكن كم مرة سألني أحدهم إن كنت متعبًا؟

كم مرة احتضنني أحدهم لأنني كنت بحاجة إلى حضن، لا لأنني أنجزت شيئًا يستحق المكافأة؟

كم مرة سمح لي أحدهم بأن أكون طفلًا فحسب؟

لم أجد إجابة.

ربما كانت هناك لحظات حنان حقيقية في طفولتي القديمة. لم تكن حياتي كلها قسوة، ولم يكن الملك ماركوس رجلًا بلا قلب. لكنني كنت دائمًا أشعر بأن عليّ أن أثبت شيئًا ما، حتى في أكثر اللحظات التي كان ينبغي لي فيها أن أرتاح.

...أما هذه المرأة

فلم تطلب مني شيئًا.

لم تكن تعرف من سأكون عندما أكبر.

لم تكن تعرف إن كنت سأصبح طبيبًا أو عاملًا أو رجلًا عاديًا لا يترك أثرًا في التاريخ.

لم تكن تعرف أن روحي تحمل ذكريات رجل مات وهو يظن أن حياته انتهت إلى الأبد.

كانت تعرف شيئًا واحدًا فقط.

أنني طفلها.
وهذا وحده كان كافيًا لتضمني إلى صدرها بكل ذلك الحنان.

حاولت أن أوقف بكائي.

أقسم إنني حاولت.

لقد كنت لوسين، الرجل الذي أمضى حياته يتحدى الألم، والذي رفض أن يسمح للدموع بأن تهزمه أمام الآخرين.

لكن جسدي الصغير لم يستجب لي.

ظلت شهقاتي تتلاحق، وارتجفت شفتاي، وشعرت بدموع دافئة تنساب على وجهي. لم أستطع السيطرة على شيء؛ لا على أنفاسي، ولا على أصابعي، ولا على تلك المشاعر التي بدأت تتجمع في داخلي حتى شعرت بأن صدري أضيق من أن يحتملها.

لماذا أبكي؟

لماذا يؤلمني هذا الدفء أكثر مما آلمتني جراح السيوف؟

ولماذا أشعر بأنني فقدت شيئًا عظيمًا، رغم أنني لم أكن أعرف أصلًا أنني أملكه؟

ثم فهمت.

لم تكن دموعي بسبب خوفي من هذا العالم الجديد.

ولا بسبب عجز جسدي.

ولا بسبب الحزن على حياتي القديمة وحده.

كنت أبكي لأن أحدًا احتضنني أخيرًا دون أن ينتظر مني أن أكون قويًا.

لأن أحدًا رأى فيّ طفلًا يستحق الحنان، لا مشروع فارس، ولا أداة للحرب، ولا رجلًا ينبغي أن يحمل أعباء أكبر من عمره.

كنت أبكي لأنني شعرت للمرة الأولى بدفء أمومي حقيقي.

دفء لا تصنعه العادات، ولا تفرضه الواجبات، ولا يحتاج إلى سبب كي يوجد.

دفء جعلني أدرك كم كنت وحيدًا، حتى في أكثر الأماكن ازدحامًا بالناس.

وكم كنت متعطشًا إلى شيء بسيط كهذا، دون أن أعترف لنفسي بذلك يومًا.

انحنت أمي فوقي قليلًا، وأخذت تمسح دموعي برفق، ثم قربت وجهي من وجهها.

«...يا إلهي، كم أنت صغير»

ضحكت ضحكة خافتة، تسللت إليها رعشة من التعب والفرح.

«هل كنت تنتظر كل هذا الوقت لتخبرني بأنك لا تحب المستشفى؟»
لو كنت أستطيع الكلام، لأخبرتها أنني أكره المستشفيات بالفعل، وأنني أكره أيضًا الأرواح الزرقاء التي ترتدي البدلات السوداء وتعبث بحياة الناس كما لو كانوا قطعًا على رقعة شطرنج.

لكنني لم أستطع سوى إصدار صوت صغير متقطع.

فابتسمت، وكأنها فهمتني.

«.حسنًا، حسنًا... لن نبقى هنا طويلًا. فقط دعني أطمئن عليك»

واصلت هدهدتي، وأخذت تحرك جسدها ببطء، في إيقاع هادئ يشبه أغنية بلا كلمات. ومع مرور اللحظات، بدأ جسدي الصغير يستجيب لها.

تراجعت شهقاتي.

هدأت ذراعاي.

انفرجت أصابعي التي ظلت منقبضة منذ ولادتي، واستقرت رأسي الصغيرة في المكان الذي اختارته لي بين ذراعيها.

حتى بكائي بدأ يخفت، إلى أن لم يبقَ منه سوى أنفاس متقطعة واهنة.

من الخارج، بدا الأمر وكأن الطفل قد هدأ أخيرًا.

...لكن روحي

روحي لم تهدأ.

بل ربما كان ذلك أسوأ ما حدث لي منذ أن بدأت هذه الحياة الجديدة.

لأنني لم أعد أستطيع الاختباء خلف الغضب.

لم أعد أستطيع أن أتمسك بكراهيتي لأدريان، أو أن أستحضر صورة آرثر وهو يضحك، أو أن أستعيد مشهد المعركة الأخيرة كي أقنع نفسي بأن الألم الذي أشعر به مجرد أثر من آثار الموت.

كنت بين ذراعي امرأة لا تعرفني، ومع ذلك أحبتني قبل أن تعرف عني أي شيء.

وكان ذلك كافيًا ليحطم آخر جدار بنيته حول قلبي.

انفجرت بالبكاء من جديد.

لم يكن بكاءً مرتفعًا هذه المرة، ولم يكن صراخًا يشبه صراخ الطفل الذي يخاف من العالم.

كان بكاءً صامتًا، داخليًا، لا يستطيع أحد سماعه أو رؤيته.

بكاء رجل قضى حياته كلها يبحث عن مكان يستطيع فيه أن يضع سيفه جانبًا، وينزع درعه، ويتوقف عن التظاهر بأنه لا يحتاج إلى أحد.

رجل مات وحيدًا، وهو يحمل في قلبه حبًا لم يستطع الاعتراف به في الوقت المناسب، وذكريات صديق لم يتمكن من إنقاذه، وندمًا لم يعد بإمكانه إصلاحه.

والآن، بعد أن انتهت حياته، وجد نفسه بين ذراعي أم لا يعرفها، تمنحه ما لم يعرف كيف يطلبه من قبل.

لم أستطع أن أقول لها إنني ممتن.

لم أستطع أن أخبرها بأن صوتها جعلني أشعر بأنني عدت إلى الحياة حقًا، لا لأن قلبي ينبض، بل لأن شيئًا في داخلي كان قد مات منذ زمن طويل وبدأ يتحرك من جديد.

لم أستطع حتى أن أرفع يدي لأتشبث بثيابها كما يفعل الأطفال.

كل ما استطعت فعله هو البكاء.

وكان ذلك، للمرة الأولى، كافيًا.

شعرت بيدها تمر على شعري الخفيف، ثم مالت نحوي وقبّلت جبيني قبلة طويلة وناعمة.

أغمضت عينيها للحظة، وكأنها تحفظ ملامحي في ذاكرتها.

ثم همست:

«.مرحبًا بك في العالم يا نيراس»

نيراس.

كان هذا اسمي الآن.

اسم جديد، وحياة جديدة، وأم جديدة.

لم أعرف ما الذي ينتظرني في هذا العالم، ولا إن كنت سأحمل يومًا اسم لوسين في ذاكرتي وحدها، أم أنني سأصبح شخصًا مختلفًا تمامًا.

لكنني عرفت شيئًا واحدًا، وأنا أستمع إلى دقات قلبها الهادئة تحت أذني الصغيرة.

لم أعد أسقط.

للمرة الأولى منذ أن ألقت بي روح الزمن في هذا المجهول، شعرت بأن هناك من يمسكني، وأنني لن أرتطم بالأرض وحدي.

شدّتني أمي إلى صدرها قليلًا، ثم مررت إصبعها على خدي، وابتسمت لي من جديد.

«.نيراس... يا صغيري الجميل»

لم أكن أعرف إن كنت أستطيع أن أحبها، أو إن كنت أستحق هذا القدر من الحنان بعد كل ما فعلته في حياتي الماضية.

لكنني كنت أعرف أنني لا أريد لهذا الدفء أن ينتهي.

ولو كان عليّ أن أبدأ حياتي من الصفر، وأن أتعلم المشي والكلام والضحك من جديد، وأن أعيش سنوات طويلة قبل أن أفهم هذا العالم، فسأفعل.

هذه المرة، لن أبحث عن سبب يجعلني جديرًا بأن يحبني أحد.

سأحاول فقط أن أعيش.

أن أكون نيراس.

وأن أحمي، ما استطعت، هذه اللحظة التي منحتني فيها امرأة غريبة شيئًا لم أكن أعلم أنني قضيت حياتي كلها أفتقده.

عائلة.

الراوي:

اللعنة عليك يا روح الزمن!

لقد سلبت وظيفتي!

حتى الراوي لم يعد يملك حق رواية القصة بسلام في هذا العالم!

لكن لوسين لم يسمع شيئًا من ذلك.

فهو الآن نيراس، طفل صغير غارق في دفء حضن أمه، لا يعلم أن أحدًا ما في مكان آخر قد بدأ بالفعل يشتكي من البطالة.

...وصدقوني

هذه ليست آخر مرة سيسبّ فيها أحدهم روح الزمن.

الفصل التاسع: مذاق لم تعرفه الملوك

لو أخبرني أحدهم، في حياتي السابقة، أنني سأقضي يومًا كاملًا أفكر في كيفية تحريك أصابع قدمي دون أن أبدو كالأحمق، لضحكت في وجهه، ثم طلبت منه أن يبتعد عني قبل أن أساعده على اكتشاف شكل الأرض عن قرب.

لكن الحياة، كما يبدو، تمتلك حسًا فكاهيًا رديئًا للغاية.

فبعد أن كنت فارسًا يستطيع حمل سيفه لساعات، ومواجهة خصوم يفوقونه عددًا، وتحليل خطط عسكرية معقدة في دقائق، وجدت نفسي محاصرًا داخل جسد رضيع لا يستطيع حتى حك أنفه دون أن تتحول المسألة إلى أزمة وجودية.

مرحبًا بكم في حياتي الجديدة.

أنا نيراس.

أو لوسين، إن كنتم تفضلون الاسم القديم.

وبينما لا تزال روحي تتذكر طعم الدم ورائحة البارود ووجه صديقي الذي فارق الحياة بين ذراعي، كان جسدي الجديد مشغولًا بأمور أكثر أهمية بكثير، مثل اكتشاف أن أصابع يدي تصلح للمضغ، وأن العالم يصبح مرعبًا عندما يختفي وجه أمي من مجال رؤيتي، وأن البكاء سلاح فعال بصورة مخيفة، حتى إنني بدأت أشك في أن الأطفال هم الحكام الحقيقيون لهذا العالم، وأن البالغين مجرد خدم لديهم وظائف مزعجة.

والأسوأ من ذلك كله؟

كنت واحدًا منهم.

الأشهر الأولى: حين يصبح النوم رفاهية

لا أتذكر اليوم الذي ولدت فيه بكل تفاصيله، لكنني أتذكر جيدًا الأيام التي تلته.

في البداية، كان العالم بالنسبة إليّ مجموعة من الأضواء الساطعة والأصوات الغريبة والروائح التي لم أستطع تصنيفها. كانت الأشياء تبدو أكبر مما ينبغي، والأصوات أعلى مما أحتمل، وحتى الهواء كان يحمل إحساسًا مختلفًا عن ذلك الذي عرفته في مملكتي القديمة.

احتجت إلى وقت حتى أعتاد هذا الجسد.

وقت طويل، أطول مما أود الاعتراف به.

لم يكن الأمر مجرد ضعف العضلات أو عدم القدرة على الكلام. كانت هناك تفاصيل أكثر إزعاجًا؛ فقد كنت أشعر بالجوع دون أن أفهم دائمًا سبب انزعاجي، وأشعر بالنعاس في أوقات لا تناسبني إطلاقًا، ثم أستيقظ فجأة في منتصف الليل وكأن أحدهم قرر أن يعلن الحرب على سلامي الداخلي.

ولم يكن بوسعي سوى البكاء.

أحيانًا، كنت أبكي لأنني جائع.

وأحيانًا لأنني متعب.

وأحيانًا أخرى، كنت أبكي لأنني لا أعرف لماذا أبكي أصلًا.

في تلك اللحظات، كنت أشعر بأن روحي القديمة تنظر إلى هذا الجسد من الداخل، ثم تضع يدها على وجهها في يأس.

يا إلهي، لوسين، لقد واجهت جيوشًا كاملة. ألن تستطيع التغلب على بطن فارغ؟

كنت أريد أن أجيب نفسي، لكنني لم أملك الكلمات ولا القدرة على تشكيلها.

وهكذا كنت أواصل البكاء.

وكانت أمي تأتي.

دائمًا كانت تأتي.

أمي، سالفيا.

لم أكن أعرف عنها شيئًا تقريبًا في البداية، سوى أنها المرأة التي تحملني كلما شعرت بأن العالم أصبح أكبر من قدرتي على احتماله. لكنني بدأت، مع مرور الأيام، أكتشف ملامحها شيئًا فشيئًا، كما لو أنني أجمع قطع صورة لم أرها من قبل.

كانت سالفيا رياضية محترفة، امرأة اعتاد جسدها الحركة والتدريب والانضباط. كنت أراها أحيانًا بملابسها الرياضية، وشعرها البني الطويل مربوطًا إلى الخلف، وملامحها تحمل ذلك الإصرار الذي لا يخطئه المرء في وجوه الأشخاص الذين اعتادوا دفع أنفسهم إلى ما وراء حدودهم.

كانت قوية، بلا شك.

قوية بطريقة جعلتني، في لحظات صفاء عقلي، أتساءل عما إذا كان بإمكاني هزيمتها في مصارعة الذراع لو كنت في جسدي القديم.

ثم أتذكر أنني لا أستطيع حتى الجلوس بمفردي.

وأقرر تأجيل التحدي إلى موعد غير محدد.

ومع ذلك، كانت قوتها تتخذ شكلًا مختلفًا عندما تحملني.

كانت ذراعاها اللتان اعتادتا التدريب تحملانني بحذر شديد، وكأنني شيء ثمين يمكن أن ينكسر من لمسة خاطئة. وكانت تلك المرأة التي تستطيع إجهاد نفسها في التمارين لساعات، تستيقظ من نومها بمجرد أن تسمع بكائي، حتى لو لم يمضِ على نومها سوى وقت قصير.

كنت أشعر أحيانًا بالذنب.

نعم، أنا، لوسين الذي اعتاد مواجهة الموت دون أن يرف له جفن، كنت أشعر بالذنب لأنني أوقظ أمي من نومها.

يا لها من نهاية مجيدة للفارس العظيم.

أما أبي، فيكتور، فكان قصة مختلفة تمامًا.

كان رجلًا ذا شعر أسود وعينين سوداويين عميقتين، وكانت ملامحه تحمل هدوءًا يصعب زعزعته. لم يكن كثير الضجيج، ولم يكن يحتاج إلى رفع صوته حتى يلفت الانتباه. كان حضوره وحده كافيًا ليمنح المكان شعورًا بالاستقرار، كأن الأشياء ستظل في مواضعها ما دام موجودًا.

وكان لديه شعر أسود جميل، وهو أمر أقر به على مضض، لأنني كنت أعرف أنني ورثته عنه.

نعم، لقد ورثت شعر أبي الأسود.

أما عيناي، فقد ورثتهما عن أمي؛ ذلك اللون المميز الذي يمزج البني بلمسة صفراء خفيفة، فيبدو أحيانًا عسليًا تحت الضوء، وأحيانًا آخر أكثر دفئًا عندما تسقط عليه أشعة الشمس.

كنت أجد الأمر مثيرًا للاهتمام.

في حياتي السابقة، لم تكن ملامحي هذه هي ملامحي الحالية. أما الآن، فقد حمل جسدي الجديد أثرًا من كل واحد منهما؛ شعر أبي، وعينا أمي.

كنت أنظر إلى انعكاسي الصغير حين تسنح لي الفرصة، وأحاول تخيل وجهي عندما أكبر.

هل سأشبه فيكتور؟

هل سأحصل على ابتسامة سالفيا؟

وهل سأبدو يومًا كرجل بالغ، بدلًا من كائن صغير يستطيع أن يحوّل مجرد العطاس إلى حدث يستدعي اجتماع الأسرة؟

لم تكن لدي إجابات.

لكنني بدأت أجد شيئًا غريبًا في التفكير بهذه الأسئلة.

للمرة الأولى منذ موتي، كنت أفكر في مستقبلي دون أن أتخيل سيفًا أو معركة أو قبرًا.

كنت أفكر في وجهي.

وفي شعري.

وفي شكل الحياة التي تنتظرني.

وربما، للمرة الأولى أيضًا، لم أشعر بأن المستقبل عدو ينتظر اللحظة المناسبة ليطعنني في ظهري.

فضائح لا تليق بفارس سابق

سأعترف لكم بشيء، على أن يبقى هذا الاعتراف بيننا.

لا، بل انتظروا.

أنتم قراء، ومن الواضح أنكم لا تعرفون معنى الخصوصية، خصوصًا أن بعضكم يستمتع بمشاهدة معاناتي أكثر مما ينبغي.

حسنًا، لا يهم.

لقد كانت الأشهر الأولى مليئة بالمواقف التي أفضّل لو أنني أستطيع محوها من ذاكرة هذا العالم.

وأبرزها، دون منافس، تغيير الحفاضات.

نعم.

الحفاضات.

ذلك الاختراع الذي يبدو بسيطًا بما يكفي حتى تدرك أن مصيرك الشخصي أصبح متعلقًا به.

في حياتي السابقة، كنت أستطيع اتخاذ قرار مصيري خلال لحظات. كنت أستطيع التخطيط لتحركات فرقة كاملة، وحساب مسارات الهجوم والانسحاب، وتحديد مواضع الخطر قبل أن يلاحظها الآخرون.

أما الآن، فقد أصبحت عاجزًا عن منع جسدي من إعلان حالة طوارئ في أكثر الأوقات غير المناسبة.

وكانت المشكلة أن جسدي لم يكن يستأذنني.

لم يكن ينتظر موافقتي.

ولم يكن يكترث إطلاقًا بأن صاحب هذا الجسد يحمل ذكريات فارس بالغ، أو أنه كان يفضّل الموت مرة أخرى على المرور بتلك التجربة.

كنت أشعر بالخزي في كل مرة تحملني فيها أمي لتغيير الحفاضة، خصوصًا عندما تتحدث إليّ بنبرة مرحة، وكأن الأمر مجرد نشاط يومي عادي.

«.حسنًا يا صغيري، دعنا نرى ما الذي حدث هنا»

لا يا أمي.

أرجوكِ.

لا تنظري.

لا تتفحصي.

لا تحاولي معرفة التفاصيل.

أنا رجل مات في ساحة معركة!

أو كنت كذلك، على الأقل.

لكنها كانت تبتسم، وتتعامل مع الأمر بكل بساطة، ثم تنظفني وتبدل ملابسي وتضمن أنني مرتاح، دون أن يخطر ببالها أن الطفل الذي بين يديها يمر بأزمة كرامة أشد من أي أزمة مر بها في حياته السابقة.

والأدهى من ذلك أن أبي كان يساعدها أحيانًا.

كنت أسمع صوته الهادئ يقول:

«.أظن أن نيراس قرر أن يختبر قدرتنا على التحمل اليوم»

فتجيبه أمي وهي تحاول كتم ضحكتها:

«.إنه طفل يا فيكتور»

«.أعرف. لكنني بدأت أعتقد أنه يفعل ذلك عن قصد»

عن قصد؟!

يا رجل، هل فقدت عقلك؟

هل تظن أنني أستيقظ كل صباح وأضع خطة سرية لإفساد يومكما؟

المرحلة الأولى: إزعاج الوالدين.

المرحلة الثانية: تحطيم معنوياتهما.

المرحلة الثالثة: السيطرة على المنزل.

بالطبع لا!

أنا نفسي ضحية هنا!

لكن ما الذي يمكنني فعله؟ لم أكن أستطيع التحكم في جسدي، مهما حاولت. كنت محاصرًا داخل نظام بيولوجي لا يأخذ رأيي في أي شيء، ولا يعترف بماضيّ، ولا يمنحني حتى حق تقديم شكوى رسمية.

ولو كانت هناك وزارة لشؤون الأطفال، لكنت أول من يطرق أبوابها.

لكنني كنت رضيعًا.

لذلك لم أطرق أي باب.

بل بكيت عندما شعرت بالجوع.

وبكيت عندما شعرت بالنعاس.

وبكيت عندما لم أجد سببًا للبكاء.

وكنت، في بعض المرات، أبكي لأنني أدركت أنني لا أستطيع فعل أي شيء سوى البكاء.

يا لها من دائرة جهنمية.

أما الرضاعة، فكانت معركة أخرى خضتها بصمت.

لم يكن الأمر مؤلمًا أو سيئًا كما قد يتخيل أحدكم، بل كانت المشكلة في عقلي أنا. كنت أعي كل ما يحدث من حولي بوعي رجل بالغ، بينما كان جسدي يتعامل مع الأمر بوصفه حاجة طبيعية لا تستحق كل هذا التحليل.

كنت أحاول أن أشغل نفسي بأفكار أخرى.

أتذكر مواقف من حياتي السابقة.

أستعيد خطط المعارك.

أفكر في شكل العالم الجديد.

لكن الجوع كان ينتصر في النهاية، وكان جسدي يتصرف وفق احتياجاته، بينما كنت أنا أجلس في الداخل، أشاهد كرامتي وهي تتلقى هزيمة جديدة.

وفي كل مرة، كانت أمي تضمّني إليها بحنان، وتربت على ظهري، وتهمس لي بكلمات بسيطة.

«.هكذا، يا حبيبي... خذ وقتك»

لم تكن تسخر مني.

لم تكن تشعر بأنني أقل شأنًا لأنني عاجز عن الاعتماد على نفسي.

لم تكن تنتظر مني أن أكون قويًا أو مستقلًا أو جديرًا بشيء.

كانت تطعمني لأنها أمي.

وكانت تعتني بي لأنني طفلها.

وبينما كنت أختبئ خلف سخريتي الداخلية من ذلك الجسد الصغير، كان جزء آخر مني يتعلم شيئًا لم أتعلمه في قصر ماركوس، رغم كل سنوات التدريب والانضباط.

أن العجز لا يجعل المرء أقل استحقاقًا للحب.

وأن الإنسان لا يحتاج إلى إثبات قوته كل يوم كي يستحق أن يُعامل بلطف.

كانت فكرة بسيطة.

لكنها كانت أثقل على قلبي من أي سيف حملته يومًا.

طعام الأبطال... أو ما يشبهه

مع مرور الأشهر، بدأت مرحلة جديدة من حياتي.

مرحلة الوجبات المرفوضة.

أو الوجبات المهروسة، كما كان يسميها الكبار.

أعتقد أن الشخص الذي اخترع هذه الفكرة كان يمتلك نية طيبة، لكنه لم يكن يملك ذوقًا في الطعام.

في البداية، كانت الملاعق الصغيرة تقترب من فمي محملة بألوان غريبة وقوام لا يبعث على الثقة. كنت أنظر إلى الطعام، ثم إلى أمي، ثم إلى الملعقة، محاولًا فهم سبب اعتقادها أن هذا الشيء يستحق أن يدخل فمي بإرادتي.

وكانت أمي، بطبيعة الحال، تبتسم وتقول:

«.هيا يا نيراس، جرّب قليلًا»

قليلًا؟

هل هذه المادة اللزجة هي ما يأكله البشر في هذا العالم؟

هل انتهت الحضارة الحديثة إلى هذا الحد من التراجع؟

أين اللحوم المشوية؟ أين الخبز الطازج؟ أين الأطباق التي تُطهى على نار حقيقية وتفوح منها الروائح حتى تجعل المرء ينسى اسمه؟

ثم كانت الملعقة تدخل فمي.

وأكتشف أن الأمر ليس سيئًا كما توقعت.

بل إن بعض تلك الوجبات كان لذيذًا على نحو مفاجئ.

كنت أكره الاعتراف بذلك، لكن حاسة التذوق لديّ لم تكن متعاونة مع كبريائي. كانت هناك نكهات لطيفة، وقوام ناعم، وحلاوة خفيفة تجعلني أفتح فمي للملعقة التالية دون أن أشعر.

وبالطبع، كانت أمي تلاحظ ذلك.

«.أرأيت؟ كنت أعرف أنك ستحبه»

لا تبالغي في الاحتفال، يا أمي.

لقد أكلت ملعقتين فقط.

ثم آكل الثالثة.

والرابعة.

...والخامسة

حسنًا، ربما كانت محقة.

كانت أمي تبدو سعيدة كلما أكلت جيدًا، بينما كان أبي يراقبنا من مكان قريب بابتسامة هادئة، وأحيانًا يعلّق بأنني أبدو جادًا أكثر مما ينبغي لطفل يتناول وجبته.

كنت أريد أن أخبره أن تناول الطعام مسألة استراتيجية.

عليك أن تدرس الملعقة، وتقيّم محتواها، ثم تقرر إن كان يستحق المخاطرة.

لكنني لم أكن أستطيع قول ذلك.

لذلك كنت أكتفي بالنظر إليه بوجهي الصغير، محاولًا الحفاظ على هيبتي.

وهو، للأسف، كان يضحك كلما فعلت ذلك.

لقد بدأت أشك في أن والديّ يستمتعان بمعاناتي أكثر مما ينبغي.

صندوق حُبست داخله البشرية

إذا كان عليّ اختيار أكثر الأشياء التي أربكتني في هذا العالم، فلن أختار الحفاضات، ولا الطعام المهروس، ولا حتى حقيقة أنني اضطررت إلى إعادة تعلم كيفية التحكم في جسدي.

بل سأختار التلفاز.

في إحدى المرات، كنت مستلقيًا على الأريكة، أو بالأحرى مستلقيًا في حضن أمي بينما كانت تجلس على الأريكة، حين رفعت جهاز التحكم وفتحت التلفاز.

أضاءت الشاشة فجأة.

وظهرت عليها وجوه أشخاص يتحركون ويتحدثون، وكأنهم يعيشون داخل صندوق أسود كبير.

تجمدت.

لم يكن ذلك تعبيرًا مجازيًا.

لقد تجمدت فعلًا، بقدر ما يسمح به جسد رضيع.

أين أنا؟

ما هذا المكان؟

من هؤلاء الناس؟

ولماذا لا يحاول أحد إخراجهم من الصندوق؟

حدقت في الشاشة، ثم نظرت إلى أمي، ثم عدت إلى الشاشة.

كان هناك رجل يتحدث بحماس، وخلفه مجموعة من الأشخاص يتحركون في مكان لم أره من قبل.

هل كانوا مسجونين؟

هل هذا نوع من العقاب في هذا العالم؟

هل حبسوا هؤلاء الأشخاص داخل جهاز ثم جعلوهم يؤدون أدوارًا للترفيه عن الناس؟

لماذا يبدو الجميع وكأن الأمر طبيعي؟

حاولت أن أتحرك، وأن أرفع رأسي أكثر لأرى الشاشة بوضوح.

لكن أمي، التي ظنت أنني مهتم بما يُعرض، ابتسمت وقالت:

«هل يعجبك البرنامج يا نيراس؟»

برنامج؟

هل هذا اسم السجن؟
ثم غيّرت القناة.

اختفى الأشخاص، وظهر آخرون.

شهقت في داخلي.

لقد نقلتهم إلى سجن آخر!

يا إلهي، كم عدد هؤلاء الناس؟ وكم عدد الصناديق التي يُحتجزون فيها؟

وبعد ذلك، حدث ما جعلني أفقد آخر ذرة من الثقة في فهمي لهذا العالم.

أخرجت أمي هاتفها.

ذلك الجهاز الصغير الذي تستطيع حمله بيد واحدة، ثم بدأت تنظر إلى شاشته وتقرأ شيئًا ما، قبل أن تبتسم وتقول:

«.آه، فهمت. يقولون إنني أستطيع تعديل وضعيتي في هذا التمرين حتى لا أضغط على كتفي كثيرًا»

ثم أخذت تطالع الهاتف مجددًا، وبدأت تتحدث عن نصيحة وجدتها بشأن التدريب.

حدقت فيها.

ثم في الهاتف.

ثم فيها مرة أخرى.

لحظة واحدة.

هل هذا الصندوق الصغير يتحدث أيضًا؟

وهل يقدم نصائح؟

هل يحتوي على أشخاص مصغرين يمكن استدعاؤهم عند الحاجة؟

وهل أستطيع أن أطلب منه خطة تدريب مناسبة لجسد رضيع؟

تخيلت نفسي بعد سنوات، أحمل ذلك الجهاز وأطلب منه أن يعلمني كل ما أحتاج إلى معرفته عن هذا العالم.

ثم تذكرت أنني لا أستطيع حتى الإمساك به جيدًا.

يا لها من إهانة.

لكنني لم أستسلم.

كنت أراقب كل شيء.

التلفاز، والهاتف، والأضواء، والأبواب التي تفتح دون مفاتيح تقليدية، والأصوات التي تصدر من أجهزة لا تحتاج إلى شخص يقف خلفها ليشرح ما يحدث.

كان هذا العالم مختلفًا تمامًا عن عالمي السابق.

هناك، كان السحر يفسر الأشياء التي تتجاوز قدرة البشر.

أما هنا، فقد بدت التكنولوجيا وكأنها سحر ارتدى معطفًا أنيقًا، وحصل على شهادة جامعية، ثم قرر أن يجعل حياة الناس أكثر راحة وتعقيدًا في الوقت نفسه.

وبصفتي شخصًا مات في عالم مليء بالفرسان والسيوف، لم يكن لديّ خيار سوى أن أبدأ من جديد.

أن أراقب.

أن أتعلم.

وأن أؤجل تحقيق السيطرة على هذا العالم حتى أستطيع على الأقل الجلوس دون أن أميل إلى أحد الجانبين.

انتصار صغير اسمه الوقوف

مرت الأيام، ثم الأسابيع، حتى بدأت أشعر بأن جسدي يتغير.

لم يحدث ذلك دفعة واحدة.

في البداية، أصبحت قادرًا على تحريك رأسي بثبات أكبر. ثم بدأت أستطيع رفعه دون أن أشعر بأنني أحمل حجرًا فوق كتفي. وبعدها، بدأت أطرافي تستجيب لي بصورة أفضل، وكأنها تتعلم أخيرًا اللغة التي أحاول التحدث بها إليها منذ ولادتي.

كانت تلك اللحظات تبدو عادية لأي شخص يراقب طفلًا يكبر.

أما بالنسبة إليّ، فكانت انتصارات حقيقية.

كل حركة إرادية كانت إنجازًا.

كل مرة أستطيع فيها الإمساك بشيء دون أن يسقط من يدي، كنت أشعر برغبة في رفع قبضتي والاحتفال.

لو كنت أستطيع الكلام آنذاك، لكنت أعلنت للعالم أن الفارس لوسين قد استعاد جزءًا من قوته!

لكنني كنت أستطيع فقط أن أبتسم ابتسامة صغيرة، فيصفق والداي وكأنني حققت معجزة.

وبمرور الوقت، أصبحت قادرًا على الجلوس بمفردي.

ثم بدأت مرحلة الزحف.

كانت تلك المرحلة مزعجة أكثر مما ينبغي.

فقد اكتشفت أن الأرض بعيدة جدًا عندما تكون قصيرًا، وأن الوصول إلى لعبة تبعد مترًا واحدًا قد يتطلب جهدًا بدنيًا يشبه اجتياز جبل.
ومع ذلك، كنت مصممًا.

كان لديّ هدف.

أن أتحرك كما أريد، دون أن أحتاج إلى أن يحملني أحد كلما رغبت في الوصول إلى مكان آخر.

كنت أزحف عبر الغرفة، وأراقب الأشياء من حولي، وأحاول أن أفهم كيف تعمل. وكان أبي يضع أحيانًا لعبة أمامي، ثم يشجعني على الوصول إليها، بينما تجلس أمي بالقرب مني وتبتسم.

«.هيا يا نيراس، تستطيع فعلها»

كنت أزحف نحو اللعبة.

وأصل إليها.

ثم أرفع رأسي بفخر.

انتصار جديد.

لكنني كنت أعرف أن الأمر لن يتوقف هنا.

كنت أريد الوقوف.

أريد أن أشعر بقدميّ وهما تحملان وزني.

أريد أن أرى العالم من ارتفاع أكبر، حتى لو كان ذلك الارتفاع لا يتجاوز بضعة سنتيمترات إضافية.

وبعد محاولات كثيرة، بدأت أتمسك بالأثاث وأرفع جسدي ببطء. كانت ساقاي ترتجفان، وكان التوازن أشبه بمفاوضات مع عدو لا يلتزم بأي اتفاق.

أحيانًا كنت أتمكن من الوقوف لثوانٍ.

وأحيانًا كنت أسقط على مؤخرتي، ثم أحدق في الأرض بامتعاض شديد.

كنت أكره السقوط.

لقد كرهته في حياتي السابقة، وها أنا أكرهه في حياتي الجديدة.

لكن الفرق أن السقوط الآن لا يترك جرحًا في صدري أو دمًا على ثيابي.

كان يترك فقط طفلًا منزعجًا، ووالدين يحاولان كتم ضحكتهما.

«.لا تضحكي يا سالفيا»

بالطبع، لم أستطع قول ذلك.

لذلك نظرت إليها بوجهي الغاضب.

فضحكت أكثر.

خائنة.

ثم جاء اليوم الذي لن أنساه ما حييت.

اليوم الذي وقفت فيه دون أن أتشبث بأي شيء.

لم يكن هناك إعلان مسبق، ولا موسيقى بطولية، ولا ضوء ذهبي هبط من السماء ليخبرني بأنني بلغت مرحلة جديدة من حياتي.

كان الأمر أبسط من ذلك بكثير.

كنت في الرواق، بينما كان أبي وأمي يقفان على مسافة مني.

كانت أمي تنحني قليلًا، وتمد ذراعيها نحوي، وابتسامتها تملأ وجهها.

«.تعال إليّ يا نيراس»

أما أبي، فكان يقف في الجهة الأخرى، وقد انحنى هو أيضًا، مادًا ذراعيه نحوي.

«.لا، تعال إلى هنا يا بطل. أريد أن أراك تأتي إليّ»

نظرت إلى أمي.

ثم إلى أبي.

ثم إلى أمي مرة أخرى.

يا لها من ورطة.

لقد كنت على وشك اتخاذ أول قرار مصيري في حياتي الجديدة.

إلى من أذهب؟

إذا ذهبت إلى أمي، فهل سيشعر أبي بالحزن؟

وإذا ذهبت إلى أبي، فهل ستشعر أمي بأنني فضّلته عليها؟

لماذا يجب أن يكون عليّ الاختيار أصلًا؟

أنا طفل.

أريد الاثنين.
وبما أنني كنت قد بدأت أستعيد بعض السيطرة على جسدي، قررت أن أختبر قدراتي الجديدة في هذه المسألة تحديدًا.

وضعت قدمي الأولى أمامي.

ثم الثانية.

ترنحت قليلًا، فشهقت أمي ومدت ذراعيها أكثر.

«.ببطء يا حبيبي، لا تتعجل»

كان أبي يبتسم، وعيناه السوداوان تتابعان كل حركة أقوم بها.

«.أحسنت يا نيراس. خطوة أخرى»

خطوة.

ثم أخرى.

كان الرواق يبدو طويلًا بصورة مضحكة، وكأن المسافة بينهما صُممت خصيصًا لاختبار عزيمتي.

لكنني واصلت السير.

كنت أشعر بساقيّ ترتجفان، وبجسدي يميل يمينًا ويسارًا. وكل خطوة كانت تتطلب مني تركيزًا لم أحتج إليه حتى في أصعب تدريباتي العسكرية.

وأخيرًا، اقتربت منهما.

فتحت أمي ذراعيها أكثر، وارتسمت على وجهها ابتسامة جعلتني أشعر بأنني أستطيع الوصول إلى أي مكان في العالم ما دامت تنتظرني في نهايته.

أما أبي، فكان ينظر إليّ بفخر واضح.

بقيت خطوة واحدة.

ثم أخرى.

وعندما وصلت إليهما، لم أتجه إلى أحدهما.

بدلًا من ذلك، أمسكت ذراع أمي الصغيرة بيدي، ثم أمسكت ذراع أبي باليد الأخرى، وجذبتهما نحوي بكل ما أملك من قوة.

لم تكن قوتي كبيرة بالطبع.

لكنها كانت كافية لإرباكهما.

«أوه! نيراس؟»

«ماذا يفعل؟»

لم أمنحهما الوقت لفهم ما يحدث.

واصلت جذبهما حتى اقتربا من بعضهما، ثم اندفعت إلى الأمام وسقطت بين ذراعيهما، بينما احتضنانني معًا في اللحظة نفسها.

ساد الصمت لثانية.

ثم سمعت ضحكة أبي.

ضحكة صادقة، عميقة، خرجت منه قبل أن يتمكن من إخفائها.

وضَحكت أمي أيضًا، وهي تضمّني إلى صدرها وتقبّل خدي.

«!يا لك من طفل صغير ماكر»

ماكر؟

أنا؟

أنا فقط رفضت اتخاذ قرار غير ضروري.

كان بإمكاني أن أشرح لهما ذلك لو أن لساني تعاون معي.

لكنني اكتفيت بالابتسام.

لقد نجحت.

لم أختر أحدهما.

بل حصلت عليهما معًا.

وبينما كان أبي يمرر يده فوق رأسي، وأمي تحتضنني بحنان، شعرت بشيء دافئ ينتشر في صدري.

لم تكن فرحة المشي وحدها.

بل فرحة الوصول.

فرحة أن أجد شخصين ينتظرانني في نهاية الطريق، لا لأنهما يريدان مني أن أحمل سيفًا أو أنقذ مملكة، بل لأنهما يريدانني أنا.

طفلهما الصغير.

نيراس.

أغمضت عينيّ، واستسلمت للحضن الذي جمعنا، وسمحت لنفسي بأن أستمتع باللحظة دون أن أبحث عن تهديد خفي خلفها.

كان ذلك، بالنسبة إلى رجل مثلي، انتصارًا أكبر بكثير من تعلم المشي.

أول وجبة حقيقية

لكن أعظم انتصارات تلك الفترة لم يكن الوقوف.

ولا المشي.

ولا حتى اكتشاف أنني أستطيع جذب والديّ إلى بعضهما البعض حين أرفض الاختيار بينهما.

كان أعظمها يوم تذوقت فيه طعام أمي.

حتى ذلك الوقت، كانت معظم وجباتي تأتي في عبوات جاهزة أو على هيئة أطعمة مهروسة أعدت خصيصًا للأطفال. لم تكن سيئة، وقد اعترفت بذلك رغمًا عني، لكنها كانت تفتقر إلى شيء لم أستطع تحديده.

شيء كنت أفتقده دون أن أعرف اسمه.

وفي ذلك اليوم، كنت جالسًا على مقعدي الصغير قرب طاولة الطعام، بينما كانت أمي تتحرك بين المطبخ والطاولة. كان شعرها البني الطويل مربوطًا إلى الخلف، وقد ارتدت مئزرًا بسيطًا فوق ملابسها.

كان أبي يجلس بالقرب منها، يتحدث معها عن يومه، بينما كانت رائحة الطعام تنتشر في أرجاء المنزل.

توقفت عن اللعب.

رفعت رأسي.

وشممت الهواء.

ما هذه الرائحة؟

لم تكن رائحة الطعام المعلب الذي اعتدت عليه.

كانت أعمق، وأكثر دفئًا، وتحمل طبقات من الروائح المتداخلة؛ رائحة المكونات المطهوة ببطء، والتوابل التي امتزجت ببعضها، والبخار الذي ارتفع من القدر، كأنه يحمل معه وعدًا بشيء لذيذ.

شعرت بالجوع فورًا.

ليس ذلك الجوع الذي يدفعني إلى البكاء فحسب، بل جوع مختلف، جوع جعلني أراقب كل حركة تقوم بها أمي وكأنها تؤدي طقسًا سحريًا لا ينبغي لي أن أفوّت منه تفصيلًا واحدًا.

وضعت الطعام على الطاولة، ثم اقتربت مني وهي تحمل طبقًا صغيرًا.

«.حسنًا يا نيراس، حان وقت تجربة شيء جديد»

شيء جديد؟

لقد سمعت هذه العبارة من قبل.

وفي معظم الأحيان، كانت تعني أنني سأواجه شيئًا لزجًا لا يبعث على الثقة.

لكن هذه المرة كان الأمر مختلفًا.

كان الطعام يبدو شهيًا، حتى إنني نسيت للحظة أنني لا أستطيع استخدام يدي كما ينبغي، وأنني سأحتاج إلى مساعدة أمي في تناوله.

جلست أمامي، وأخذت ملعقة صغيرة، ثم قربتها من فمي.

فتحت فمي.

وتذوقت أول لقمة.

لا أستطيع وصف ما حدث بعدها بدقة.

أقسم إنني حاولت.

لقد ذقت في حياتي السابقة أطباقًا فاخرة، وأطعمة أُعدت في مطابخ القصر الملكي على أيدي طهاة أمضوا سنوات في صقل مهاراتهم. تناولت لحومًا نادرة، وخبزًا طازجًا، وأطباقًا كانت تُقدّم في الولائم الملكية، حيث تُزيّن الطاولات بالفضة والكؤوس اللامعة، ويقف الخدم في انتظار إشارة من الضيوف.

كان الطعام هناك لذيذًا.

بل كان رائعًا أحيانًا.

...لكن هذه اللقمة

كانت مختلفة.

لم تكن مجرد نكهة لذيذة تصل إلى لساني، ولا مزيجًا متقنًا من المكونات والتوابل.

كان هناك شيء آخر.

شيء لم أستطع أن أفسره بحاسة التذوق وحدها.

شعرت بالدفء أولًا، ثم بطمأنينة غريبة أخذت تتسلل إلى داخلي. كانت النكهة بسيطة، مألوفة في بساطتها، لكنها بدت لي وكأنها تحمل حكاية كاملة؛ حكاية عن منزل دافئ، ومطبخ مضاء، وامرأة تقف أمام قدرها، تتذوق الطعام وتعدّل نكهته، ثم تفكر في الشخص الذي ستقدمه إليه.

كان الطعام يحمل أثر اليد التي أعدّته.

أثر الوقت الذي بذلته فيه.

وأثر الحب الذي ربما لم تفكر أمي حتى في تسميته، لأنها كانت تفعله بصورة طبيعية، كما تتنفس، وكما تبتسم لي كل صباح. حدقت في الملعقة.

ثم في أمي.

ثم عدت إلى الطبق.

لا.

هذا غير معقول.

كيف يمكن للطعام أن يكون بهذه اللذة؟

كيف يمكن لوجبة بسيطة أن تجعلني أشعر بأنني أتناول شيئًا لم أتذوقه في حياتي كلها؟

فتحت أمي فمها لتسألني إن كنت أحببت الطعام.

لكنها لم تكمل السؤال.

لأن دموعي بدأت تنهمر.

بغزارة.

وبسرعة جعلتها تتجمد في مكانه

الفصل العاشر: صديقٌ جديد، ووعدٌ من حياةٍ قديمة

أتعلمون ما الشيء الذي لم أكن أتوقع أن أفرح به إلى هذا الحد في حياتي الثانية؟

الكلام.

نعم، الكلام.

تلك القدرة البسيطة التي يستخدمها البشر كل يوم دون أن يفكروا فيها، والتي لم أكن أقدّر قيمتها حتى وجدت نفسي عاجزًا عن نطق كلمة واحدة مفهومة.

لقد كان الأمر أشبه بمحاولة تسلق جبل باستخدام ساقين لا تعرفان كيف تحملان جسدك، بينما يصرّ عقلك على إخبارك بأنك تسلقت جبالًا أصعب من ذلك بكثير.

في حياتي السابقة، كنت أستطيع التحدث بطلاقة، ومجادلة آرثر لساعات، وإلقاء الأوامر على الجنود، ومناقشة الخطط العسكرية مع القادة، بل وحتى التحدث أمام الملك دون أن أرتبك.

أما الآن، فقد كنت أحتاج إلى وقت طويل كي أتعلم كيف أجعل لساني ينفذ ما أريده منه.

كان عقلي يعرف الكلمات، لكن فمي لم يكن يعرف الطريق إليها.
والمشكلة الأكبر أنني لم أعد أعيش في المملكة التي نشأت فيها. لم تكن اللغة المحيطة بي هي اللغة التي اعتدت استخدامها في حياتي الأولى، كما أن أصوات هذا العالم وطريقة نطق أهله للكلمات كانت مختلفة تمامًا عما حفظته ذاكرتي.

كنت أستمع إلى أمي وهي تتحدث، فأفهم المعنى العام لبعض الكلمات، ثم أحاول تقليدها بصوتي الصغير.

أحيانًا أنجح.

وأحيانًا أخرى، أخرج بصوت يجعلني أشك في أنني أحاول التحدث بلغة البشر أصلًا.

كانت سالفيا تبتسم في كل مرة أحاول فيها قول شيء جديد، ثم تعيد نطق الكلمة ببطء، وتنتظر مني أن أكررها.

«.ماما»

كانت تلك من أولى الكلمات التي استطعت قولها بوضوح.

وحين سمعتها أمي تخرج من فمي للمرة الأولى، اتسعت عيناها، ثم وضعت يدها على صدرها وكأنني منحتها كنزًا لم تكن تتوقع الحصول عليه.

«نيراس! هل قلت ماما؟»

بالطبع قلتها.

هل كنت تتوقعين أن أطلب إعلان الحرب على دولة مجاورة؟

لكنني لم أستطع قول ذلك، فاكتفيت بابتسامة صغيرة.

احتضنتني أمي وقبّلت وجهي مرات متتالية، حتى بدأت أشعر بأن خديّ سيتحولان إلى وسادتين من كثرة القبلات.

«!يا إلهي، لقد نطقت أول كلمة! فيكتور، تعال بسرعة»

جاء أبي من الغرفة المجاورة، وقد بدا عليه القلق في البداية.

«ماذا حدث؟ هل سقط؟»

«!لا، لقد قال ماما»

توقف أبي للحظة، ثم نظر إليّ.

وبعد أن استوعب ما سمعه، ابتسم ابتسامة واسعة، واقترب مني ليحملني.

«حقًا؟ إذن، هل ستقول بابا أيضًا؟»

نظرت إليه.

ثم نظرت إلى أمي.

كان من الواضح أن عليّ اتخاذ قرار سياسي حساس.

فإذا قلت «بابا»، فقد يعتقد أبي أنني منحته انتصارًا شخصيًا على أمي، وإذا كررت «ماما»، فقد أبدو وكأنني أتحيز لها.

يا لها من مسؤولية ثقيلة على طفل في هذا العمر!

قررت أن أحسم الأمر بأسرع طريقة ممكنة.

«.با... با»

لم أكن قد نطقت الكلمة بإتقان، لكن أبي تجمد في مكانه للحظة، ثم ضحك بفرح لم يحاول إخفاءه.

«!سمعتِ ذلك يا سالفيا؟ لقد قال بابا»

لقد قلت له أن ينتظر دوره فحسب!» أجابت أمي وهي تضحك».

وهكذا، حققت أول إنجاز لغوي في حياتي الثانية، وتسببت في منافسة صغيرة بين والديّ على كلمة واحدة.

لم أكن أعرف إن كان ذلك أمرًا يدعو للفخر أم القلق.

لكنني كنت سعيدًا.

سعيدًا لأنني استطعت أخيرًا أن أعبّر عن نفسي، ولو بكلمات قليلة.

ومع مرور الوقت، بدأت الكلمات تتكاثر. تعلمت أسماء الأشياء، وأسماء الأشخاص، وكيف أطلب ما أريده، وكيف أجيب عن الأسئلة البسيطة التي يطرحها الكبار على الأطفال.

وكانت هناك مشكلة لم أكتشف حجمها إلا عندما بدأت أتكلم أكثر.

كنت أحمل في رأسي لغتين مختلفتين، أو على الأقل طريقتين مختلفتين في التعبير عن الأشياء.

إحداهما تنتمي إلى حياتي القديمة؛ لغة تعودت استخدامها في القصر، وفي ساحة التدريب، وبين الفرسان والجنود.

أما الأخرى، فكانت لغة هذا العالم الجديد، لغة الشوارع والأجهزة والتلفاز والمحادثات اليومية.

في بعض الأحيان، كنت أعرف الكلمة التي أريد قولها، لكنني أجد نفسي أبحث عنها في ذاكرتي كما لو أنني أفتش عن سيف ضاع مني وسط معركة.

وفي أحيان أخرى، كنت أفكر بجملة كاملة من لغتي القديمة، ثم أحاول ترجمتها إلى اللغة الجديدة، فأكتشف أن التعبير الذي يبدو طبيعيًا في الأولى يبدو غريبًا أو مضحكًا في الثانية.

ولم تكن المشكلة في اللغة وحدها.

بل في أنني كنت أفكر كرجل بالغ، بينما كان عليّ أن أتكلم كطفل صغير.

كنت أريد أن أقول جملة طويلة، فأجد نفسي عاجزًا عن ترتيب الكلمات كما ينبغي.

كنت أريد أن أشرح فكرة معقدة، فأكتشف أن مفرداتي الجديدة لا تكفي.

وكنت أريد، في بعض اللحظات، أن أعلّق تعليقًا ساخرًا على أحد تصرفات أبي، لكن لساني الصغير كان يخونني، فيخرج مني صوت غير مفهوم يجعل أمي تضحك بدلًا من أن تشعر بالإهانة.

مع ذلك، لم أكن مستاءً تمامًا.

فكل كلمة جديدة كانت تمنحني مساحة أوسع داخل هذا العالم.

وكل جملة أستطيع قولها كانت تجعلني أشعر بأن المسافة بيني وبين الآخرين تضيق قليلًا.

لم أعد مجرد طفل يبكي عندما يحتاج إلى شيء.

أصبحت طفلًا يستطيع أن يطلبه.

وربما كان هذا أول شكل من أشكال الحرية التي عرفتها في حياتي الثانية.

جدّي وجدّتي... اكتشاف متأخر للعائلة

لم تكن عائلتي الجديدة تتكون من سالفيا وفيكتور وحدهما، كما كنت أظن في البداية.

ففي أحد الأيام، أخبرني أبي بأن جدّي وجدّتي سيزوراننا.

جدّي وجدّتي؟

كان لديّ أقارب أيضًا؟

لا أعرف لماذا بدت الفكرة غريبة إلى هذا الحد. ربما لأن حياتي السابقة جعلتني أعتاد على أن تكون العلاقات العائلية معقدة، وأن تحمل الأسماء والمناصب معاني تتجاوز مجرد القرابة.

لكن هنا، كان الأمر مختلفًا.

كان هناك شخصان ينتميان إلى عائلتي، ويريدان رؤيتي لأنني حفيدهما.

لا أكثر ولا أقل.

حين وصل الاثنان، كنت جالسًا قرب أمي، أراقب الباب بفضول.

دخلت جدّتي أولًا.

كانت امرأة متقدمة في السن، لكن الزمن لم يسلبها جمالها. بل بدا لي، على نحو غريب، وكأنه أضاف إليه شيئًا لا يمكن للسنوات وحدها أن تصنعه.

كان في ملامحها هدوء ناضج، وفي عينيها بريق دافئ، وعلى وجهها خطوط رقيقة تحكي عن سنوات من الضحك والحزن والتجارب. أما ابتسامتها، فكانت تحمل ذلك النوع من الألفة الذي يجعل المرء يشعر بأنه يعرف صاحبها حتى لو رآه للمرة الأولى. كان جمالها من النوع الذي لا يختفي مع العمر، بل يتغير شكله ويصبح أعمق.

وكأنها خمر فاخر، أضافت السنوات إلى مذاقه ثراءً ورونقًا، بدلًا من أن تنتقص منهما.

اقتربت مني، وانحنت قليلًا لتصبح في مستواي، ثم ابتسمت.

«.إذن، هذا هو نيراس الصغير»

لمست خدي برفق، وأخذت تتأمل وجهي كما لو أنها تحاول حفظ كل تفصيل فيه.

«!كم كبرت»

كنت أبلغ من العمر ما يجعل هذه العبارة مضحكة قليلًا، لكنني فضلت ألا أعترض.

فأنا، على الأقل، لم أكن أحتاج إلى أن يشرح لي أحد كيف يبدو طفل في عمر صغير.

ثم دخل جدّي.

وهنا كانت المفاجأة الحقيقية.

كنت أتوقع رجلًا مسنًا، ضعيف الحركة، يعتمد على عصاه في السير، وربما يحتاج إلى مساعدة حتى يجلس على كرسيه.

لكن الرجل الذي دخل كان مختلفًا تمامًا.

نعم، كان كبير السن، وقد ظهرت آثار العمر على وجهه وشعره، إلا أن جسده ظل مفتول العضلات بصورة لافتة. كانت كتفاه عريضتين، وذراعاه تحملان قوة واضحة، كما أن وقفته كانت مستقيمة وثابتة، وكأن جسده لم يتلقَّ بعدُ رسالة مفادها أن السنوات قد مضت.

حتى خطواته كانت تحمل ثقة هادئة، لا تشبه حركات رجل يحاول إثبات قوته، بل حركات رجل يعرف جيدًا ما يستطيع جسده فعله.

حدقت فيه.

ثم نظرت إلى أبي.

ثم عدت إلى جدّي.

لحظة واحدة.

هل ورثت هذه العائلة عضلاتها مع اسمها؟

وهل هذا يعني أن عليّ أن أستعد لمستقبل رياضي شاق؟

اقترب جدّي مني، وانحنى قليلًا، ثم مد يده ليصافحني كما لو كنت رجلًا بالغًا.

«أنت نيراس، أليس كذلك؟»

نظرت إلى يده الكبيرة.

ثم إلى وجهه.

مددت يدي الصغيرة، وأمسكت بإصبعه بدلًا من مصافحته بالطريقة التي أرادها.

ضحك جدّي بصوت عميق.

«.حسنًا، يبدو أن لدينا رجلًا قويًا هنا»

قويًا؟

يا سيدي، أنا بالكاد أستطيع فتح علبة طعام بمفردي.

لكنني ابتسمت له، ويبدو أن تلك الابتسامة كانت كافية لإرضائه.

حملني بين ذراعيه، فشعرت بأنني انتقلت إلى مستوى أعلى من الأرض، ثم أخذ يتحدث إليّ بنبرة مرحة ويسألني إن كنت سأصبح قويًا مثله عندما أكبر.

كنت أراقب عضلات ذراعه، وأفكر في أنني سأحتاج إلى سنوات طويلة كي أصل إلى ذلك المستوى.

لكنني لم أشعر بالخوف.

بل شعرت بالفضول.

كان جدّي مختلفًا عن كل كبار السن الذين تخيلتهم من قبل. لم يكن يبدو وكأنه يقف عند نهاية الطريق، بل كرجل ما زال يملك الكثير ليقدمه، حتى لو كان قد قطع شوطًا طويلًا في حياته.

أما جدّتي، فقد جلست قربنا، وراحت تضحك كلما قال جدّي شيئًا طريفًا.

كان الاثنان يتبادلان النظرات والكلمات بطريقة جعلتني أشعر بأن بينهما حكاية طويلة، حكاية لا تحتاج إلى أن تُروى كاملة كي تظهر آثارها في التفاصيل الصغيرة.

كانت جدّتي تعرف متى يبالغ جدّي في الحديث عن قوته، وكان هو يعرف متى يبتسم لها كي تتوقف عن السخرية منه.

وفي تلك الزيارة، اكتشفت شيئًا آخر.

العائلة ليست مجرد أشخاص تربطك بهم الأسماء.

إنها أصوات تتعرف إليها مع الوقت، ووجوه تحفظها ذاكرتك، وأيدٍ تمتد نحوك دون أن تطلب منك شيئًا في المقابل.

لقد أصبح لديّ أب وأم.

والآن، جدّ وجدّة.

وكلما أضفت وجهًا جديدًا إلى هذه الحياة، شعرت بأن عالمي الصغير يتسع قليلًا.

لم أكن أعرف إن كنت سأستطيع يومًا أن أنسى العائلة التي تركتها خلفي، لكنني بدأت أفهم أن القلب ليس غرفة ضيقة لا تتسع إلا لعدد محدود من الأشخاص.

ربما يستطيع أن يحتفظ بالذكريات القديمة، وفي الوقت نفسه، يفتح الباب لذكريات جديدة.

وربما لم يكن ذلك خيانة للماضي.

بل استمرارًا للحياة.

زائر صغير... ومشكلة كبيرة

لكن دعوني أخبركم عن الحدث الذي غيّر شكل أيامي أكثر مما توقعت.

بدايته كانت عادية للغاية.

زيارة من الجيران.

لا جيش يقتحم المنزل، ولا مؤامرة سياسية، ولا روح زرقاء ترتدي بدلة سوداء وتقرر العبث بمصيري مرة أخرى.

مجرد زيارة عائلية بسيطة.

كنت قد بلغت الثالثة من عمري، وبدأت أتحرك بحرية أكبر، وأتكلم بجمل مفهومة، وأستكشف كل زاوية في المنزل كما لو أنني مالكه الشرعي.

حسنًا، من الناحية العملية، لم أكن أملك شيئًا.

لكنني كنت أتصرف كما لو أنني أملك المنزل، والشارع، وربما نصف المدينة.

وفي ذلك اليوم، جاء جيراننا لزيارة والديّ، وكان معهم طفل صغير.

حين دخلوا، كنت قريبًا من أمي، أستمع إلى حديث الكبار دون اهتمام كبير. لم تكن أحاديثهم تثير فضولي؛ فقد اعتدت على أن يتحدث البالغون طويلًا عن أشياء يستطيعون اختصارها في ثلاث جمل لو أرادوا.

لكن عندما رأيت الطفل، تغير الأمر.

كان صغيرًا، يتحرك بفضول، وينظر إلى الأشياء من حوله بعينين واسعتين. لم يكن يعرفني، ولم أكن أعرفه، ومع ذلك، وجدت نفسي أراقبه باهتمام.

كان يتحرك بطريقة عفوية، يقترب من شيء ثم يبتعد عنه، ويبتسم عندما يلفت أحدهم انتباهه.

ولسبب لم أستطع تفسيره في البداية، شعرت بالارتياح نحوه.

لم يكن الأمر متعلقًا بشيء فعله على وجه التحديد.

لم يقل كلمة مميزة، ولم يقدم نفسه بطريقة مثيرة للإعجاب، ولم يفعل أي شيء يمكن أن يجعلني أقرر، بعقلانية، أنه شخص يستحق اهتمامي.

ومع ذلك، كان هناك شيء في تصرفاته يجعلني أبتسم كلما نظرت إليه.

شيء مألوف.

شيء دافئ.

شيء جعلني أشعر بأنني رأيت هذه الروح من قبل، في مكان بعيد لا أستطيع العودة إليه.

راقبته وهو يقترب مني، ثم ينظر إلى اللعبة التي كنت أمسكها.

مد يده نحوها.

نظرت إلى اللعبة.

ثم إليه.

كان بإمكاني الاحتفاظ بها، بالطبع. لم يكن لديّ سبب حقيقي للتخلي عنها، خصوصًا أنني كنت قد قضيت وقتًا طويلًا في إقناع نفسي بأنها ملكي وأن أي شخص يحاول أخذها يحتاج إلى تصريح رسمي مني.

لكنني وجدت نفسي أمدها إليه.

أخذها، ثم ابتسم لي.

ابتسامة صغيرة، صادقة، لا تحمل أي حسابات.

ابتسامة طفل لم يتعلم بعد كيف يخفي مشاعره خلف الكلمات المهذبة أو النظرات الحذرة.

وفي تلك اللحظة، شعرت بشيء يتحرك في أعماقي.

شيء لم أكن مستعدًا له.

فقد رأيت تلك الابتسامة من قبل.

ليس في هذا العالم.

بل في حياة أخرى.

ذكرى من قصر ماركوس

كان القصر هادئًا في ذلك اليوم، أو هكذا بدا لي في البداية.

كنت طفلًا صغيرًا، قد بدأت لتوي أعتاد على التدريب الذي يفرضه عليّ الملك ماركوس. كنت أقضي ساعات طويلة في تعلم أساسيات القتال، وأحاول أن أوازن بين واجباتي في القصر وبين رغبتي في قضاء بعض الوقت بعيدًا عن الأوامر والتدريبات.

وكانت حياتي، رغم كل ما فيها من قسوة، لا تزال تحمل لحظات طفولة بسيطة.

في ذلك اليوم، كنت في إحدى ساحات القصر عندما رأيته للمرة الأولى.

آرثر.

لم يكن آرثر الذي عرفته لاحقًا؛ الفارس الذي يقف إلى جانبي في ساحات التدريب، والصديق الذي يستطيع تحويل أكثر المواقف خطورة إلى نكتة سيئة.

كان طفلًا مثلي، ينتمي إلى عائلة فرسان نبيلة، وقد جاء إلى القصر في زيارة برفقة أفراد من عائلته.

أتذكر أنه كان يتحرك بفضول، وينظر إلى كل شيء كما لو أنه يحاول اكتشاف سر مخفي خلف جدران القصر.

وحين التقت أعيننا، لم يبدُ عليه أي ارتباك.

بل اقترب مني مباشرة.

«هل أنت لوسين؟»

أومأت برأسي.

«.نعم»

نظر إليّ لحظة، ثم قال بجدية غريبة:

«.سمعت أنك تتدرب بالسيف كل يوم»

«.هذا صحيح»

عقد ذراعيه، وكأنه يستعد لإلقاء خطاب عظيم.

«إذن، هل تستطيع هزيمة عشرة أشخاص؟»

حدقت فيه.

«.لا أعرف. لم أجرب»

فكر قليلًا، ثم قال:

«.حسنًا، عندما أكبر، سأصبح قويًا بما يكفي لأقاتلك»

كان ذلك أول ما قاله لي.

لم يطلب أن نصبح صديقين، ولم يحاول إبهاري بنسبه أو بمكانة عائلته.
لقد قرر ببساطة أنني الشخص الذي يريد منافسته يومًا ما.

ثم، قبل أن أتمكن من الرد، ابتسم ومد يده نحوي.

«لكن إلى أن يحدث ذلك، هل تريد أن نلعب؟»

نظرت إلى يده.

ثم إلى وجهه.

كانت ابتسامته صادقة إلى درجة جعلتني أنسى، للحظة، أنني كنت قد قضيت الصباح كله أستمع إلى تعليمات المدربين.

صافحته.

ومنذ ذلك اليوم، بدأت صداقتنا.

لم يكن آرثر أفضل طفل في التصرف، ولم يكن أكثرنا حكمة، ولم يكن يمتلك قدرة سحرية على معرفة متى يصمت.

بل على العكس تمامًا.

كان يمتلك موهبة نادرة في قول الشيء الخطأ في الوقت الخطأ، ثم النظر إليّ بوجه بريء وكأن العالم هو الذي أساء فهمه.

ومع ذلك، أصبح أقرب أصدقائي.

الشخص الذي استطاع أن يجعلني أضحك حتى في الأيام التي كنت أشعر فيها بأنني محاصر داخل حياة لا تشبهني.

الشخص الذي وقف إلى جانبي عندما احتجت إلى من يفهمني دون أن أشرح له كل شيء.

الشخص الذي مات بين ذراعي، تاركًا خلفه كلمات أخيرة ما زالت تعيش في قلبي.

انتهت الذكرى، لكن أثرها بقي.

عدت إلى الحاضر، إلى منزل والديّ، وإلى الطفل الصغير الذي كان يقف أمامي ممسكًا بلعبتي.

كان يبتسم بالطريقة نفسها تقريبًا.

بالبراءة نفسها.

وبذلك الدفء الذي لم أكن أعلم أنني سأشتاق إليه بهذا القدر.

لم يكن آرثر.

كنت أعرف ذلك جيدًا.

لكنه جعلني أتذكره.

وجعلني أدرك أن بعض الأشخاص يتركون فينا أثرًا لا يمحوه الموت، حتى لو تغيّر العالم كله من حولنا.

رفيق درب جديد

ظللت أنظر إلى الطفل، بينما كان هو منشغلًا باللعبة التي أعطيته إياها.

كان يحركها بين يديه، ثم يرفع رأسه نحوي بين الحين والآخر، كأنه يتأكد من أنني ما زلت هنا.

وفجأة، وجدتني أبتسم.

لم تكن ابتسامة حزينة هذه المرة.

ولا ابتسامة رجل يحاول إخفاء جرح قديم.

كانت ابتسامة حقيقية، هادئة، خرجت مني دون أن أضطر إلى إجبار نفسي عليها.

شعرت بالدفء نفسه الذي شعرت به في حضن أمي، وبشيء يشبه الراحة التي وجدتها عندما احتضنني أبي بعد خطواتي الأولى.

لكن هذا الدفء كان مختلفًا.

لم يكن دفء العائلة.

بل دفء بداية صداقة.

شيء صغير، لم يتشكل بعد، لكنه كان يحمل في داخله وعدًا بأيام لم أعشها.

نظرت إلى يديّ الصغيرتين.

ثم إلى الطفل.

وفجأة، عادت إليّ كلمات آرثر الأخيرة.

أتمنى أن تجد صديقًا مقربًا آخر يومًا ما.

سمِّ ابنك الأول آرثر.

ومزّق ذلك الأمير الخائن إربًا.

توقفت عند العبارة الأخيرة في ذاكرتي.

حتى في لحظاته الأخيرة، لم يستطع ذلك الأحمق أن يتخلى عن أسلوبه.

كاد قلبي ينقبض من جديد، لكنني أخذت نفسًا هادئًا، ونظرت إلى الطفل الذي أمامي.

كان يضحك الآن، وقد رفع اللعبة فوق رأسه، ثم أسقطها على الأرض دون أن يدرك أنه فعل ذلك.
انحنى لالتقاطها، لكنه فقد توازنه وجلس على الأرض بدلًا من ذلك.

ثم نظر إليّ.

وبدأ يضحك.

ضحكت معه.

لم أستطع منع نفسي.

كان المشهد بسيطًا إلى حد السذاجة، لكنني شعرت بأن شيئًا في داخلي قد انفتح قليلًا.

ربما كان هذا ما أراده آرثر.

لم يكن يريدني أن أظل أسيرًا للحظة موته، ولا أن أعيش بقية حياتي وأنا أحمل ذنبي كما لو كان عقوبة لا تنتهي.

لقد أرادني أن أواصل السير.

أن أجد شخصًا آخر أستطيع أن أشاركه أيامي، وأن أضحك معه، وأن أختلف معه، وأن أعيش إلى جانبه دون أن أسمح للخوف من الفقد بأن يمنعني من الاقتراب.

لم أكن أستطيع أن أستبدل آرثر.

ولم أكن أريد ذلك أصلًا.

فبعض الأشخاص لا يمكن لأحد أن يأخذ مكانهم، مهما مر الزمن.

لكن ربما كان بإمكاني أن أفتح قلبي لشخص جديد، دون أن أشعر بأنني أخون ذكراه.

مددت يدي نحو الطفل، فاقترب مني، وأمسك بأصابعي الصغيرة.

كان يده دافئة.

نظرت إليه، وقلت في داخلي:

يبدو أنني وجدت رفيق درب جديدًا في هذه الحياة.

توقفت للحظة، ثم ابتسمت.

لا أعرف ماذا يخبئ لنا المستقبل، ولا أي نوع من الأشخاص سنصبح عندما نكبر.

لكنني أعدك بشيء واحد.

سأكون أفضل صديق لك.

سأقف إلى جانبك عندما تخاف، وسأضحك معك عندما تفرح، وسأساعدك عندما تتعثر.
وإذا جاء يوم حاول فيه العالم أن يؤذيك، فسأفعل كل ما أستطيع كي أحميك.

لم أكن أعرف بعد إن كان هذا الطفل سيصبح أقرب أصدقائي فعلًا، أم أن الحياة ستأخذنا إلى طرق مختلفة.

لكني كنت أعرف أنني لا أريد أن أكرر أخطاء الماضي.

في حياتي الأولى، تعلمت كيف أقاتل من أجل الآخرين.

لكنني لم أتعلم دائمًا كيف أفتح لهم باب قلبي دون خوف.

أما الآن، فقد كنت أملك فرصة جديدة.

ليس لمحو الماضي.

بل لأعيش بطريقة أفضل.

صداقة يراها الكبار

في الجهة الأخرى من الغرفة، كانت سالفيا تراقبنا بابتسامة دافئة.

اقترب فيكتور منها قليلًا، ونظر إلى الطفلين اللذين جلسا على الأرض، يتبادلان اللعبة ويضحكان لأسباب لا يستطيع الكبار فهمها.

قال بصوت منخفض:

«.يبدو أنهما انسجما بسرعة»

ابتسمت سالفيا.

«.نيراس لا يتصرف بهذه الطريقة مع كل الأطفال. عادةً ما يراقبهم طويلًا قبل أن يقترب منهم»

«.ربما وجد شخصًا يشبهه»

نظرت سالفيا إلى ابنها، الذي كان يحاول الآن أن يعيد اللعبة إلى يدي صديقه، ثم يضحك كلما سقطت منهما.

«.إنهما ظريفان للغاية»

اقترب أحد والدي الطفل الآخر، وتبادل معهما بعض الكلمات الودية، ثم نظر إلى الصغيرين.

«.يبدو أنهما سيكونان أعز الأصدقاء»

ضحك فيكتور.

«.إذا استمرا على هذا الحال، فقد نضطر إلى شراء لعبتين من كل شيء»

أما سالفيا، فهزت رأسها وهي تبتسم.

«.لا بأس. المهم أن يكونا سعيدين»

لم يسمع نيراس حديث الكبار كاملًا، ولم يكن مهتمًا كثيرًا بما يقولونه.

كان منشغلًا بطفل يجلس أمامه، وبابتسامة صغيرة تظهر على وجهه كلما التقت عيناهما.

كان يشعر بالدفء نفسه الذي عرفه عندما احتضنته أمه للمرة الأولى، وبالطمأنينة نفسها التي شعر بها عندما أمسك أبي بإصبعه بعد خطواته الأولى.

لكن هذه المرة، كان هناك شيء آخر.

أمل.

أمل صغير، لم يحتج إلى كلمات كبيرة كي يظهر.

نظر نيراس إلى صديقه الجديد، ثم مد يده نحوه مرة أخرى.

أمسك الطفل بيده.

وفي تلك اللحظة، ابتسم نيراس ابتسامة لم يرها أحد غيره كما ينبغي؛ ابتسامة طفل صغير، تخفي خلفها روح رجل عاش حياة كاملة، وفقد أعز أصدقائه، ثم مُنح فرصة ليبدأ من جديد.

لم يكن يعرف اسم المستقبل.

ولم يكن يعرف الطريق الذي ينتظرهما.

لكنه كان يعرف أن هذه المرة، حين يجد صديقًا يمشي إلى جانبه، سيحاول أن يحافظ عليه.

ليس لأنه يخشى الوحدة وحدها.

بل لأنه يعرف الآن كم يمكن للصداقة أن تجعل الحياة، بكل ما فيها من ألم وغموض، جديرة بأن تُعاش.

وهكذا، في منزل هادئ، وبين ضحكات طفلين لم يفهما بعد معنى الوعود، بدأت حكاية صداقة جديدة.

أما في قلب نيراس، فقد ظل وعده القديم حاضرًا.

لن أتركك تواجه العالم وحدك.

ليس ما دمت أستطيع الوقوف إلى جانبك.

وكان ذلك وعدًا قطعه هذه المرة، لا على قبر صديق رحل، بل أمام صديق بدأ لتوه رحلته معه.

الفصل الحادي عشر: حين يتعلم الفرسان أبجديات الحياة

لم أكن أتصور يومًا أنني سأجد نفسي جالسًا على مقعد صغير، أرتدي زيًّا مدرسيًّا، وأحدّق في سبورة كأنها ساحة معركة تنتظر مني اكتشاف أسرارها.

لكن ها أنا ذا.

نيراس، الطفل الذي يحمل في داخله ذكريات فارس عاش حياة كاملة، يجلس الآن في الصف الابتدائي، ممسكًا بقلم رصاص أقصر من أصابعه، بينما يحاول المعلّم شرح عملية حسابية بسيطة لطفل في السابعة من عمره.

...يا للسخرية

في حياتي السابقة، كنت أحلّ مسائل عسكرية تتعلق بحركة آلاف الجنود، وأضع خططًا قد تحدّد مصير مملكة بأكملها. أمّا الآن، فعليّ أن أقاوم رغبة ملحّة في إخبار المعلّم بأن نقل ثلاثة تفاحات من سلة إلى أخرى لا يستحق كل هذا القلق.

ومع ذلك، لم أكن أكره الأمر.

على العكس تمامًا.

كان في هذا العالم شيء لم أعرفه في حياتي السابقة؛ شيء جعلني أجد متعة غريبة في الجلوس داخل فصل دراسي، والاستماع إلى شرح معلّم لا يهدّدني بإرسالي إلى ساحة التدريب إذا أخطأت في الإجابة.

في ذلك العالم، كان التعليم مختلفًا تمامًا.

تعلّمت منذ طفولتي الأولى أن المعرفة سلاح، وأن الجهل قد يقتل صاحبه قبل أن تصل إليه سيوف الأعداء. كانت دراستي في القصر قائمة على الانضباط الصارم، والتاريخ السياسي، والاستراتيجيات العسكرية، وفنون القتال، وآداب البلاط. كل خطأ كان فرصة لتوبيخ جديد، وكل نجاح كان يعني أن سقف التوقعات سيرتفع أكثر.

لم يكن أحد يسألني إن كنت أستمتع بما أتعلمه.

كان السؤال الوحيد: هل أصبحت أفضل من الأمس؟

أمّا هنا، فقد وجدت عالمًا آخر.

أطفال يتعلمون القراءة من خلال القصص، وآخرون يرسمون أشكالًا ملوّنة على أوراق بيضاء، ومعلّمون يحاولون تحويل الأرقام والحروف إلى ألعاب صغيرة. لم يكن كل شيء مثاليًّا بالطبع، لكنني شعرت بأن الدراسة هنا تمنح الطفل فرصة لاكتشاف العالم قبل أن تطالبه بمواجهته.

كنت أحب حصص القراءة أكثر من غيرها؛ فالقصص تمنحني فرصة نادرة للهروب إلى عوالم لم أعشها، بدلًا من إعادة استحضار العالم الذي فقدته.

كما أحببت حصص الرياضيات، لا لأنها صعبة، بل لأنني كنت أستمتع بمشاهدة المعلّم وهو يحاول فهم السبب الذي يجعل طفلًا في عمري ينهي التمارين قبل زملائه بوقت طويل.

كنت أتعمد أحيانًا التمهّل حتى لا أثير الشكوك.

حسنًا، كنت أتعمد ذلك معظم الوقت.

لكن المشكلة الحقيقية لم تكن في الدراسة.
بل في صديقي المقرّب، أشين.

ذلك الفتى كان كارثة صغيرة تسير على قدمين.

في صباح يومي الأول، وقفت أمام المرآة بينما كانت أمي، سالفيا، تعدّل ياقة قميصي المدرسي. كان أبي، فيكتور، يجلس بالقرب من الباب، يحتسي قهوته بهدوء، ويتابعني بنظرات تحمل مزيجًا من الفخر والقلق.

قالت أمي وهي تمسح خصلة من شعري الأسود عن جبيني:

«.انظر إليك يا نيراس! لقد كبرت بسرعة. بالأمس فقط كنت أحملك بين ذراعي، واليوم ستذهب إلى المدرسة»

نظرت إليها من خلال المرآة.

«.أمي، لقد أخبرتني بهذا ثلاث مرات منذ استيقظت»

وضعت يدها على صدرها متظاهرة بالألم.

«أوه! وهل أصبحت أزعجك الآن؟»

استدرت نحوها بسرعة.

«!لا! لا، لم أقصد ذلك»

ضحكت، ثم انحنت وقبّلت جبيني.

«.أعرف يا صغيري»

تدخل أبي أخيرًا، ووضع فنجانه على الطاولة.

«.حسنًا يا بطل، تعال إلى هنا للحظة»

اقتربت منه، فجلس على ركبتيه حتى أصبح في مستوى عينيّ. كان شعره الأسود مرتبًا كعادته، وعيناه الداكنتان تحملان ذلك الهدوء الذي لطالما جعلني أشعر بأن لا شيء في العالم يمكن أن يفاجئه.

قال بصوت جاد، لكنه لم يخلُ من الحنان:

«.أريدك أن تتذكر أمرين اليوم»

رفعت رأسي باهتمام.

«.الأول، أن تستمع إلى معلّمك، وتحترم زملاءك، ولا تتصرف وكأنك تعرف كل شيء»

توقفت عيناه عند وجهي للحظة.

كان ذلك التوقف كافيًا ليجعلني أدرك أنه يعرفني أكثر مما ينبغي.

والثاني؟» سألت».

«.إذا واجهت أحدًا يتنمر عليك، فلا تسمح له بإهانتك أو إيذائك. لكن إياك أن تكون أنت من يبدأ الشجار»

أومأت برأسي.

تابع أبي:

«لا تستخدم قوتك لإثبات أنك أقوى من الآخرين. وإذا استطعت حل المشكلة بالكلام، فافعل. وإذا اضطررت إلى الدفاع عن نفسك، فافعل ما يلزم لتوقف الأذى، لا لتنتقم.»

صمت قليلًا، ثم ابتسم ابتسامة خفيفة.

«.تذكّر يا بني: لا تكن الشخص الذي يشعل النار، لكن إذا أشعلها أحدهم في وجهك، فلا تقف متفرجًا حتى تحترق»

نظرت إليه بإعجاب.

يا إلهي، كم كان هذا الرجل يجيد الكلام أحيانًا!

لو سمعه أحد فرسان مملكتي القديمة، لظن أنه قائد عسكري يلقي خطابًا قبل معركة مصيرية.

قلت بجدية:

«.فهمت يا أبي»

ربّت على كتفي.

«.جيد. أريدك أن تعود إلى المنزل وأنت تحمل ذكريات جميلة، لا شكاوى من المدير»

ابتسمت له.

«.سأحاول»

رفع حاجبه.

«.حاول بجدية»

«.حسنًا»

ثم نهض، وأشار نحو الباب.

«.هيا، لا أريد أن تتأخر في أول يوم لك»

غادرت المنزل مع أمي، بينما بقيت كلمات أبي تتردد في ذهني.

لا تبدأ الشجار.

حسنًا يا أبي.

لن أبدأه.

لكنني لم أعدك بأنني سأدع أحدًا ينهيه كما يشاء.

كان الطريق إلى المدرسة مليئًا بالأصوات والحركة. أطفال يسيرون برفقة آبائهم، وحقائب صغيرة تتأرجح على ظهورهم، وأمهات يوصين أبناءهن بتناول وجباتهم وعدم نسيان زجاجات الماء.

أما أنا، فكنت أراقب المشهد بصمت.

كان الأمر غريبًا بصورة جميلة.

في حياتي السابقة، كانت بداية يوم جديد في القصر تعني تدريبات شاقة أو درسًا طويلًا أو اجتماعًا مع الملك. أمّا هنا، فكان الأطفال يتذمرون من الاستيقاظ المبكر، ويتجادلون حول من سيجلس بجانب النافذة، ويتباهون بأقلامهم الجديدة وكأنهم حصلوا على كنز أسطوري.

وبصراحة، كان ذلك أفضل من نصف الاجتماعات التي حضرتها في حياتي السابقة.

حين وصلت إلى المدرسة، وجدت الساحة تعجّ بالأطفال. بعضهم كان يركض في كل اتجاه، وبعضهم تشبّث بأيدي والديه، بينما وقف آخرون أمام البوابة بوجوه شاحبة وكأنهم يُساقون إلى حكم بالإعدام.

ثم سمعت بكاءً من جهة المدخل.

كان طفل صغير يرفض ترك ساق أبيه، ويصرخ بأنه لا يريد الدخول.

اقتربت منه معلّمة، وحاولت تهدئته، لكن الطفل ازداد تمسكًا بوالده.

راقبت المشهد، ثم تمتمت:

«.لو كان التدريب العسكري في مملكتي القديمة يبدأ بهذه الطريقة، لاحتجنا إلى جيش كامل من المربّيات»

سمعت ضحكة بجانبي.

«أنت تتحدث مع نفسك مجددًا، أليس كذلك؟»

التفتّ.

وهناك كان أشين.

شعره غير المرتب، وابتسامته الواثقة، وعيناه اللتان تحملان ذلك البريق المشاكس... للحظة، شعرت بأن الزمن يسخر مني عمدًا.

لم يكن يشبه آرثر في ملامحه تمامًا، لكنه كان يشبهه في شيء أعمق؛ في طريقته في الوقوف وكأنه لا يعرف الخوف، وفي ابتسامته التي تسبق المصائب، وفي تلك الطاقة الغريبة التي تجعلك تشعر بأنه قادر على تحويل أكثر الأيام مللًا إلى فوضى لا تُنسى.

كان آرثر كذلك.

يبتسم أولًا، ثم يفكر في العواقب لاحقًا.

وأحيانًا لا يفكر فيها مطلقًا.

قال أشين وهو يقترب مني:

«ما الأمر؟ هل تخاف من المدرسة؟»

نظرت إليه ببرود.

«أخاف؟ أنا؟»

«.أجل. يمكنك أن تخبرني. لن أضحك عليك»

«.أنت تضحك الآن»

«.لأن وجهك مضحك»

تنهدت.

يا للروعة.

لم يمضِ وقت طويل على بداية حياتي الجديدة، وقد وجدت نسخة أخرى من آرثر مستعدة لإفساد سلامي النفسي.

قلت له:

«.إذا واصلت الكلام، فسأخبر المعلّمة أنك أكلت الحلوى التي أحضرتها أمك لك قبل أن تصل إلى المدرسة»

اتسعت عيناه.

«!كيف عرفت؟»

نظرت إليه بصمت.

ثم نظرت إلى يديه.

كان يمسك بقطعة حلوى صغيرة، وعلى طرف فمه أثر واضح من الشوكولاتة.

أغمض عينيه لحظة، ثم التهم ما تبقى منها بسرعة.

«.لم ترَ شيئًا»

ضحكت رغمًا عني.

لم أكن أعرف إن كان أشين يشبه آرثر حقًّا، أم أنني كنت أبحث عن صديقي القديم في كل وجه جديد أقابله.

لكنني كنت أعرف أمرًا واحدًا.

وجوده بجانبي جعل هذا العالم يبدو أقل غرابة.

وحين رنّ الجرس، دخلنا الفصل مع بقية الأطفال.

كانت الفصول أكثر إشراقًا مما توقعت. نوافذ واسعة تسمح لضوء الشمس بالتسلل إلى الداخل، وستائر تتحرك برفق مع الهواء، ومقاعد صغيرة مرتبة أمام سبورة كبيرة. على الجدران عُلّقت رسومات ملوّنة وحروف وأرقام، وفي زاوية الفصل رفّ مليء بالقصص المصوّرة.

اخترت مقعدًا قرب النافذة.

لم أكن أريد الجلوس في الخلف حتى لا أبدو كأنني أهرب من الدرس، ولم أكن أريد الجلوس في الأمام حتى لا أضطر إلى الإجابة عن كل سؤال.

حلّ وسط مناسب.

جلس أشين بجانبي، وألقى حقيبته على الطاولة.

«.أراهن أنك ستصبح الطالب المفضّل لدى المعلّمة»

«.وأنا أراهن أنك ستصبح سببًا في إصابتها بالصداع»

ابتسم بفخر.

«.إذن نحن فريق مثالي»

قبل أن أجيبه، دخلت المعلّمة ورحبت بنا. بدأت تطلب من الأطفال التعريف بأنفسهم، واحدًا تلو الآخر.

كان بعضهم يتحدث بحماس عن ألعابه المفضّلة، وبعضهم يخبرنا عن حيواناته الأليفة، بينما وقف طفل صغير أمام الفصل عاجزًا عن الكلام، حتى احمرّ وجهه وعادت الدموع تتجمع في عينيه.

لم يسخر منه أحد، بل ساعدته المعلّمة على العودة إلى مقعده، وأخبرته بأنه يستطيع المحاولة مرة أخرى حين يشعر بالاستعداد.

راقبت ذلك باهتمام.

في عالمي القديم، كان التردد يُعامل أحيانًا كعلامة ضعف، وكان على الطفل أن يتعلم إخفاء خوفه قبل أن يتعلم فهمه.

أما هنا، فقد رأيت معلّمة تمنح طفلًا الوقت الذي يحتاج إليه دون أن تجعله يشعر بأنه أقل من الآخرين.

ابتسمت دون أن أشعر.
ربما لم يكن هذا العالم مثاليًّا، لكنه منحني فرصة لأرى أشياء لم أعرفها من قبل.

ومع مرور الساعات، وجدت نفسي أستمتع بالدروس فعلًا. حتى حصة الرسم، التي ظننت في البداية أنها مضيعة للوقت، جعلتني أكتشف أن استخدام الألوان أكثر صعوبة مما يبدو.

رسمت قلعة.

ثم أضفت إليها سورًا دفاعيًّا، وبرج مراقبة، وممرًّا جانبيًّا للهروب.

حدّقت المعلّمة في الورقة طويلًا.

«يا نيراس، لماذا وضعت كل هذه الجدران حول القلعة؟»

أجبت بعفوية:

«.لأن المدخل الرئيسي نقطة ضعف واضحة»

ساد الصمت.

نظر أشين إلى الرسم، ثم إليّ، ثم رفع يده.

«.معلّمة! أعتقد أن نيراس يحتاج إلى اللعب أكثر»

أدرت رأسي نحوه ببطء.

سأجعلك تندم على هذا يا أشين.

ابتسم لي ابتسامة بريئة، تلك الابتسامة التي كان آرثر يستخدمها قبل أن يورطني في مشكلة.

يا إلهي، لقد اشتقت إلى ذلك الأحمق.

لم أكن أعرف أن أجمل ما في ذلك اليوم سينتهي قبل انصرافنا بقليل.

كنت أسير في الممر برفقة أشين، حين سمعت صوت بكاء خافتًا يأتي من قرب أحد الجدران.

توقفت.

لم يكن البكاء مرتفعًا، بل كان من ذلك النوع الذي يحاول صاحبه إخفاءه عن الجميع، وكأنه يخجل من أن يراه أحد ضعيفًا.

التفتُّ نحو مصدر الصوت.

كانت هناك فتاة صغيرة تقف بالقرب من النافذة، تخفض رأسها وتمسح دموعها بظهر يدها. كان شعرها بنيًّا ناعمًا، يتدلّى حول وجهها، وقد ربطت بعض خصلاته برباطات شعر ملوّنة.

كانت تُدعى فريسيا.

عرفت اسمها لأننا كنا في الفصل نفسه، ولأنها كانت من الأطفال الذين يشكرون المعلّمة كلما ساعدتهم، ويعيدون الأقلام التي يجدونها على الأرض إلى أصحابها، ويبتسمون حتى لمن لا يبادلهم الابتسامة.

كانت طيبتها واضحة في أبسط تصرفاتها؛ من الطريقة التي تتحدث بها إلى الطريقة التي تفسح بها المجال لغيرها، حتى حين لا يكون هناك سبب يدعوها إلى ذلك.

والآن، كانت تبكي وحدها.

أمامها وقف فتى من صفّنا، يشير إلى شعرها ويضحك.

«هل اشتراها لك أبوك؟» سأل ساخرًا. «إنها تبدو سخيفة! هل ظننتِ أنك ستصبحين أميرة بهذه الأشياء؟»

شدّت فريسيا يديها الصغيرتين حول حقيبتها.

«.إنها جميلة... أبي هو من اشتراها لي»

ضحك الفتى أكثر.

«!إذن فأبوك لا يعرف اختيار الأشياء الجميلة»

ارتجفت شفتاها، وانهمرت دموعها من جديد.

شعرت بشيء بارد يستقر في صدري.

لم يكن الأمر مجرد غضب من فتى يسخر من فتاة. لقد رأيت هذا النوع من القسوة من قبل، وإن اختلفت الوجوه والملابس.

في حياتي السابقة، كنت فارسًا. تعلمت أن القوة ليست مجرد القدرة على إسقاط خصمك، بل مسؤولية تجاه من لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم.

ولم أكن أنوي أن أرى شخصًا يبكي أمامي وأتظاهر بأنني لم أسمع شيئًا.

خطوت إلى الأمام.

لكن أشين أمسك بطرف كمي.

«نيراس، ماذا تفعل؟»

أجبته دون أن أرفع عيني عن الفتى:

«.شيء ينبغي أن يحدث»

«.أبيك قال ألا تبدأ الشجار»

نظرت إليه للحظة.

«.أتذكر ذلك جيدًا»

ثم تقدمت حتى وقفت بجانب فريسيا.

رفع الفتى رأسه نحوي، وقد بدا منزعجًا لأنني قاطعت تسليته.

«ماذا تريد؟»

نظرت إلى رباطات الشعر، ثم إليه.

«.أريد أن أفهم شيئًا»

رفع ذقنه بتحدٍّ.

«ماذا؟»

قلت بهدوء:

«.على الأقل، والداها ما زالا معًا»

توقفت ابتسامته.

وتوقف أشين عن التنفس لثانية.

أما أنا، فكنت أعرف أنني ألقيت عملة في الهواء، ولم أكن أعرف أي وجه سيظهر.

كانت منطقتنا تعاني ارتفاعًا ملحوظًا في معدلات الطلاق. ولم أكن أعرف شيئًا عن عائلة هذا الفتى، لكنني راهنت على أن كلماتي ستصيب موضعًا حساسًا لديه.

كانت فرصة نجاح المزحة خمسين في المئة.

وفشلها خمسين في المئة.

وللأسف، لم تكن لديّ موهبة المقامرة.

تغيّر وجه الفتى فجأة، واختفت ملامح التحدي عنه. انخفضت عيناه، وارتجفت شفتاه، ثم بدأ يبكي.

بصراحة، لم أتوقع أن يتأثر بهذه السرعة.

وقفت أحدّق فيه، وأنا أحاول استيعاب ما حدث.

لقد كنت أستعد لجدال، لا لمشهد بكاء جديد!

لكن الفتى رفع رأسه فجأة، وكانت عيناه حمراوين من الدموع.

«!أنت... أنت لا تعرف شيئًا»

ثم اندفع نحوي وضربني بقبضته.

أو حاول ذلك على الأقل.

أملت رأسي قليلًا، فمرت قبضته بجانب وجهي.

تراجع، ثم حاول ضربي مرة أخرى، لكنني تحركت خطوة إلى الجانب، فتعثرت قدماه في الفراغ.

كانت حركاته واضحة تمامًا.

كتابه مفتوح أمامي، وكل صفحة فيه تحمل الحركة التالية.

لم أحتج إلى استخدام قوتي. كنت أراقب كتفيه، واتجاه نظره، والطريقة التي ينقل بها وزنه قبل أن يهاجم. كل ذلك كان يخبرني بما سيفعله قبل أن يفعله.

حاول توجيه ضربة أخرى، فتراجعت خطوة.

ثم خطوة ثانية.

كنت أستطيع إسقاطه بسهولة، لكنني لم أرد ذلك.

لقد أخطأت حين استخدمت ألمه المحتمل للسخرية منه. لم يكن من العدل أن أحوّل جرحًا لا أعرفه إلى سلاح، حتى لو كان هو من بدأ بإيذاء الآخرين.

لكن ذلك لا يبرر محاولته ضربي، ولا ما فعله بفريسيا.

«.اهدأ»، قلت له. «لن أضربك»

«!اصمت»

اندفع نحوي للمرة الرابعة.

وفي اللحظة التي حاول فيها توجيه قبضته، ظهر أشين من جانبي كأنه خرج من العدم.

باك!

أصابته لكمة مباشرة أسقطته على الأرض.

تجمّد كل شيء.

نظرت إلى الفتى الممدّد على الأرض، ثم إلى أشين الذي وقف أمامي، يده مرفوعة قليلًا، وملامحه تجمع بين الغضب والفخر.

ثم التفت إليّ.

«كنت ستدع هذا الأحمق يضربك طوال اليوم؟»

رمشت بعيني.

«.كنت أحاول تهدئته»
«بوجهك؟»

«.كنت أتفادى ضرباته»

«!أجل، لاحظت ذلك. كنت تتحرك كأنك ترقص»

نظرت إلى قبضته، ثم إلى الفتى الذي بدأ ينهض وهو يبكي.

«وأنت قررت أن ترقص بقبضتك؟»

ابتسم أشين.

«.كانت رقصة قصيرة»

لم أتمالك نفسي، فضحكت.

لكن ضحكتي توقفت حين رأيت فريسيا تقف خلفنا، تمسح دموعها بصمت. كانت تنظر إلينا بدهشة، وكأنها لم تصدق أن أحدًا قرر الوقوف إلى جانبها.

التفتُّ إليها، وخفّضت صوتي.

«هل أنت بخير؟»

أومأت برأسها ببطء.

«.نعم... شكرًا»

نظرت إلى رباطات شعرها.

«.إنها جميلة»

رفعت عينيها نحوي.

«حقًّا؟»

«.بالطبع. لو لم تكن جميلة، لما أثارت كل هذا الاهتمام»

ابتسمت ابتسامة صغيرة، رغم بقايا الدموع على خديها.

أما أشين، فاقترب مني وهمس:

«هل هذه طريقتك في مواساة الناس؟»

همست بدوري:

«هل تريدني أن أتركك تجرب؟»
رفع يديه مستسلمًا.

«.لا، شكرًا. أنا أحب رباطات الشعر كما هي»

لم تمرّ دقائق طويلة حتى استدعانا المدير إلى مكتبه.

كنت جالسًا على أحد الكرسيين أمام مكتبه، وإلى جانبي أشين، بينما جلس الفتى الآخر في الطرف المقابل. كان لا يزال يمسح وجهه بكمّ قميصه، وينظر إلينا من حين إلى آخر بنظرات غاضبة ومصدومة.

أما أنا، فكنت أحاول ترتيب أفكاري.

لم أبدأ الشجار، لكنني أطلقت مزحة قاسية.

لم أضربه، لكن أشين فعل.

وفريسيا كانت تبكي، وهو ما يعني أن الأمر لن ينتهي بمجرد اعتذار بسيط.

تنهدت في داخلي.

أبي، يبدو أنني سأعود إلى المنزل ومعي شكوى بعد كل شيء.

في مكان آخر، كان فيكتور يجلس خلف مكتبه، منهمكًا في مراجعة أوراق قضية تشغله منذ أيام.

كان مكتبه مرتبًا، وأمام النافذة تتسلل أشعة الشمس إلى الغرفة، بينما انشغل هو بقراءة التفاصيل الصغيرة التي قد تغيّر مسار القضية. كان من النوع الذي لا يحب أن يقطع عمله أحد دون سبب مقنع؛ فحين يركّز على أمر، يصعب انتزاع انتباهه منه.

طرقت امرأة الباب، ثم دخلت وهي تحمل ملفًّا.

«.فيكتور، هناك من يتصل»

لم يرفع عينيه عن الأوراق.

«.أنت تعرفين أنني لا أحب المكالمات حين أكون منهمكًا في العمل»

اقتربت المرأة من المكتب، وقالت بنبرة تحمل شيئًا من التسلية:

«.أعرف. لكن هذه المكالمة من المدرسة»

توقفت يده عن تقليب الأوراق.

رفعت المرأة حاجبها.

«.يبدو أن ابنك في مشكلة»

ظل فيكتور صامتًا لثانيتين.

ثم رفع رأسه ببطء.

«ابني؟»

«.نعم»

حدّق فيها كأنها أخبرته أن الشمس قررت أن تشرق من الغرب.

«.مستحيل. ابني فتى راقٍ»

ابتسمت المرأة.

«.أجل، يبدو أن الرقيّ لا يمنع المشكلات المدرسية»

مدّ فيكتور يده نحو الهاتف، والتقط السماعة، ثم قال بصوته الهادئ:

«.مرحبًا»

جاءه صوت المدير من الطرف الآخر، متوترًا قليلًا.

«.مرحبًا، سيد فيكتور. أتصل بك بخصوص سلوك ابنك اليوم»

أغمض فيكتور عينيه لحظة، وكأنه يستعد لسماع خبر مزعج.

«ما الذي حدث؟»

«.لقد تسبب ابنك في بكاء أحد التلاميذ، بينما قام صديقه بلكم التلميذ وإسقاطه أرضًا»

ساد صمت طويل.

طويل بما يكفي لتشعر المرأة الواقفة بجانب المكتب بالفضول.

ثم رفع فيكتور يده إلى وجهه، وفرك جسر أنفه بإبهامه وسبابته.

«.أحح... أشين»

لم يستطع المدير إخفاء ارتباكه.

«عفوًا؟»

«.لا شيء. المهم، لديّ سؤال واحد»

«.تفضل، سيد فيكتور»
قال فيكتور بجدية تامة:

«هل بدأ ابني الشجار، أم أنه أنهاه؟»

تردد المدير قليلًا.

حسنًا... وفقًا لما سمعته من الأطفال، فإن ابنك لم يبدأ الشجار، لكنه سخر من التلميذ، ثم حاول التلميذ ضربه، وكان صديقه هو من» «.وجّه اللكمة

قاطع فيكتور كلامه فورًا:

«.إذن، ليست هذه مشكلتي»

تجمدت المرأة في مكانها.

أما المدير، فبدا وكأنه لم يسمع الجملة على نحو صحيح.

«!لكن، سيد فيكتور، لا يمكننا تجاهل ما حدث»

استند فيكتور إلى كرسيه، وقال بنبرة هادئة للغاية:

«يا سيدي، أنا لا أشجع ابني على السخرية من الآخرين، وسأتحدث معه بشأن ذلك. لكنني لن أوبّخه لأنه لم يقف متفرجًا بينما يحاول أحدهم الاعتداء عليه.»

ثم أضاف:

«أما صديقه، فسأترك لكم مسألة تفسير سبب وجود قبضة طفل على وجه طفل آخر.»

رفعت المرأة يدها إلى فمها لتخفي ابتسامتها.

تابع فيكتور:

«وكما يقول المثل، من جلبها لقدميه، فالعصا إليه.»

«ـــلكن»

«مع السلامة يا سيد المدير.»

وأغلق الهاتف.

ببساطة.

بهدوء.

وبلا أدنى شعور بالذنب.

ظل فيكتور يحدّق في السماعة لثانية، ثم أعادها إلى مكانها، وعاد إلى أوراقه كأن شيئًا لم يحدث.

نظرت إليه المرأة بدهشة.

«هل انتهيت من المكالمة بهذه السرعة؟»

أجاب وهو يقلب الصفحة:

«لقد أخبرني أن ابني لم يبدأ الشجار.»

«!لكنه سخر من طفل آخر»

توقفت يده للحظة.

«وهذا أمر سأناقشه معه حين يعود إلى المنزل.»

ثم أضاف ببرود:

«أما أشين... فذلك الطفل يحتاج إلى محادثة منفصلة مع والديه.»

لم تتمالك المرأة نفسها، فضحكت.

«أنت تعرف أن هذا لن ينتهي هنا، أليس كذلك؟»

رفع فيكتور عينيه إليها.

«.بالطبع أعرف»

ثم عاد إلى عمله.

لكنني أفضّل أن أعرف أن ابني ارتكب خطأً في محاولة الدفاع عن نفسه، على أن أكتشف أنه تعلّم الوقوف متفرجًا حين يحتاج» «.أحدهم إلى المساعدة

لم يكن المدير قد أغلق الهاتف بعد حين عاد الصمت إلى مكتبه.

كنت جالسًا أمامه، وأشين إلى جانبي، والفتى الآخر في المقابل. لم نكن نعرف تفاصيل المكالمة كاملة، لكننا سمعنا ما يكفي.

كان صوت أبي واضحًا تمامًا عبر السماعة.

واضحًا بما يكفي لأفهم أنه لن يعتذر عني لمجرد أن المدير اتصل به.

وواضحًا بما يكفي لأشعر بأنني أريد أن أدفن وجهي بين يديّ وأضحك في الوقت نفسه.

وضعت يدي على فمي، محاولًا كبح ضحكتي.

لم أكن أريد أن أبدو وقحًا أمام المدير، لكن عبارة «ابني فتى راقٍ» كانت تتردد في رأسي بلا رحمة.

أما أشين، فكان ينظر إلى التلميذ الآخر بابتسامة عريضة، وكأنه فاز في معركة تاريخية.

مال نحوه قليلًا، وقال:

«.أرأيت؟ هذا ما يعنيه أن يكون لك أب»

رفع الفتى رأسه نحوه، وقد بدا مصدومًا إلى درجة أنه نسي البكاء للحظة.

«ماذا؟»

أجاب أشين بفخر:

«.أب يقف إلى جانب ابنه»

ثم أشار إلى نفسه.

«.وأنا أيضًا لديّ أب، بالمناسبة»

كدت أختنق من الضحك.

يا لهذا الأحمق!

كان المدير قد استنفد ما يكفي من الصبر خلال الدقائق الماضية، فضرب سطح مكتبه بيده.

«!كفى»

استقام أشين في جلسته فورًا، بينما حاولت استعادة ملامحي الجادة.

نظر المدير إلينا واحدًا تلو الآخر، ثم قال بنبرة لا تقبل النقاش:

«.عودوا إلى فصولكم. وسأتحدث مع كل واحد منكم على حدة بشأن ما حدث»

نهضنا من مقاعدنا.

وقبل أن نخرج، التفتُّ نحو الفتى الذي حاول ضربي.

ترددت لحظة، ثم قلت:

«.لم يكن ينبغي لي أن أسخر منك بشأن عائلتك. أنا آسف على ذلك»

نظر إليّ بصمت.

لم يعتذر هو، ولم أطلب منه أن يفعل. لم تكن الأمور بهذه البساطة، ولم يكن اعتذاري يعني أن ما فعله بفريسيا أصبح مقبولًا.

لكنني كنت أعرف أنني تجاوزت حدًّا لم يكن ينبغي لي تجاوزه.
خرجنا من المكتب، وكان أشين يسير إلى جانبي ويداه خلف رأسه.

إذن، ماذا تعلّمنا اليوم؟» سألني».

نظرت إليه.

«.أنك تضرب الناس أسرع مما تفكر»

ضحك.

«.خطأ. تعلّمت أن والدك يستطيع إنهاء مشكلة كاملة بمكالمة هاتفية»

هززت رأسي.

«.وأنت تعلّمت أنني أستطيع تفادي أربع لكمات قبل أن تتدخل»

«.خمس»

«.أربع»

«.كنت سأضربه بعد الخامسة»

«.هذا ليس إنجازًا»

ابتسم ابتسامة عريضة.

«.بالنسبة إليّ، هو إنجاز»

واصلنا السير في الممر، وأصوات الأطفال تتردد حولنا من الفصول المجاورة. كان يومي الأول قد انتهى بطريقة لم أتوقعها، ومع ذلك، لم أشعر بالندم على تدخلي حين رأيت فريسيا تبكي.

فقد كنت قد قطعت وعدًا في حياتي السابقة.

وعدًا لصديق رحل وهو يطلب مني ألا أسمح للعالم بأن يجعلني وحيدًا مرة أخرى، وألا أتخلى عن الأشخاص الذين يمكن أن يصبحوا أعزاء عليّ.

لم أستطع إنقاذ آرثر.

ولم أستطع تغيير النهاية التي عرفتها في ذلك العالم.

لكنني كنت أستطيع أن أختار ما أفعله في هذا العالم.

أن أكون أفضل من أخطائي، حتى حين أرتكبها.

أن أتعلم كيف أدافع عن الآخرين دون أن أجرحهم بكلماتي.

وأن أتذكر أن الفروسية لا تبدأ حين يحمل المرء سيفًا، ولا تنتهي حين يضعه جانبًا.

أحيانًا، تبدأ الفروسية بطفل يرى فتاة تبكي، فيقرر ألّا يواصل السير وكأنه لم يرَ شيئًا.

وأحيانًا، تنتهي الحكاية بلكمة واحدة من صديق لا يعرف متى يتوقف.

نظرت إلى أشين.

«.على فكرة، سأخبر أباك بما فعلت»

اختفت ابتسامته في لحظة.

«نيراس... يا صديقي العزيز، نحن أخوان، أليس كذلك؟»

ابتسمت له.

«.بالطبع»

«إذن، لن تخبره؟»

«.سأخبره بكل التفاصيل»

توقف في مكانه، وحدّق بي بخيانة مصطنعة.

«!لقد وثقت بك»

واصلت السير وأنا أضحك.

«.كان ينبغي أن تفكر في ذلك قبل أن تستخدم قبضتك بدلًا من عقلك»

لحق بي وهو يحتج، وانطلقنا معًا نحو الفصل.

لم أكن أعرف ما الذي تخبئه لي هذه الحياة الجديدة، ولا إن كنت سأتمكن يومًا من نسيان الحياة التي فقدتها.

لكنني كنت أعرف شيئًا واحدًا.

هذه المرة، لم أكن أسير وحدي.

وكان ذلك، بالنسبة إلى فارسٍ دفن صديقه بيديه، بدايةً تستحق أن يعيش من أجلها.

الفصل الثاني عشر: ألعاب، عقوبات، ووليمة لا تنتهي

لو سألني أحدهم عن أكثر ما تغير في حياتي الجديدة، فلن أقول إنني ولدت من جديد، أو إنني حصلت على عائلة تمنحني الحب الذي افتقدته في حياتي السابقة، أو حتى إنني اكتشفت عالمًا تتجاوز فيه الآلات حدود ما كنت أعدّه ممكنًا. بل سأقول إنني اكتشفت أن الذهاب إلى المدرسة أصعب مما توقعت، وأن تكوين الصداقات يحتاج إلى صبر يفوق صبر القادة في ساحات الحروب، وأن بعض الجدات يمتلكن قدرات مرعبة لا تعترف بها أي منظمة علمية في هذا العالم. لكن دعوني أبدأ من البداية. **الدراسة.** في الأشهر الأولى، كنت أراقب زملائي كما يراقب قائد عسكري جيشًا غريبًا للمرة الأولى. أحاول فهم طباعهم، وما يحبونه، وما يكرهونه، وكيف تتشكل الصداقات بينهم. في حياتي السابقة، كان الأمر أبسط من ذلك بكثير؛ فالقصر يفرض على الجميع أدوارًا واضحة، والنبلاء يتعلمون منذ صغرهم كيف يتحدثون، ومتى يصمتون، وكيف يخفون نواياهم خلف ابتسامات مهذبة. أما الأطفال هنا، فلم يكونوا يخفون شيئًا تقريبًا. إذا أحبك أحدهم، جلس بجانبك في اليوم التالي وكأنكما تعرفان بعضكما منذ عشر سنوات. وإذا غضب منك، أخبرك بأنك أحمق، ثم عاد بعد خمس دقائق ليسألك إن كنت تريد اللعب معه. يا لها من حياة! لا حسابات سياسية، ولا مؤامرات داخل القصر، ولا رسائل سرية تتنقل بين أيدي الخدم. حسنًا، باستثناء أشين. ذلك الفتى كان قادرًا على تحويل أبسط الأمور إلى حادثة تستحق التحقيق. ومع ذلك، لم أكن أرغب في أن تكون صداقتي معه هي الصداقة الوحيدة التي أملكها. كان جزء مني يخشى التعلق بالآخرين. ربما لأنني عرفت في حياتي السابقة معنى أن يصبح شخص ما جزءًا من روحك، ثم يرحل تاركًا فراغًا لا تستطيع الكلمات ملأه. لكنني كنت أعرف أيضًا أن العيش هربًا من الألم ليس حياة حقيقية. لذلك حاولت الاقتراب من زملائي تدريجيًّا. شاركت بعضهم ألعابهم، وساعدت آخرين في فهم الدروس، واستمعت إلى حكاياتهم عن عائلاتهم وعطلاتهم وأحلامهم الصغيرة. اكتشفت أن أحدهم يريد أن يصبح طبيبًا لأنه يخاف من رؤية الناس يتألمون، وأن آخر يحلم بأن يصبح لاعب كرة قدم، بينما أراد طفل ثالث أن يصبح سائق شاحنة لأنه يحب صوت المحرك. لم أضحك على أي منهم. ففي نهاية المطاف، كنت أنا نفسي أحمل أحلامًا لم أعد أعرف إن كان بإمكاني تحقيقها. وكانت هناك فريسيا أيضًا. بعد حادثة رباطات الشعر، أصبحت أكثر هدوءًا حين تتحدث معي، لكنها لم تعد تبكي كلما اقترب منها أحد. كانت تبتسم أحيانًا، وتشاركنا بعض الأنشطة، وإن ظلت تميل إلى الجلوس في مكان هادئ بعيدًا عن الضوضاء. لم أكن أحاول أن أجعلها مدينة لي بشيء. لم أكن أريد أن تشعر بأنها مطالبة برد الجميل لمجرد أنني تدخلت في ذلك اليوم. كنت أريد فقط أن تتمكن من الذهاب إلى المدرسة دون أن تخشى أن يتحول شيء تحبه إلى سبب للسخرية منها. أما أشين، فقد استمر في التصرف كأنه حارس شخصي غير رسمي لي، رغم أنني لم أطلب منه ذلك قط. كان يعلن أحيانًا أنه سيحميني من كل المتنمرين في المدرسة، ثم يختبئ خلفي عندما تظهر حشرة طائرة في الفصل. لا تسألوني كيف يمكن لشخص أن يلكم فتى أمام الجميع دون تردد، ثم يصرخ بسبب فراشة. لقد توقفت عن محاولة فهمه. ومع مرور الوقت، بدأت أستمتع بالحياة المدرسية فعلًا. لم تعد الفصول مجرد أماكن أتعلم فيها القراءة والكتابة، بل أصبحت مساحات أتعلم فيها كيف أكون طفلًا بين الأطفال. لم يكن ذلك سهلًا دائمًا. فالعقل الذي عاش حياة كاملة لا يستطيع أن ينسى فجأة كل ما مر به، لكنني بدأت أكتشف أن الحياة لا تتكون من المعارك الكبيرة وحدها. أحيانًا، تكفي ضحكة صديق، أو قصة مضحكة، أو إجابة صحيحة تجعل المعلّم يبتسم، لتمنح يومك قيمة لا تتوقعها. وبالطبع، لم يكن كل شيء ورديًّا. ففي نهاية ذلك اليوم الذي شهد حادثة المتنمر، كنت أعرف أنني سأخضع لاستجواب منزلي لا يقل صرامة عن استجوابات القصر الملكي. والأسوأ؟ أن أبي لا يحتاج إلى كرسي تعذيب كي يجعلك تعترف. يكفي أن ينظر إليك فحسب.

استجواب المساء

عدت إلى المنزل، وخلعت حذائي عند المدخل، ثم وضعت حقيبتي في مكانها. كانت رائحة الطعام تنبعث من المطبخ، وكنت على وشك التسلل إليه بحثًا عن شيء آكله قبل أن تبدأ أمي في سؤالي عن يومي، حين سمعت صوت أبي من غرفة الجلوس.

«.نيراس، تعال قليلًا»

توقفت. نظرت نحو المطبخ، ثم نحو غرفة الجلوس. وداعًا، أيها الطعام. لقد كنت أملًا جميلًا. دخلت الغرفة، فوجدت أبي جالسًا على الأريكة، وقد وضع هاتفه على الطاولة. كان هادئًا كعادته، وهذا تحديدًا ما جعل الأمر مقلقًا. جلست أمامه، ووضعت يديّ على ركبتيّ. قال:

«.اتصل بي مدير مدرستك اليوم»

أومأت.

«.أعرف يا أبي»

«إذن، هل تريد أن تخبرني بما حدث من وجهة نظرك؟»

أخذت نفسًا قصيرًا، ثم بدأت أشرح له ما حدث منذ اللحظة التي رأيت فيها فريسيا تبكي، وكيف سخر الفتى من رباطات شعرها، ثم كيف قررت التدخل. استمع إليّ دون أن يقاطعني. وعندما وصلت إلى المزحة التي ألقيتها بشأن والدي الفتى، رفع حاجبه قليلًا. توقفت.

«.أعترف بأنني تماديت في ذلك الجزء»

«تعتقد ذلك؟»

«.نعم. لم أكن أعرف شيئًا عن ظروف عائلته، ولم يكن من حقي استخدام أمر شخصي كهذا للسخرية منه»

ظل أبي ينظر إليّ، ثم أشار لي بمتابعة الحديث. أخبرته كيف حاول الفتى ضربي، وكيف تفاديت لكماته، وكيف تدخل أشين وأسقطه أرضًا. وعندما انتهيت، أسند أبي ظهره إلى الأريكة، وعقد ذراعيه.

إذن، دعني أفهم الأمر. رأيت فتى يسخر من فتاة، فتدخلت للدفاع عنها. ثم استخدمت ضده الأمر نفسه الذي استعمله لإيذائها، فبكى،»

«.وحاول ضربك، وتفاديت ضرباته، وبعدها جاء أشين ووجّه إليه لكمة

«.هذا ملخص دقيق»

«.ملخص دقيق للغاية»

كانت نبرة صوته هادئة، لكنني بدأت أشعر بأنني أمام امتحان شفهي لا أملك إجاباته كاملة. سألني:

«لماذا اخترت السخرية من عائلته؟»

فكرت قليلًا قبل أن أجيب.

لأنني لاحظت أنه يحاول إيذاء فريسيا بشيء يبدو مهمًّا بالنسبة إليها. رباطات الشعر هدية من والدها، وكان يستخدمها ليجعلها»

«.تشعر بالخجل من شيء تحبه. لذلك أردت أن أجعله يشعر بالشيء نفسه

«.أي أنك أردت أن ترد له الأذى»

«.أردت أن أجعله يتوقف»

«وهل كان عليك أن تفعل ذلك بتلك الطريقة؟»

خفضت رأسي قليلًا.

«.لا»

ساد الصمت بيننا للحظات. ثم قال أبي:

سأكون صريحًا معك يا نيراس. أعجبني أنك لم تقف متفرجًا بينما كان شخص آخر يتعرض للإهانة. وأعجبني أنك لم تستخدم قوتك»

«.الجسدية لإسقاط الفتى لمجرد أنه أغضبك

رفعت رأسي. لكنه تابع قبل أن أبتسم:

«.لكن أسلوبك كان ملتويًا»

اختفت ابتسامتي قبل أن تولد.

«ملتوي؟»

نعم. لقد وجدت نقطة ضعف محتملة لديه، ثم ضغطت عليها عمدًا. لا أعرف إن كنت قد أصبت الحقيقة أم لا، لكنك استخدمت أمرًا» «.شخصيًّا كسلاح دون أن تعرف عواقبه

تنهدت.

«.أعرف. ولهذا اعتذرت منه»

أومأ أبي.

وهذا تصرف جيد. لكنني أريدك أن تفهم الفرق بين أن توقف شخصًا عن إيذاء الآخرين، وبين أن تجعله يتألم لأنك قادر على» «.ذلك

نظرت إليه بصمت. كان كلامه منطقيًّا، وهذا ما أزعجني قليلًا. كنت قد اعتدت في حياتي السابقة على التعامل مع التهديدات بسرعة وحسم. في ساحات القتال، لم يكن أمامك دائمًا وقت لتفهم مشاعر خصمك أو تدرس ماضيه. لكنني لم أكن في ساحة قتال، ولم يكن كل شخص يسيء التصرف عدوًّا يجب إخضاعه. قال أبي:

يمكنك أن تكون حازمًا دون أن تكون قاسيًا. ويمكنك أن تدافع عن شخص دون أن تحوّل الأمر إلى معركة لإثبات من يستطيع إيذاء» «.الآخر أكثر

ثم ابتسم ابتسامة صغيرة.

«.ومع ذلك، سأعترف بشيء»

نظرت إليه بحذر.

«ما هو؟»

«.لقد كانت مزحتك فعّالة للغاية»

حدّقت فيه. ثم انفجرت ضاحكًا. غطّى أبي فمه بيده محاولًا الحفاظ على جديته، لكنه لم ينجح تمامًا. قلت:

«!إذن أنت تعترف بأنها نجحت»

«.أنا أعترف بأنها نجحت في إيقافه عن السخرية من الفتاة في تلك اللحظة. لكن النجاح لا يجعل كل وسيلة صحيحة»

«.حسنًا، حسنًا»

«.ولا يعني ذلك أنني أريدك أن تكررها»

«.فهمت»

توقف قليلًا، ثم أضاف:

أما أشين، فسأتحدث معك بشأنه لاحقًا. أريد أن أعرف إن كان يفهم أن الدفاع عن الآخرين لا يعني أن يوجّه لكمة إلى وجه كل» «.شخص يزعجه

ابتسمت.

«.حظًّا موفقًا يا أبي»

ضيّق عينيه.

«لماذا أشعر بأنك تعرف شيئًا لا أعرفه؟»

«.لأنه أشين»

أطلق أبي زفرة طويلة، ثم هز رأسه.

«.أظن أنني فهمت»

نهضت من مكاني، لكن صوته أوقفني قبل أن أصل إلى الباب.

«.نيراس»

التفتُّ إليه.

«نعم؟»

قال بجدية:

أنا فخور بك لأنك لم تتجاهل معاناة فريسيا. لكنني سأكون أكثر فخرًا بك حين تتعلم كيف تفعل الصواب دون أن تضطر إلى جرح» «.شخص آخر في الطريق

ابتسمت له.

«.سأحاول يا أبي»

اقترب مني وربّت على رأسي.

«.هذا كل ما أطلبه»

خرجت من الغرفة وأنا أفكر في كلماته. كان غريبًا أن أتعلم في هذه الحياة أشياء لم أتعلمها حين كنت فارسًا. هناك، كنت أعرف كيف أواجه السيوف، وكيف أقرأ تحركات الخصوم، وكيف أضع خطة قبل أن يبدأ القتال. أما هنا، فقد كنت أتعلم شيئًا أصعب بكثير. كيف أختار كلماتي.

في الجهة الأخرى من المدينة

كان أشين يعيش مساءً أقل هدوءًا بكثير من مسائي. وقف أمام والديه في غرفة الجلوس، بينما جلس أبوه على كرسيه واضعًا يديه فوق ركبتيه، ووقفت أمه بجانب النافذة، وقد عقدت ذراعيها أمام صدرها. كان أشين يحاول أن يبدو بريئًا. وقد فشل فشلًا ذريعًا. قال أبوه:

«هل يمكنك أن تشرح لي لماذا اتصل مدير المدرسة وأخبرني أنك كدت تحطّم فكّ أحد التلاميذ؟»

رفع أشين إصبعه.

«.أولًا، أبي، أعتقد أن كلمة تحطيم مبالغ فيها قليلًا»

لم يرمش والده.

«.أشين»

«ربما كسرًا بسيطًا؟»

«!أشين»

خفض الفتى إصبعه.

«.حسنًا، لن نختلف على المصطلحات»

وضعت أمه يدها على جبينها.

«.يا إلهي، هذا الطفل سيجعلني أشيب قبل أواني»

قال أشين بسرعة:

«!لكنني لم أبدأ الشجار»

أجابه والده:

«وهل هذه هي القاعدة الوحيدة التي تعلمتها في حياتك؟ ألّا تبدأ الشجار؟»

فكر أشين قليلًا.

«.إنها قاعدة مهمة»

«!أشين»

«!حسنًا، حسنًا»

تنهد الفتى، ثم قال:

كان ذلك التلميذ يسخر من فتاة، ونيراس تدخل ليدافع عنها. ثم حاول الفتى ضرب نيراس، لكنه كان يتفادى ضرباته، فقررت» «.التدخل

نظر إليه والده طويلًا.

«وقررت التدخل بقبضة يدك؟»

«.كانت أسرع وسيلة»

«!أسرع وسيلة لإرسالك إلى مكتب المدير»

تدخلت أمه:

«.كان بإمكانك أن تستدعي معلّمًا»

أجاب أشين بجدية مصطنعة:

«.بحلول الوقت الذي كنت سأصل فيه إلى المعلّم، ربما كان الفتى قد أنهى ضرب نيراس»

لكن نيراس لم يكن يتعرض للضرب أصلًا!» قالت أمه».

توقف أشين. ثم أدار رأسه قليلًا.

«.هذه تفصيلة صغيرة»

حدّق والداه فيه. رفع يديه مستسلمًا.

«.حسنًا! ربما كان بإمكاني التفكير لثانيتين قبل أن ألكمه»

قال أبوه:

«ثانيتين فقط؟»

«.ثلاثًا، إذا كنت تريد أن أكون دقيقًا»

أغمض والده عينيه. أما أمه، فقد حاولت الحفاظ على جديتها، لكن ابتسامة صغيرة تسللت إلى وجهها رغمًا عنها. لاحظها أشين فورًا، فاستغل الفرصة.

«أمي، أنت تفهمينني، أليس كذلك؟»

اختفت ابتسامتها.

«.لا تحاول استغلالي للخروج من العقاب»

«.لم أكن أحاول استغلالك. كنت أبحث عن دعم عاطفي»

«.ستبحث عن الدعم العاطفي بعد أن تنهي واجباتك، وتعتذر عن تصرفك، وتعدنا بألّا تستخدم قبضتك لحل كل مشكلة»

تأمل أشين الأمر.

«هل يمكنني استخدام قدميّ بدلًا منها؟»

نهض والده من كرسيه.

«!إلى غرفتك»

انطلق أشين نحو الدرج، وهو يتمتم:

«!حسنًا، حسنًا! لا داعي لاستخدام القوة في هذه العائلة»

صرخت أمه من خلفه:

«!إسمعناك»

أغلق باب غرفته، ثم ألقى بنفسه على السرير. ظل ينظر إلى السقف قليلًا. كان يعرف أنه بالغ في رد فعله. لم يكن نيراس بحاجة إلى من ينقذه، وكان من الممكن أن تنتهي المشكلة بطريقة أقل فوضوية. لكنه حين رأى الفتى يندفع نحوه، لم يفكر طويلًا. لقد أراد أن يحمي صديقه. وكان ذلك الشعور صادقًا، حتى لو كانت طريقته في التعبير عنه سيئة. ابتسم وهو يتذكر وجه نيراس حين أُغلق الهاتف في مكتب المدير. ثم تمتم:

«.على الأقل، والد نيراس رجل رائع»

توقف لحظة.

«.أحتاج إلى التحدث معه»

وفي الطابق السفلي، كان أبوه يصرخ:

«!أشين! لا تفكر في أي حيلة جديدة»

حدّق أشين في الباب.

«!كيف يعرف دائمًا؟»

أعظم اختراع بعد السحر

مع مرور السنوات، اكتشفت أن هذا العالم يمتلك اختراعًا يستحق أن يُخلّد اسمه في كتب التاريخ. اختراعًا جعل الحياة أكثر متعة، وقلّل من حاجتي إلى التفكير في الماضي، وفتح أمامي أبواب عوالم لم أكن لأحلم بزيارتها. ألعاب الفيديو. لا أبالغ حين أقول إنني شعرت، في المرة الأولى التي أمسكت فيها بوحدة تحكم، بأنني اكتشفت نوعًا جديدًا من السحر. كيف يمكن لشخص أن يجلس أمام شاشة، ويدخل عالمًا كاملًا، ويتحكم في شخصية تتحرك وتقفز وتقاتل، دون أن يحتاج إلى مغادرة مقعده؟ كان الأمر مذهلًا. ثم وتوغلت في أجزائها وتجاربها ،**Half-Life** اكتشفت ألعاب الحاسوب، وتحديدًا الألعاب الكلاسيكية. بدأت رحلتي مع سلسلة المختلفة. لم تكن مجرد ألعاب أطلق فيها النار على كل ما يتحرك؛ بل وجدت نفسي أمام عوالم خيال علمي، ومختبرات غامضة، ومخلوقات غريبة، وأحداث تتصاعد تدريجيًّا حتى تجعلك تنسى الوقت. كان هناك شيء يعجبني في هذه الألعاب. الشخصية الرئيسية لا تحتاج دائمًا إلى أن تكون ملكًا أو قائدًا عظيمًا كي تغيّر مجرى الأحداث. أحيانًا، يكفي أن يجد المرء نفسه في المكان الخطأ، في الوقت الخطأ، ثم يحاول النجاة. لقد شعرت بأنني أفهم هذا النوع من القصص أكثر مما ينبغي. بالطبع، كنت أحيانًا أعلّق على قرارات الشخصيات وكأنني قائد عسكري يشاهد جنودًا يرفضون اتباع أبسط تعليماته.

«!لماذا تدخل هذا الممر دون أن تتفقده؟»

ثم أكتشف بعد لحظات أنني أنا نفسي دخلت الممر ذاته دون أن أتفقده. كنت أرفض الاعتراف بأنني ارتكبت الخطأ. ففي النهاية، لا يمكن لفارس سابق أن يسمح لشخصية افتراضية بأن تنتصر عليه في نقاش. كما جربت ألعاب المتصفح، تلك الألعاب التي لا تحتاج إلى تحميل طويل أو جهاز قوي. بعضها كان بسيطًا وممتعًا، وبعضها الآخر جعلني أتساءل عمّا إذا كان مطوّروها يكرهون اللاعبين

سرًّا. أدخل اللعبة، أبدأ اللعب، أتقدم في المستوى، أقترب من الفوز... ثم تظهر نافذة إعلان تغطي الشاشة بأكملها. أغلقها. يظهر إعلان آخر. أغلقه. تبدأ اللعبة من جديد. يظهر إعلان ثالث. في تلك اللحظة، كنت أشعر بأنني لا ألعب لعبة، بل أشارك في حرب نفسية ضد شركات الإعلانات. أحيانًا، كان الإعلان أطول من الوقت الذي أقضيه في اللعب نفسه. كنت أحدق في الشاشة وأقول:

«في حياتي السابقة، كان عليّ أن أواجه جيوشًا كاملة، وأخطط لحصار القلاع، وأخوض معارك مصيرية... أما هنا، فأنا أحاول فقط العثور على زر الإغلاق!»

وكان أشين، الذي اعتاد الجلوس بجانبي حين نلعب، يضحك حتى تدمع عيناه.

«اضغط على الزاوية!»

«أي زاوية؟! هناك ثلاثة رموز صغيرة!»

«جرّبها كلها!»

«إذا ضغطت على شيء آخر وفتح الإعلان صفحة جديدة، فسأحمّلك مسؤولية ذلك!»

«أنت تهددني بسبب إعلان؟»

«.أنا لا أهددك. أنا أضع خطة دفاعية»

كان هذا هو عالمي الجديد. عالم يمكنني فيه خوض المعارك دون أن أخسر حياتي، واستكشاف أماكن غريبة دون أن أحتاج إلى حصان، وتجربة المغامرات دون أن أعود إلى المنزل مثقلًا بجراح حقيقية. لم تكن الألعاب قادرة على محو ذكرياتي، لكنها منحتني مساحة أتنفس فيها بعيدًا عنها. وكان ذلك كافيًا.

ثمانية كيلوغرامات من الشجاعة

جاءت العطلة، وقررت عائلتي زيارة جدتي. كنت متحمسًا للزيارة، بالطبع. أحببت منزلها منذ أول مرة زرته، لا لأنه كبير أو فاخر، بل لأنه كان يحمل رائحة خاصة لا أستطيع وصفها بدقة؛ مزيجًا من الخبز الطازج، والتوابل، والقهوة، والأطعمة التي تطهوها بيديها. لكنني لم أكن أعرف أن هذه الزيارة ستتحول إلى اختبار حقيقي لقدرة جسدي على تحمّل الحب العائلي. ذهبت إلى منزل جدتي وأنا أنقص نحو ثمانية كيلوغرامات عن الوزن الذي أعدّه طبيعيًّا بالنسبة إليّ. كنت نحيفًا، نشيطًا، وأتحرك طوال اليوم دون أن أتعب كثيرًا. بعد ثلاثة أيام فقط، خرجت من هناك وقد زاد وزني عشرة كيلوغرامات. حسنًا، ربما أبالغ قليلًا. لكنني أقسم أنني حين عدت إلى المنزل، شعرت بأنني لم أعد نيراس نفسه، بل نسخة أكثر استدارة، وأقل قدرة على الركض، وأكثر ميلًا إلى الاستلقاء بعد كل وجبة. لقد كانت جدتي تؤمن إيمانًا راسخًا بأن الطعام علاج لكل شيء. إن كنت حزينًا، فكل. إن كنت سعيدًا، فكل احتفالًا بسعادتك. إن كنت مريضًا، فكل حتى تستعيد قوتك. إن كنت شبعان، فهذه تحديدًا مشكلة يمكن حلها بطبق صغير آخر. أما إذا قلت إنك لا تستطيع تناول المزيد، فإنها تنظر إليك بعينين مليئتين بالشفقة، كأنك أخبرتها للتو أنك لن تعيش حتى الغد. في اليوم الأول، جلست إلى مائدة الغداء وأنا أشعر بجوع حقيقي. قدّمت جدتي الأطباق تباعًا، وكنت أتناول الطعام بسعادة. لم أكن أرى سببًا للقلق؛ فالطعام لذيذ، والجو دافئ، وجدي يجلس بجانبي يحكي بعض القصص القديمة. لكن جدتي لم تتوقف عند الغداء. بعده بقليل، أحضرت الفاكهة. ثم الشاي. ثم الحلوى. ثم قالت إنها أعدّت شيئًا خفيفًا للمساء. شيئًا خفيفًا! بدأت أشك في أن مفهوم الخفة يختلف جذريًّا بين الأجيال. وفي اليوم الثاني، بدأت أدرك أنني لست في زيارة عائلية عادية. كنت في حملة إطعام منظمة. جدتي هي القائدة، والمطبخ هو مركز العمليات، وأنا الهدف الرئيسي. أما جدي، فكان الرجل الوحيد الذي يفهم خطورة الموقف

في عصر اليوم الثالث، كنت أجلس مع جدي وجدتي في غرفة الجلوس. كان جدي يجلس في كرسيه المعتاد، يحتسي الشاي بهدوء، بينما جلست أنا بجانبه، أحاول أن أبدو طبيعيًّا رغم أن بطني بدأت ترسل إشارات استغاثة منذ الوجبة السابقة. كانت جدتي تتحدث عن إحدى قريباتنا، وتتنقل من قصة إلى أخرى بسهولة مذهلة. استمعت إليها، وأجبت عن بعض أسئلتها، ثم استرخيت قليلًا في مكاني. وفي تلك اللحظة... **غررررررر...** صدر صوت خافت من معدتي. كان صوتًا صغيرًا، بالكاد يُسمع. لكن جدي تجمّد. توقفت يده في منتصف الطريق إلى فنجان الشاي. ثم أدار رأسه نحوي ببطء شديد، وكأنه سمع صوت إنذار حريق داخل قصر ملكي. همس:

«...نيراس»

نظرت إليه.

«نعم، جدي؟»

أشار بعينيه نحو جدتي.

«هل كانت معدتك هي التي أصدرت ذلك الصوت؟»

نظرت إلى بطني، ثم إليه.

«.أظن ذلك»

اتسعت عيناه.

«.يا إلهي»

عبست.

«ما الأمر؟»

اقترب مني قليلًا، وخفض صوته إلى مستوى الهمس.

«.اسمعني جيدًا يا بني. لا تتحرك»

نظرت إليه بريبة.

«لماذا؟»

«.لأن جدتك سمعت الصوت»

التفتُّ نحوها. كانت قد توقفت عن الكلام. رفعت رأسها ببطء، ثم نظرت إليّ مباشرة. ابتسمت. ابتسامة دافئة. ابتسامة لطيفة. ابتسامة جعلت كل غريزة نجاة امتلكتها في حياتي السابقة تصرخ في وجهي بأن أهرب. قالت بحنان:

«يا صغيري، هل أنت جائع؟»

فتحت فمي لأجيب، لكن جدي أمسك بذراعي من تحت الطاولة. هز رأسه لي بعنف. لا. لا تقل شيئًا. لا ترتكب هذا الخطأ. أجبت بحذر:

«.ليس كثيرًا يا جدتي»

وضعت يدها على صدرها.

«!ليس كثيرًا؟ يا حبيبي، لقد سمعت معدتك»

ثم نهضت. نهضت بسرعة لا تتناسب إطلاقًا مع عمرها، واتجهت نحو المطبخ. تابعتها بعينيّ حتى اختفت خلف الباب. ثم التفتُّ إلى جدي. كان وجهه شاحبًا.

«جدي، ماذا يحدث؟»

أمسك فنجانه بكلتا يديه، وشرب منه رشفة طويلة، ثم وضعه على الطاولة. قال بصوت رجل رأى أهوالًا لا يعرفها الآخرون:

«.لقد انتهى أمرك»

حدّقت فيه.

«!ماذا؟»

«حين تسمع جدتك صوت معدة شخص جائع، فإنها لا تعتبره مجرد صوت. إنها تعتبره نداء استغاثة رسميًّا، صادرًا عن معدة مظلومة تحتاج إلى الإنقاذ.»

«!لكنني قلت لها إنني لست جائعًا كثيرًا»

«.وهذا أسوأ»

«!كيف يكون أسوأ؟»

نظر إليّ بجدية مخيفة.

«.لأنها ستظن أنك تخجل من طلب الطعام، وستقرر أن تطهو ما يكفي لإطعامك طوال أسبوع»

ابتلعت ريقي.

«أسبوع؟»

أومأ.

«.إذا كانت في مزاج جيد»

حدّقت في المطبخ. ثم عدت إلى جدي.

«جدي... هل أنت تمزح معي؟»

أطلق ضحكة قصيرة، لكنها كانت ضحكة رجل فقد الأمل منذ سنوات.

«.يا بني، لقد عشت مع هذه المرأة عقودًا. أعرف ماذا يحدث عندما تسمع صوت معدة أحدهم»

ثم أمسك بكتفي وقال:

«.في إحدى المرات، عطست أمامها بعد أن قلت إنني أشعر بالبرد. أعدّت لي ما يكفي من الحساء لدرجة أنني بدأت أكره الشتاء»

لم أعرف هل أضحك أم أهرب. لكن قبل أن أستطيع اتخاذ قرار، سمعنا صوت جدتي من المطبخ.

«نيراس يا حبيبي! هل تحب الدجاج أم اللحم أكثر؟»

تبادلنا أنا وجدي النظرات. همست:

«لماذا تسألني هذا السؤال؟»

أجاب جدي:

«.إنها تحدد حجم الكارثة»

صرخت من المطبخ:

«!وسأعدّ لك الأرز أيضًا»

أغمض جدي عينيه.

«.لقد بدأت العملية»

بعد دقائق، ظهر أول طبق. ثم الثاني. ثم الثالث. كانت جدتي تتحرك بين المطبخ وغرفة الطعام بخفة لا تُصدّق، تحمل الأطباق واحدًا تلو الآخر، وتضعها على الطاولة كما لو أنها تستعد لاستقبال وفد من الملوك. ظهرت أطباق الدجاج، واللحم، والأرز، والخضراوات المطهوة، والسلطة، والخبز الطازج، ثم طبق كبير من الحساء. جلست أنظر إلى المائدة. لم أعد أعرف إن كنت في منزل جدتي أم في قاعة الولائم بالقصر الملكي. بل إنني بدأت أشك في أن الملك نفسه لم يكن يتناول هذا القدر من الطعام في مناسباته الرسمية.
قالت جدتي بفخر:

«.حسنًا، يا صغيري، هذه مجرد أشياء بسيطة»

أدرت رأسي نحو جدي. كان يحدق في الأطباق بنظرة فارغة. همس:

«.مجرد أشياء بسيطة... هذه الجملة هي بداية كل مصائبي»

جلست جدتي إلى جانبنا، ووضعت أمامي طبقًا ممتلئًا.

«.هيا يا نيراس، تناول الطعام. أنت ما زلت صغيرًا وتحتاج إلى الغذاء»

نظرت إلى الطبق. ثم إلى جدتي. ثم إلى جدي، الذي كان يراقبني بنظرة رجل يودّع رفيق سلاحه قبل معركة لا عودة منها. قلت بحذر:

«.شكرًا يا جدتي، لكنني تناولت الكثير اليوم»

وضعت يدها على خدي.

«.أعرف يا حبيبي، لكنك ما زلت تكبر»

كانت هذه الجملة، على ما يبدو، أقوى من أي حجة منطقية. بدأت أتناول الطعام. وكان لذيذًا. هذا هو الجزء المأساوي من القصة. لو كان الطعام سيئًا، لامتلكت سببًا مقنعًا للتوقف. لكن جدتي كانت تطهو بطريقة تجعل كل لقمة تبدو كأنها اعتذار من العالم عن كل وجبة سيئة تناولتها في حياتك. أكلت قليلًا، ثم قالت:

«هل أعجبك؟»

أومأت.

«.كثيرًا»

ابتسمت بسعادة، ووضعت المزيد في طبقي. توقفت يدي في الهواء.

«!جدتي، لقد قلت إنني أحببته، ولم أقل إنني أريد إعادة ملء الطبق»

ضحك جدي بصوت مرتفع. أما جدتي، فربّتت على كتفي.

«.أعرف، أعرف. تناول الطعام فحسب»

نظرت إلى جدي مستنجدًا. لكنه رفع فنجانه نحو فمه، وتظاهر بأنه لم يرَ شيئًا. الخائن. بعد قليل، وصلت الحلوى. لم أفهم كيف حدث ذلك. أقسم أنني لم أرَ جدتي تغادر الطاولة، ولم أسمع خطواتها في المطبخ، ولم أشاهدها تخرج أي شيء من الفرن. ومع ذلك، ظهرت أمامنا أطباق جديدة، كأنها استُدعيت من بُعد آخر. كان هناك كعك طازج، وقطع من الحلوى، وفاكهة مقطعة بعناية. حدّقت في الأطباق، ثم التفتُّ نحو جدي. كان هو أيضًا يحدّق فيها. قال بصوت خافت:

«.نيراس، أريدك أن تجيبني عن سؤال»

«ما هو؟»

«متى أعدّت جدتك كل هذا؟»

نظرت إلى المطبخ. ثم إلى الساعة. ثم إلى جدي.

«.كنت سأطرح عليك السؤال نفسه»

اقترب مني وهمس:

«.كنت أجلس هنا طوال الوقت. لم أسمع صوت الفرن، ولا صوت الأواني، ولا حتى صوت السكاكين»

قلت:

«.ربما كانت قد أعدّت كل شيء قبل أن نأتي»

هز رأسه ببطء.

«.مستحيل. لقد رأيتها في الصباح، وكانت تقول إنها لا تعرف ماذا ستطهو اليوم»

ساد الصمت بيننا. ثم التفتُّ نحو المطبخ مرة أخرى. للحظة، راودتني فكرة مرعبة. هل كانت جدتي تملك قدرة سحرية على استحضار الطعام؟ هل كان مطبخها بوابة إلى بُعد آخر مليء بالأطباق الجاهزة؟ وهل كانت تلك قدرتها السرية التي أخفتها عن

الجميع طوال حياتها؟ نظرت إلى جدي. كان يبدو وكأنه يفكر في الأسئلة نفسها. ثم قال بجدية تامة:

«يا بني، لقد واجهت في حياتي رجالًا أقوى مني، ومررت بمواقف لم أكن أظن أنني سأخرج منها حيًّا. لكنني لم أتمكن يومًا من فهم كيف تطهو هذه المرأة كل هذا الطعام في وقت قصير.»

أومأت بتعاطف.

«أفهمك يا جدي.»

ثم نظرت إلى الطبق الذي وضعته جدتي أمامي للتو. كان ممتلئًا من جديد. لا أعرف متى امتلأ. لا أعرف من ملأه. ولا أريد أن أعرف. كل ما أعرفه أنني بدأت أقتنع بأن الجدات في هذا العالم لا يحتجن إلى السحر، لأنهن اخترعن نوعًا خاصًّا من القوة يتجاوز قوانين الطبيعة. قوة الحب. وقوة الطعام. وقوة تلك العبارة المرعبة:

«كل يا حبيبي، ما زلت جائعًا.»

في نهاية اليوم، استلقيت على السرير في غرفة الضيوف، عاجزًا عن الحركة تقريبًا. كنت أشعر بأنني تناولت ما يكفي لإطعام فرقة كاملة من الجنود، وربما بقي شيء يكفي لإطعام الخيول أيضًا. دخل جدي الغرفة، وأغلق الباب خلفه، ثم جلس على الكرسي القريب من السرير. نظر إليّ. نظرت إليه. ساد صمت طويل. ثم قلت:

«جدي، أعتقد أنني زدت عشرة كيلوغرامات.»

أومأ ببطء.

«هذا معقول.»

«في ثلاثة أيام فقط.»

«هذا أيضًا معقول.»

التفتُّ إليه بصدمة.

«!كيف يكون ذلك معقولًا؟»

ابتسم ابتسامة متعبة.

«لأنك قضيت ثلاثة أيام مع جدتك.»

ثم نهض متجهًا نحو الباب. وقبل أن يخرج، التفت إليّ وقال:

«نصيحة مني يا بني. إذا سمعت معدتك تصدر صوتًا في وجودها مرة أخرى، فلا تحاول إنكار الأمر.»

«لماذا؟»

ابتسم ابتسامة رجل يعرف أسرار الكون.

«لأنها ستعتبر إنكارك دليلًا على أنك جائع ولا تريد إزعاجها.»

ثم خرج وأغلق الباب. بقيت أحدّق في السقف. في حياتي السابقة، نجوت من تدريبات قاسية، ومعارك دامية، ومؤامرات سياسية، وخسرت أعز أصدقائي بين ذراعيّ. أما في حياتي الجديدة، فقد وجدت خصمًا لا أملك أي فرصة للانتصار عليه. جدتي. تنهدت، ووضعت يدي على بطني.

«أرجوك... لا تصدر أي صوت.»

وبعد لحظة، صدر صوت خافت. غرررررر... تجمّدت. ثم سمعت صوت جدتي من خلف الباب:

«نيراس! هل أنت جائع يا حبيبي؟»

أغمضت عينيّ. يا روح الزمن... لقد أعدتني إلى الحياة كي أعيش من جديد، لا كي أموت بسبب وليمة عائلية! يتبع...

الفصل الثالث عشر: حين يتعلم الجسد لغة الروح

لم أكن أؤمن بأن الإنسان يستطيع أن يبدأ حياته من جديد حقا، حتى وجدت نفسي أفعل ذلك حرفيا. فبعد أن متُّ في عالمي القديم، وحملتني روح الزمن إلى هذا العالم الغريب، لم يكن عليَّ أن أتعلم كيف أعيش فحسب، بل كان عليَّ أيضا أن أتعلم كيف أعيش **داخل جسد لم يكن جسدي**. قد يبدو الأمر سخيفا لمن لم يجربه، لكن تخيل أن تمتلك عقل رجل خاض الحروب، وقرأ تحركات أعدائه، وحمل السيف حتى صار امتدادا لذراعه، ثم تستيقظ لتجد أن أبسط الحركات تحتاج منك إلى تركيز لا يصدق! كان عقلي يعرف ما ينبغي فعله، لكن جسدي لا يعرف كيف ينفذه. أريد أن أمد يدي، فتتحرك أصابعي ببطء. أريد أن أقف بثبات، فتهتز ساقاي وكأنهما تتآمران عليَّ. وحتى حين أحاول الركض، أشعر أحيانا بأنني أتعلم المشي للمرة الأولى. يا لها من إهانة لكرامة فارس قضى عمره يتدرب! ومع ذلك، لم أكن أكره هذا الجسد. على العكس، كنت ممتنا له. فهو الجسد الذي منحني فرصة ثانية، وفرصة كهذه لا تُرفض لمجرد أن صاحبها لا يستطيع تنفيذ عشرين تمرينا للضغط دون أن يشعر بأن ذراعيه قررتا الاستقالة من الحياة. وكانت أمي أول من لاحظ أنني أمتلك شيئا غير عادي.

بدأ الأمر في صباح هادئ، حين كنت أراقب أمي وهي تتمرن في الحديقة المنزلية. كانت سالفيا امرأة رياضية محترفة، وكان جسدها يتحرك بانسيابية مذهلة؛ كل حركة محسوبة، وكل خطوة متزنة، حتى إنني كنت أشعر أحيانا بأنني أشاهد مقاتلة مدربة لا مجرد رياضية تؤدي تمارينها الصباحية. راقبتها لبعض الوقت قبل أن أسألها:

«أمي، هل يمكنك أن تعلّميني بعض التمارين؟»

توقفت عن الحركة، ثم نظرت إليَّ باستغراب لطيف.

«التمارين؟ منذ متى أصبحت مهتما بالرياضة يا نيراس؟»

رفعت كتفيَّ.

«.أريد أن أصبح أقوى»

لم تكن إجابتي كاذبة، لكنها لم تكن كاملة أيضا. فأنا لم أكن أريد جسدا قويا فحسب. كنت أريد جسدا أستطيع الوثوق به، جسدا يستجيب لأوامري دون أن أضطر إلى محاربته في كل مرة. أردت أن أستعيد ذلك الشعور الذي افتقدته منذ استيقظت في هذا العالم؛ شعور أن تكون حرا في الحركة، قادرا على التعبير عن نفسك دون أن يقف جسدك حاجزا بينك وبين ما تريد. ابتسمت أمي ومسحت العرق عن جبينها.

«.حسنا يا بطلي، لكننا سنبدأ ببطء. لا أريدك أن ترهق نفسك»

«.بالطبع»

كنت أقول ذلك بوجه جاد للغاية، وكأنني قائد عسكري تلقى أمرا رسميا. ولم أكن أعرف حينها أن هذه الجملة ستصبح لاحقا أكثر الأكاذيب إيلاما لعضلاتي. بدأت أمي بتعليمي بعض التمارين الخفيفة؛ تمارين التوازن، والمرونة، وتقوية العضلات الأساسية. كانت تراقب وضعيتي وتصحح أخطائي، بينما كنت أحاول تقليد حركاتها بأكبر قدر ممكن من الدقة. والمثير للاهتمام أنها لم تكن تلاحظ تقدمي فحسب، بل كانت تلاحظ شيئا آخر. في إحدى المرات، طلبت مني أن أقف على ساق واحدة وأحافظ على توازني. فعلت ذلك، لكنني سرعان ما فقدت توازني واضطررت إلى وضع قدمي على الأرض.

«.حاول مرة أخرى»

أعدت المحاولة. فشلت. حاولت مرة ثالثة، ثم رابعة، ثم خامسة. وفي كل مرة، كنت أراقب حركة قدمي، وموضع كتفي، وانحناء ظهري، وأحاول فهم الخطأ الذي ارتكبته. لم أبدُ محبطا، ولم ألقِ باللوم على صعوبة التمرين. كنت أتعامل معه كما لو كان لغزا عسكريا لا بد من حلّه. بعد محاولات عديدة، نجحت أخيرا في الثبات لعدة ثوان. صفقت أمي بسعادة.

«!أحسنت يا نيراس! أرأيت؟ لقد استطعت فعلها»

ابتسمت لها، لكنني كنت أفكر في شيء آخر. *كان ينبغي أن أستطيع ذلك منذ المحاولة الأولى.* لم يكن ذلك غرورا، بل كان شعورا غريبا يصعب شرحه؛ كأن عقلي يتذكر شيئا لا يستطيع جسدي تنفيذه. كنت أعرف كيف أحافظ على توازني، أو هكذا بدا لي، لكن عضلاتي لم تكن تتعاون معي كما ينبغي. لاحظت أمي شرودي. اقتربت مني، ثم جلست على ركبتيها حتى أصبحت في مستوى نظري.

«نيراس، هل يؤلمك شيء؟»

«.لا، أمي»

«هل تشعر بالتعب؟»

«.قليلا فقط»

تأملتني لثوان، ثم قالت:

أحيانا يبدو أنك تعرف كيف تؤدي الحركة قبل أن تتعلمها، لكن جسدك لا يستطيع مجاراتك. حتى إنك تعيد الخطأ نفسه مرات» «.كثيرة، ثم تتوقف لتفكر فيه وكأنك تحاول تذكر شيء نسيته

ساد الصمت للحظة. كانت تلك ملاحظة دقيقة أكثر مما ينبغي. كيف يمكنني أن أشرح لها أنني لا أحاول تذكر حركة نسيتها، بل أحاول أن أجعل جسدا جديدا يتعلم ما كان جسدي القديم يتقنه؟ كيف أخبرها أنني أحيانا أشعر بأن عقلي وجسدي شخصان مختلفان، وأنني أقف بينهما مترجما يحاول إجبار أحدهما على فهم الآخر؟ ابتسمت ابتسامة صغيرة، ثم وضعت يدها على رأسي.

«.لا بأس. ربما لديك إمكانيات جيدة، لكن جسمك ما زال في مرحلة النمو. لا تستعجل يا صغيري، فكل شيء يحتاج إلى وقت»

تجاهلت الأمر بعد ذلك، أو هكذا بدا لي. لم تضغط عليَّ بأسئلتها، ولم تحاول انتزاع إجابة لا أملك القدرة على تقديمها. اكتفت بمساعدتي على التدريب، وكانت تفرح بكل تقدم أحققه مهما بدا بسيطا. أما أنا، فقد قررت أن أستفيد من كل لحظة معها. لم أكن أريد أن أضيع هذه الحياة في التحسر على الحياة التي فقدتها. لقد منحتني السماء أما تحبني، وأبا يقف إلى جانبي، وبيتا أعود إليه دون أن أخشى أن أجد أبوابه مهدمة أو أهله قد رحلوا إلى الأبد. وكان أقل ما يمكنني فعله أن أعتني بهذه النعمة. لكنني، بطبيعة الحال، لم أكن أنوي الاكتفاء بالتمارين الخفيفة إلى الأبد. فثمة مكان آخر كان ينتظرني. مكان ستبدأ فيه رحلتي الحقيقية.

كانت الحديقة العامة قريبة من منزلنا، وتضم مساحات واسعة للأشجار والعشب، وممرات للمشي والركض، إضافة إلى بعض الأعمدة الحديدية والقضبان المثبتة التي يستخدمها الناس للتمارين. في البداية، كنت أذهب إليها في أوقات الصباح الباكر، حين تكون شبه خالية من الزوار. لم أكن أريد أن يراقبني أحد وأنا أحاول تنفيذ حركات قد تنتهي بي ملقى على الأرض، أتأمل السماء وأتساءل إن كان من الممكن أن أموت للمرة الثانية بسبب عمود حديدي. كانت كرامتي لا تزال مهمة بالنسبة إليَّ، ولو قليلا. كنت أبدأ بالإحماء، ثم أتوجه إلى القضبان لأجرب بعض الحركات البسيطة. وبعدها أعود إلى الأرض لأتدرب على التوازن والمرونة، وأكرر كل حركة مرات عديدة حتى أفهم طريقة تنفيذها. لم أكن أملك مدربا خاصا، ولم أكن أعرف في البداية سوى القليل عن أنواع الرياضات التي يمكن ممارستها باستخدام وزن الجسم. لكنني كنت أملك شيئا أكثر أهمية: الفضول، والإصرار، واستعدادا مزعجا لتكرار الخطأ نفسه ألف مرة إن لزم الأمر. وهكذا اكتشفت عالم الكاليستنكس. كان الأمر أشبه باكتشاف أسلوب جديد للقتال، لكنه لا يحتاج إلى سيف أو درع، بل إلى السيطرة على جسدك وحده. التعلق بالقضبان، ورفع الجسم، والحفاظ على التوازن، والتحكم في كل عضلة أثناء الحركة؛ كل ذلك جعلني أشعر بأنني أمام لغة جديدة، لغة لا تتحدث بالكلمات، بل بالقوة والدقة والصبر. ثم اكتشفت البريك دانس. وهنا تحديدا، بدأت أشك في أن روح الزمن لم تكتف بإعادة إحيائي، بل أرادت أيضا أن تجعلني أبدو أحمق أمام نفسي. في الكاليستنكس، كنت أستطيع تحليل الحركة وتقسيمها إلى خطوات واضحة. أما في البريك دانس، فقد كان عليَّ أن أتعلم كيف أجعل جسدي يتحرك مع الإيقاع، وكيف أنقل وزني من جهة إلى أخرى دون أن أفقد توازني، وكيف أحول سلسلة من الحركات إلى شيء يبدو منسجما بدلا من أن يبدو كأن شخصا يتصارع مع الأرض. كانت المحاولة الأولى كارثة. حاولت تنفيذ حركة بسيطة، فاختل

توازني وسقطت على جانبي. نهضت. حاولت ثانية، ففشلت. ثالثة، فشلت أيضا. وفي الرابعة، نجحت في تنفيذ نصف الحركة، ثم انتهى بي الأمر جالسا على الأرض. نظرت إلى يديَّ. ثم إلى الأرض. ثم رفعت رأسي نحو السماء. *أحقا يا روح الزمن؟ أعدتني من الموت لأتعرض لهذا القدر من الإهانة؟* لم تجبني السماء، بالطبع. وهذا ما كان متوقعا من إله مزعوم لا يحترم حتى واجباته تجاه من أعادهم إلى الحياة. ومع ذلك، واصلت التدريب. شيئا فشيئا، بدأت أشعر بتغير داخلي. لم يكن الأمر مجرد قوة تزداد في عضلاتي، أو توازن يتحسن مع الأيام. كنت أشعر بأنني أستعيد شيئا أعمق من ذلك؛ إحساسا بالاتصال بين العقل والجسد، بين ما أريده وما أستطيع فعله. كلما نجحت في حركة كنت قد فشلت فيها عشرات المرات، شعرت بفرحة صغيرة تتسلل إلى صدري. وكلما سقطت ونهضت مجددا، كنت أتعلم أن الفشل ليس دائما دليلا على العجز، بل قد يكون مجرد إشارة إلى أن الطريق لا يزال أطول مما توقعت. وللمرة الأولى منذ استيقظت في هذا العالم، لم أعد أشعر بأنني أعيش فقط لأنني أُجبرت على العيش. بدأت أشعر بأنني أريد ذلك حقا. كنت أريد أن أرى إلى أي حد يمكنني الوصول. أريد أن أكتشف ما يستطيع هذا الجسد فعله. أريد أن أضحك، وأن أتعب، وأن أسقط، وأن أنهض، وأن أعود إلى المنزل لأجد أمي تسألني إن كنت قد أكلت جيدا، وأبي يرفع عينيه عن عمله ليسألني كيف كان يومي. كانت تلك الأشياء الصغيرة تمنحني شعورا بالحياة لم أعرفه حتى حين كنت أعيش في القصور. ولم أكن أعلم أنني لم أعد وحدي في الحديقة منذ وقت طويل.

في أحد الصباحات، وبينما كنت أحاول تنفيذ حركة على القضبان الحديدية، سمعت صوتا من خلفي يقول:

«.إنه يحاول فعلها مجددا»

توقفت، ونظرت خلفي بحذر. كان هناك رجلان شابان يقفان قرب إحدى الأشجار، يرتديان ملابس رياضية. وعلى ما يبدو، كانا يأتيان إلى الحديقة بانتظام لممارسة تمارينهما. أحدهما طويل، ذو كتفين عريضتين، والآخر أقصر قليلا، لكنه كان يبدو رشيقا وخفيف الحركة. قال الثاني وهو يبتسم:

«.أعرف. لقد رأيته هنا عدة مرات. يسقط، ثم ينهض، ثم يعيد المحاولة وكأن شيئا لم يحدث»
رائع. أصبحت فقرة الترفيه الصباحية في الحديقة.* حاولت تجاهلهما والعودة إلى التدريب، لكنني شعرت بنظراتهما تلاحق* حركاتي. في البداية، أزعجني الأمر. كنت أفضّل التدريب وحدي، بعيدا عن أعين الناس وتعليقاتهم. لكنني سرعان ما أدركت أنهما لم يكونا يسخران مني. كانا يراقبانني باهتمام حقيقي. وبعد قليل، اقترب الرجل الأطول وقال:

«هل تتدرب على الكاليستنكس؟»

أومأت برأسي.

«.أحاول ذلك»

نظر إلى القضبان، ثم إليَّ.

«منذ متى؟»

«.منذ فترة»

لم أشأ أن أقول له إنني ما زلت أتعلم أساسيات الحركة، ولا أن أشرح له أنني أحيانا أشعر بأن جسدي يرفض تنفيذ أوامر عقلي. ابتسم وقال:

«.حسنا، لديك إصرار واضح. لكنك تضع وزنك بطريقة تجعل الحركة أصعب مما ينبغي»

أشار إلى موضع يديَّ، ثم شرح لي كيف أعدل قبضتي وأحافظ على ثبات كتفيَّ. استمعت إليه بانتباه. لم أكن أحب أن أتلقى الأوامر من الغرباء، لكنني لم أكن أملك سببا لرفض نصيحة يمكن أن تساعدني على التحسن. جربت الحركة مجددا. هذه المرة، كان التنفيذ أفضل. قال الرجل مبتسما:

«.أرأيت؟ الأمر ليس قوة فقط، بل طريقة استخدام القوة أيضا»

تأملت يديَّ للحظة، ثم أجبته بجدية:

«.إذن، إذا كانت المشكلة في طريقة استخدام القوة، فينبغي أن أستطيع تقليل الجهد المبذول مع زيادة دقة الحركة»

نظر إليَّ رفيقه بدهشة. أما الأول، فقد ضحك بخفة وقال:

«.أنت تتحدث وكأنك تحلل معركة عسكرية»

لو كنت تعرف.* كان عليَّ أن أحبس ضحكتي بصعوبة. ومنذ ذلك اليوم، لم تعد الحديقة مكانا أتدرب فيه وحدي فحسب. بدأ بعض* الرياضيين يتحدثون معي، ويصححون أخطائي، ويشرحون لي حركات جديدة. كانوا يستغربون طريقة تفكيري أكثر من استغرابهم لمهاراتي. فأنا لم أكن أتعلم بسرعة خارقة كما قد يتوقع المرء من طفل يمتلك عزيمة قوية، بل كنت أتعثر في الحركة الواحدة مرات لا تحصى. ومع ذلك، كنت أراقب كل محاولة، وأحلل ما حدث، ثم أعود إليها من جديد. إذا أخطأت في موضع قدمي، حاولت فهم السبب. إذا فقدت توازني، راجعت توزيع وزني. وإذا أخفقت في تنسيق حركتين، فصلتهما إلى جزأين، وتدربت على كل منهما حتى أستطيع جمعهما معا. لم يكن ذلك سهلا، لكنه كان ممتعا على نحو لم أستطع تفسيره. وبعد فترة، بدأت أكتشف أن الرياضة ليست مجرد وسيلة لبناء الجسد، بل إنها تمنح الإنسان فرصة ليرى نفسه من زاوية مختلفة. في كل مرة أتجاوز فيها عقبة صغيرة، كنت أشعر بأنني انتصرت على جزء من خوفي القديم؛ ذلك الجزء الذي كان يهمس لي بأن فقدان كل شيء يعني أنني فقدت نفسي أيضا. لكنني لم أفقد نفسي. كنت أعيد اكتشافها، حركة بعد حركة.

ومع مرور الأيام، بدأت ألاحظ أمرا آخر. لم تكن الرياضات الحرة تثير اهتمامي لأنها تجعلني أقوى فحسب، بل لأنها تمنحني حرية لم أعرفها في حياتي الأولى. كنت قد قضيت سنوات طويلة أتدرب على القتال وفق قواعد محددة، وأتحرك وفق أوامر القادة، وأحسب خطواتي حتى لا أترك ثغرة يستغلها العدو. كانت كل حركة في المعركة تحمل غاية واضحة: صد ضربة، أو إصابة خصم، أو حماية شخص، أو النجاة من الموت. أما هنا، فلم يكن عليَّ أن أهزم أحدا. لم يكن هناك عدو ينتظر خطئي، ولا ساحة معركة تغرق في الدماء، ولا صديق يحتضر بين ذراعي ويطلب مني وعدا أعرف أن الوفاء به سيؤلمني بقية حياتي. كان هناك جسدي فقط، والموسيقى أحيانا، وأرض واسعة أستطيع أن أتحرك فوقها دون أن أخشى أن أفقد أحدا بسبب حركة خاطئة. كانت تلك الحرية غريبة عليَّ. وربما لهذا السبب أحببت البريك دانس أكثر مما توقعت. في البداية، كنت أتعامل معه كما أتعامل مع القتال؛ أحلل كل حركة، وأحفظ تسلسلها، وأحاول تنفيذها بدقة صارمة. لكنني اكتشفت أن الدقة وحدها لا تكفي. كان عليَّ أن أتعلم كيف أترك جسدي يتحرك بانسيابية، وكيف أسمح للإيقاع بأن يقودني دون أن أفقد السيطرة. كان الأمر أشبه بمصالحة بين العقل والجسد. العقل يخطط، والجسد ينفذ، لكن الموسيقى تمنحهما مساحة ليتحدثا بلغة لا تحتاج إلى الأوامر. وبمرور الوقت، لم أعد أكتفي بالتدرب على الحركات منفردة. بدأت أجمع بينها، وأبحث عن طريقة تجعل الانتقال من حركة إلى أخرى طبيعيا، كأنها أجزاء من قصة واحدة. كنت أفشل كثيرا. لكنني، للمرة الأولى، كنت أستمتع حتى بالفشل. فكل سقطة كانت تمنحني سببا جديدا للنهوض، وكل حركة أتقنتها كانت تفتح أمامي بابا لم أكن أعرف بوجوده. ولعل أكثر ما أسعدني هو أنني لم أعد أحتاج إلى تبرير ابتسامتي. كان يكفيني أن أنجح في حركة صعبة، أو أن أسمع أحد الرياضيين يشجعني، أو أن أجد نفسي أتحرك بانسيابية أكبر من اليوم السابق. كنت أبتسم ببساطة. كطفل حقيقي، لا كروح رجل يحمل خلف عينيه حياة كاملة من الذكريات.

ثم جاء ذلك اليوم. اليوم الذي قررت فيه أن أجرب الرقص أمام الآخرين للمرة الأولى. كنت قد أمضيت وقتا طويلا أتدرب على مجموعة من الحركات، وأعيد ترتيبها حتى أصبحت أكثر انسجاما. لم أكن أمتلك مهارة راقص محترف، ولم أكن أظن أن ما سأفعله يستحق كل ذلك الاهتمام، لكنني شعرت بأنني مستعد لخوض التجربة. كانت الحديقة أكثر ازدحاما من المعتاد. بعض الرياضيين يتدربون على القضبان، وآخرون يمارسون تمارين المرونة، فيما كان عدد من الشباب يجلسون قرب الممرات ويتبادلون الأحاديث. كنت أتدرب على خطواتي حين سمعت أحدهم يقول:

«مهلا، نيراس! هل ستجرب تلك الحركات التي كنت تتدرب عليها؟»

التفت إليه. كان أحد الرياضيين الذين اعتادوا مساعدتي، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة.

«.ربما»

قال آخر من بعيد:

«!لا تقل ربما! لقد جعلتنا نشاهد تدريباتك السرية لأسابيع. حان وقت العرض»

تدريبات سرية؟ يا إلهي، يبدو أنني أصبحت أسطورة محلية دون علمي.* حاولت التهرب، لكنهم لم يتركوني وشأني. بدأ بعضهم* يصفق بإيقاع منتظم، بينما أخذ آخرون يطالبونني بالتجربة. لم أكن أحب أن أكون مركز الاهتمام، لكنني لم أشعر هذه المرة بالخوف الذي توقعت أن أشعر به. ربما لأنني لم أكن أحاول إثبات شيء لأحد. كنت أريد فقط أن أستمتع. أخرج أحد الشباب هاتفه، وشغّل مقطعا موسيقيا لإحدى أغاني إمينيم، فانطلقت النغمات في الهواء، حادة وسريعة، تحمل طاقة جعلت المكان يبدو وكأنه استيقظ فجأة. نظرت إلى مصدر الصوت. ثم إلى المجموعة التي بدأت تتجمع حولي. وأخيرا، أخذت نفسا عميقا. *حسنا يا نيراس. إنها مجرد رقصة. لن يقتلك أحد إن أخطأت.* توقفت للحظة. *على الأرجح.* ثم بدأت. في الثواني الأولى، تحركت بخطوات بسيطة، أختبر الإيقاع وأضبط توقيت حركاتي. انتقلت من حركة إلى أخرى، مستخدما ذراعيَّ وكتفيَّ في تناغم مع الموسيقى، ثم انخفضت بجسدي قليلا وانتقلت إلى حركة أكثر سرعة. كانت كل حركة تحمل جزءا من التدريب الطويل الذي سبقها. لم أكن أفكر في كل خطوة كما كنت أفعل في الماضي؛ لم أعد أحتاج إلى تحليل كل تفصيل بوعي كامل. بدأت عضلاتي تستجيب بصورة أفضل، وراح جسدي يتذكر ما تعلمه خلال الأسابيع الماضية. وحين وصلت الموسيقى إلى مقطع أكثر حيوية، اندفعت إلى سلسلة من الحركات المتتابعة، أغير اتجاهي بسرعة، وأدور بجسدي، ثم أستعيد توازني وأنتقل إلى الخطوة التالية. لم تكن حركاتي مثالية، لكنني لم أعد ذلك الطفل الذي يسقط بعد كل محاولة. كنت أتحرك بثقة متزايدة، وأسمح للموسيقى بأن تمنحني الإيقاع الذي كنت أبحث عنه. ثم جاءت اللحظة التي كنت أتدرب عليها منذ أيام. انخفضت بجسدي، وضعت يدي على الأرض، وبدأت حركة دوران قصيرة، ثم دفعت نفسي إلى وضعية أكثر ثباتا، قبل أن أنهض بسلاسة وأكمل الرقصة. لم أسمع شيئا سوى الموسيقى. لم أر سوى المساحة أمامي. ولم أشعر بشيء سوى تلك الحرية الغريبة التي جعلتني أنسى، ولو لدقيقة واحدة، أنني كنت يوما فارسا مات وهو يحمل قلبا مثقلا بالندم. وحين انتهى المقطع الذي كنت أرقص عليه، ختمت حركاتي بخطوة أخيرة، ثم ثبتُّ في مكاني للحظة. ساد الصمت. نظرت إلى الواقفين حولي، وقد بدأت أتساءل إن كنت قد ارتكبت خطأ فادحا دون أن أنتبه. ثم... انفجرت الحديقة بالتصفيق.

«!يا إلهي»

«!كيف تعلمت هذا؟»

«!أعدها! أعدها مرة أخرى»

«!انتظر، انتظر! هل رأيتم الحركة الأخيرة؟ لقد انتقل من الدوران إلى الوقوف وكأن الأمر لا يحتاج إلى أي جهد»

أما الرجل الذي ساعدني في تعلم أساسيات الكاليستنكس، فقد كان يحدق بي بفم مفتوح. اقترب مني وقال:

«لحظة واحدة... أليس هذا أول عرض لك أمام الناس؟»

أومأت برأسي، وأنا أحاول التقاط أنفاسي.

«.نعم»

«وأنت تتدرب منذ أسابيع فقط؟»

«.نعم»

وضع يديه على رأسه، ثم التفت إلى صديقه.

«!هل رأيت هذا؟! هذا الصغير كان يتدرب وحده كل صباح، وكنت أظن أنه يحاول فقط تعلم بعض الحركات الأساسية»

ضحك صديقه وهو يصفق.

«!لقد كان يخفي عنا كل هذا»

أخفيه؟ يا رجل، أنا نفسي لم أكن أعرف أنني أستطيع فعله!* لم أقل ذلك بصوت مرتفع، بالطبع. اكتفيت بابتسامة خجولة، بينما كان* بعض الشباب يطلبون مني أن أعيد الحركة الأخيرة حتى يتمكنوا من رؤيتها بوضوح. أعدتها لهم ببطء، وبدأت أشرح كيف وزعت وزني، وأين وضعت يدي، وكيف انتقلت من الحركة الأولى إلى الثانية دون أن أفقد توازني. استمعوا إليَّ باهتمام، لكن أحدهم قاطعني قائلا:

«!أنت تشرح الأمر وكأنك تعلمنا كيفية عبور ساحة معركة»

تجمدت ابتسامتي للحظة. ثم ضحكت.

«.ربما لأنني أفكر كثيرا»

قال الرجل الأطول وهو يهز رأسه بإعجاب:

وهذه بالضبط ميزتك. أنت لا تتعلم الحركة فحسب؛ أنت تحاول فهمها. حتى عندما تخطئ، لا تكرر الخطأ بالطريقة نفسها دون» «.تفكير. تتوقف، تراجع ما فعلته، ثم تحاول مجددا

وأضاف صديقه:

والأغرب أنك لا تغضب عندما تفشل. معظم الناس يتوقفون عندما يشعرون بالإحراج، أما أنت فتسقط، ثم تنهض وكأنك تقول» «!للأرض: لن تنتصري هذه المرة أيضا

لم أستطع منع نفسي من الضحك.

«.في الحقيقة، بدأت أعتقد أن الأرض تحمل ضغينة شخصية ضدي»

انفجروا ضاحكين. وكان ذلك أول يوم أدرك فيه هؤلاء الرياضيون أن الطفل الهادئ الذي اعتاد التدريب في أوقات الفراغ يمتلك قدرة لافتة على التعلم، ليس لأنه يتقن كل شيء من المحاولة الأولى، بل لأنه يرفض أن يجعل المحاولة الفاشلة نهاية الطريق. وبالنسبة إليَّ، كان ذلك اليوم أكثر من مجرد رقصة ناجحة. كان أول مرة أسمح فيها لنفسي بأن أظهر أمام الآخرين دون أن أختبئ خلف صورة الفارس المثالي الذي يجب أن يكون قويا دائما، وأن يعرف الإجابة عن كل سؤال، وأن يتحمل كل ألم دون أن يشتكي. كنت مجرد طفل يرقص على أنغام أغنية يحبها. طفل يسقط أحيانا، ويخطئ كثيرا، لكنه يستمتع بكل لحظة يقضيها في التعلم. ولم أشعر قط بأنني أقرب إلى الحياة مما شعرت به في تلك اللحظة.

بعد ذلك اليوم، تغيرت أشياء كثيرة في الحديقة. لم يعد بعض الرياضيين يكتفون بإلقاء التحية عليَّ عندما أصل؛ بل أصبحوا ينادونني من بعيد، ويطلبون مني أن أريهم ما تعلمته، أو يسألونني إن كنت قد أتقنت حركة جديدة. كان أحدهم يعلمني طريقة أفضل لأداء حركة على القضبان، بينما يحاول آخر أن يشرح لي كيفية تحسين مرونتي. أما محبو البريك دانس، فقد أصبحوا يتعاملون معي وكأنني مشروع راقص صغير ينبغي مراقبة تطوره يوما بعد يوم. وكنت أتعلم منهم جميعا. أتعلم الحركات، وأتعلم الصبر، وأتعلم أن لكل شخص طريقته الخاصة في التعبير عن نفسه. وبمرور الوقت، بدأت أستطيع تنسيق عدة مهارات في سلسلة واحدة؛ أبدأ بحركات بسيطة، ثم أنتقل إلى خطوات راقصة، وأدمج بينها وبين حركات تعتمد على التوازن والتحكم في الجسد. لم تكن كل محاولة ناجحة، بالطبع. في إحدى المرات، حاولت دمج حركتين قبل أن أتقن الانتقال بينهما، فانتهى بي الأمر على الأرض، بينما انحنى أحد الشباب من الضحك حتى كاد يفقد توازنه. نظرت إليه من مكاني.

«هل انتهيت؟»

حاول أن يتوقف عن الضحك، لكنه لم يستطع.

«...آسف... آسف... لكن وجهك حين سقطت»

نهضت، ونفضت الغبار عن ملابسي، ثم قلت بجدية مصطنعة:

«.أريد تسجيل شكوى رسمية ضد الجاذبية»

عاد الضحك من جديد. حتى إن أحدهم قال:

«!أقسم إن هذا الطفل أخطر من كل الرياضيين الذين قابلتهم! إنه يسقط، ثم يجعلنا نحن نشعر بالذنب لأننا ضحكنا»

لم أكن أخطر منهم، بالطبع. لكنني كنت أملك سرا لم يعرفه أي منهم. وراء هذا العقل الصغير الذي يخطط لكل حركة، كانت هناك ذكريات رجل عاش حياة كاملة، وتعلم بالطريقة القاسية أن الإنسان لا يستطيع التحكم في كل ما يحدث له. لقد خسرت أصدقاء، وفقدت حبي، ورأيت أحلامي تتحطم أمام عيني، ثم متُّ وأنا أحمل في صدري كلمات لم أعد أستطيع قولها. لكنني الآن كنت أتعلم شيئا لم أفهمه في حياتي الأولى. **ليس من الضروري أن تكون كل معركة من أجل النجاة، وليس من الضروري أن يكون كل انتصار على حساب شخص آخر.** أحيانا، يكون الانتصار الحقيقي أن تتعلم حركة جديدة بعد عشرات المحاولات. أن تضحك بعد سقوط محرج. أن تسمح للآخرين بمساعدتك دون أن تشعر بأنك أصبحت أضعف. وأن تجد شيئا يجعلك ترغب في الاستيقاظ صباحا، لا لأن عليك واجبا تؤديه، بل لأنك تتطلع إلى معرفة ما الذي ستتعلمه في ذلك اليوم. كنت أعود إلى المنزل متعبا، وعضلاتي تؤلمني، وملابسي تحمل آثار التدريب، لكنني كنت أشعر براحة غريبة. وحين تسألني أمي عن يومي، كنت أحدثها عن الحركات الجديدة التي تعلمتها، وعن الرياضيين الذين ساعدوني، وعن المرة التي نجحت فيها أخيرا في تنفيذ حركة عجزت عنها طوال أيام. كانت تستمع إليَّ بابتسامة دافئة، وأحيانا تضحك حين أعيد تمثيل سقطة تعرضت لها. أما أبي، فكان يرفع عينيه عن أوراقه، وينظر إليَّ للحظات، ثم يقول:

«.يبدو أنك تستمتع كثيرا بوقتك»

كنت أجيبه:

«.أجل يا أبي»

وكانت تلك الإجابة البسيطة تحمل من الصدق أكثر مما استطعت قوله في سنوات طويلة من حياتي السابقة. نعم، كنت أستمتع. كنت أعيش. ولم أعد أريد أن أكون مجرد فارس عظيم، أو محارب لا يُهزم، أو شخص يستطيع تحمل الألم أكثر من غيره. أردت أن أكون نيراس. ذلك الطفل الذي بدأ يتعلم كيف يستخدم جسده، وكيف يتحرك مع الموسيقى، وكيف يصنع لنفسه مكانا في هذا العالم دون أن يحمل سيفا في يده. ومع ذلك، كنت أعرف أن الطريق لا يزال طويلا. فجسدي ما زال ينمو، وقدراتي ما زالت محدودة، والهوة بين ما يتذكره عقلي وما يستطيع جسدي فعله لم تختف تماما. لكنني لم أعد أخشى تلك الهوة كما كنت أفعل في البداية. لقد تعلمت أن أعبرها خطوة بعد خطوة. وكلما سقطت، نهضت. وكلما أخطأت، حاولت مجددا. وكلما سمعت التصفيق من حولي، تذكرت أنني لم أعد مضطرا إلى العيش وحيدا في عالم لا يعرف عن آلامي شيئا. ربما لم أعد أملك حياتي القديمة. وربما لن أستطيع استعادة كل ما فقدته فيها. لكن هذه الحياة كانت ملكي الآن. وكانت لديَّ رغبة صادقة في أن أعيشها حتى النهاية. أما روح الزمن... فإذا كانت تراقبني في مكان ما، فأرجو أن تستمتع بما فعلته. لأنني، إن التقيت بها مجددا، فسأجعلها تتعلم البريك دانس رغما عنها. وأقسم أنني سأضحك كلما سقطت.

الفصل الرابع عشر: أعياد لم أعرفها، ومغامرات لم أخطط لها

كانت سنوات الابتدائية من أجمل فترات حياتي الثانية. تعلمت فيها أشياء كثيرة، كوّنت صداقات، وبدأت أفهم كيف يعيش الأطفال في هذا العالم. وبالطبع، كان أشين مسؤولا عن نصف المشاكل التي واجهتها، والنصف الآخر كان نتيجة قرارات اتخذناها معا ثم اتفقنا على إنكارها. لكنني لم أكن أتوقع أن تنتهي تلك المرحلة لأكتشف أن هناك مرحلة أخرى تُدعى «الإعدادية»! حين أخبرني والداي بذلك، ظننت في البداية أنها مدرسة ابتدائية أكبر قليلا، لكنني اكتشفت أنني كنت مخطئا تماما. ففي يومي الأول، وقفت أمام المبنى أحدق فيه بدهشة؛ كان أوسع من مدرستي القديمة، وممراته أطول، وساحته أكبر، حتى إنني تساءلت إن كنت سأحتاج إلى خريطة كي أجد قسمي. أما أشين، فقد وقف بجانبي وهو يحدق في المبنى ثم قال: «تخيل أن نضيع هنا ولا يجدنا أحد حتى نهاية العام!» أجبته ببرود: «في حالتك، قد يكون ذلك راحة للمدرسين.» فضحكنا وتوجهنا إلى الداخل. وبينما كنا نتفحص المكان، لاحظت أمرا غريبا آخر: كان الأولاد يرتدون ملابسهم العادية، بينما ترتدي الفتيات مآزر مدرسية. حدقت في الأمر قليلا محاولا فهم الحكمة منه، لكنني لم أجد تفسيرا منطقيا. *هل هناك خطر يهدد الفتيات تحديدا من ملابس المدرسة، أم أن أحدهم قرر ذات يوم أن هذا هو النظام وانتهى النقاش؟* قررت ألا أشغل عقلي بمسألة لن أجد لها إجابة، خصوصا أنني كنت أحاول تذكر الطريق إلى القسم، بينما كان أشين يتصرف وكأنه يعرف المدرسة منذ عشر سنوات، رغم أنه كان يسير خلفي منذ البداية.

ومع انشغالي بالحديث عن المدرسة، كدت أنسى تجربة تستحق أن أتوقف عندها: **عيد ميلادي الأول في هذه الحياة**. لم أكن قد اعتدت الاحتفال بعيد ميلادي في حياتي السابقة بالطريقة التي يحتفل بها الأطفال هنا؛ لم تكن هناك كعكة تتوسط الطاولة، ولا شموع صغيرة تنتظر أن أطفئها، ولا أفراد عائلة يجتمعون حولي بابتسامات صادقة. لذلك، حين دخلت غرفة المعيشة في ذلك المساء ورأيت الكعكة المزينة والشموع المضيئة، توقفت عند الباب دون أن أشعر. كانت أمي تبتسم، وأبي يقف بجانبها، وقد حضّر الاثنان احتفالا صغيرا من أجلي. وحين بدأا يغنيان، شعرت بشيء دافئ يتسلل إلى صدري. بدت اللحظة بسيطة للغاية، لكنها كانت بالنسبة إليَّ شيئا لم أعرف كيف أصفه. اقتربت من الكعكة، ونظرت إلى الشموع، ثم أغمضت عيني لأتمنى أمنية. لم أطلب القوة، ولم أتمنَّ العودة إلى حياتي القديمة، ولم أفكر في الانتقام أو في الأشياء التي خسرتها. تمنيت فقط أن تبقى هذه اللحظات معي طويلا. نفخت الشموع، فصفقت أمي بحماس، بينما قال أبي مبتسما: «والآن، حان وقت الكعكة!» لم أحتج إلى دعوة ثانية. جلست معهما، وتذوقت أول قطعة، وكانت ابتسامتي كافية لتخبرهما بأنني سعيد. لكنهما لم يعرفا أنني كنت أحاول إخفاء دموعي. لم تكن دموع حزن، بل كانت دموع شخص اكتشف أخيرا أن السعادة قد تأتي في صورة كعكة صغيرة، وشموع مطفأة، وعائلة لا تطلب منه شيئا سوى أن يكون سعيدا. في تلك الليلة، أدركت أنني لم أكن أحتاج إلى قصر أو لقب أو إنجاز عظيم كي أشعر بأنني مهم؛ كنت أحتاج فقط إلى مكان أنتمي إليه.

أما مغامرتي الأولى مع أصدقائي خارج المنزل، فقد كانت قصة مختلفة تماما. كنت في العادة قليل الخروج، فأنا أفضل قضاء وقتي في التدريب أو اللعب أو البقاء مع عائلتي، لكن أشين لم يكن يرى في ذلك أسلوب حياة مقبولا. وبعد إلحاح طويل، وافقت على الخروج معه ومع بعض أصدقائنا لقضاء يوم في المدينة. بدأ الأمر بجولة عادية في الأزقة، نتبادل الأحاديث ونضحك على أمور لا تستحق الضحك أصلا. ثم قررنا زيارة المدينة العتيقة، حيث بدت الشوارع الضيقة والمباني القديمة وكأنها تحتفظ بأسرار من زمن بعيد. كنت أتأمل الأبواب الخشبية المزخرفة والجدران العتيقة، وأتخيل كيف كانت الحياة هنا قبل سنوات طويلة. للحظة، شعرت بأنني عدت إلى عالم يشبه عالمي السابق، لولا أن أشين كان يسير بجانبي ويشرح لأحد أصدقائنا بثقة كيف يستطيع معرفة عمر المبنى من شكل بابه، مع أنه كان يخترع الكلام من رأسه. بعد جولة طويلة، توقفنا عند أحد الباعة واشترينا بعض الطعام. لم يكن طعام القصور الفاخرة، لكنه كان لذيذا، وربما لأننا تناولناه ونحن نضحك ونتبادل التعليقات السخيفة. وبعد أن انتهينا، بدأ الجانب المظلم من شخصية أشين يظهر. اقترح أن نطرق أحد الأبواب ثم نهرب. حدقت فيه غير مصدق. «هل قطعت كل هذه المسافة كي تقترح علينا فعلا يقوم به طفل في الخامسة؟» ابتسم ابتسامته المشبوهة وقال: «أنت تتحدث كثيرا يا نيراس. هل أنت خائف؟» يا لها من جملة سحرية! يبدو أن بعض الناس لا يتطورون مهما تقدم بهم العمر. وبعد نقاش قصير، وجدت نفسي أركض معه في أحد الأزقة بعد أن طرق أحدنا الباب وهربنا وسط ضحكات مكتومة. لم تكن مغامرة عظيمة، ولم ننقذ مملكة أو نهزم جيشا، لكنني لم أتذكر آخر مرة ضحكت فيها بهذا القدر دون أن أفكر في الماضي أو المستقبل. وحين عدت إلى المنزل مساء، كنت متعبا من المشي، وشعري مبعثرا، وابتسامتي لا تفارق وجهي. سألتني أمي عن يومي، فأخبرتها أننا تجولنا في المدينة العتيقة وتناولنا الطعام. لم أذكر لها بقية التفاصيل، بالطبع؛ فهناك أسرار ينبغي أن تبقى بين الأصدقاء، خصوصا عندما تكون تلك الأسرار سببا محتملا في توبيخك. استلقيت على سريري في تلك الليلة، أفكر في يومي، ثم ابتسمت. لقد عشت حياة كاملة من قبل، وعرفت الفقد والحرب والندم، لكنني بدأت أكتشف أن الحياة لا تُقاس فقط بالأحداث العظيمة التي تغيّر مصير العالم؛ أحيانا تُقاس بكعكة عيد ميلاد، أو جولة بين الأزقة القديمة، أو بضحكة صديق أحمق يقنعك بارتكاب حماقة صغيرة. ومع ذلك، كان لدي شعور بأن أشين لن يكتفي بتلك الحماقة الصغيرة، وأن الأيام القادمة ستحمل لنا مشاكل أكبر بكثير

الفصل الخامس عشر: مغامراتي مع عائلتي

لم أكن أظن أنني سأواجه في حياتي الثانية عدوا أعجز عن هزيمته بالسيف أو العقل، عدوا لا يرتدي درعا، ولا يحمل سلاحا، ولا يحتاج إلى جيش ليجعلني أشعر بالعجز التام. كنت أظن أنني، بعد كل ما عشته في حياتي السابقة، قادر على مواجهة أي شيء. لكنني اكتشفت أنني كنت مخطئا حين بدأت المرحلة الإعدادية، وتحديدا عندما فتحت كتاب الرياضيات لأول مرة ووجدت الحروف الإنجليزية تتسلل بين الأرقام وكأنها قررت احتلال مملكتي الخاصة. حدقت في الصفحة طويلا، ثم قلبتها، لعلني أجد تفسيرا في الصفحة التالية، لكن الوضع ازداد سوءا. أرقام، وحروف، ورموز، ومعادلات تبدو وكأنها رسالة مشفرة أرسلها عدو مجهول لإعلان الحرب على عقلي. أعدت قراءة السؤال مرة، ثم مرتين، ثم وضعت القلم على الطاولة ونظرت إلى السقف. *انتظر لحظة... لماذا توجد حروف في الرياضيات؟ ألم يكن لدينا ما يكفي من الحروف في اللغة؟ هل قرر أحدهم أن الأرقام تشعر بالوحدة، فأرسل إليها الحروف لتؤنسها؟* في حياتي الأولى، كنت أتعامل مع مسائل الاستراتيجية العسكرية التي تتطلب حساب المسافات وتقدير أعداد الجنود والموارد. كنت أستطيع تحليل تحركات جيش كامل، والتنبؤ بالخيارات التي قد يتخذها قائده، لكنني الآن عاجز عن فهم على الاختباء داخل معادلة. والأسوأ أن المدرس كان يتحدث عن هذا الأمر وكأنه أبسط شيء في العالم! \(x\) سبب إصرار حرف قال ذات مرة: «نعوّض قيمة المجهول في المعادلة، ثم نستخرج الناتج.» *المجهول؟! كنت أظن أنني جئت إلى المدرسة لأتعلم، لا لأحقق في قضية اختفاء حرف!*

كان أشين يجلس بجانبي، وقد لاحظ أنني أحدق في الكتاب بملامح رجل اكتشف خيانة أقرب حلفائه. مال نحوي وهمس: «هل فهمت الدرس؟» التفت إليه ببطء وقلت: «أشين، لقد واجهت في حياتي أشياء كثيرة، لكنني لم أتوقع أن يأتي اليوم الذي أضطر فيه إلى استجواب حرف أبجدي.» كتم ضحكته بصعوبة، ثم أشار إلى السؤال وقال: «الأمر سهل، انظر، عليك فقط أن تنقل هذا إلى الطرف الآخر...» توقفت عن الاستماع بعد جملته الأولى. *ينقل ماذا؟ وإلى أين؟ هل نحن في درس رياضيات أم عملية تهريب؟* ومع ذلك، لم أستطع إنكار أن هذا العالم يملك قدرة عجيبة على مفاجأتي. كنت أتعلم أشياء لم تخطر ببالي في حياتي الأولى، وأكتشف أن ما كنت أعدّه مستحيلا ليس إلا أمرا عاديا هنا. ولعل المشكلة لم تكن في الرياضيات نفسها، بل في غروري القديم الذي جعلني أظن أنني، لأنني امتلكت عقلا قادرا على التخطيط للحروب، سأتمكن من فهم كل شيء بسهولة. الحياة لا تهتم بما كنت عليه؛ إنها تضع أمامك تحديا جديدا، ثم تنتظر منك أن تتعلم كيف تواجهه. ومع ذلك، أصر على أن من أدخل الحروف إلى الرياضيات يستحق جلسة تحقيق رسمية.

في المنزل، كانت هناك معركة أخرى تُحضّر دون علمي.** دخلت المطبخ بعد عودتي من المدرسة، وأنا أفكر في الواجبات التي تنتظرني، فرأيت أبي، فيكتور، واقفا أمام الخزانة ممسكا بكأس زجاجي مكسور. كانت ملامحه جامدة، لكنه كان ينظر إلى الكأس كما ينظر رجل إلى دليل إدانة لا يستطيع إخفاءه. اقتربت منه، ثم نظرت إلى الكأس، وبعدها إلى وجهه. «أبي... ماذا فعلت؟» التفت إليَّ ببطء وهمس: «لقد انزلق من يدي.» حدقت في الكأس مرة أخرى، ثم أدركت الكارثة الحقيقية. لم يكن كأسا عاديا؛ كان **كأس أمي المفضل**. في تلك اللحظة، لم أعد أرى أبي كما اعتدت رؤيته، بل رأيت رجلا يقف على خط المواجهة الأخير، محاصرا بجيش لا يرحم، ولا يملك سوى الأمل في النجاة. تناولت طنجرة من الرف ووضعتها فوق رأسي كخوذة، ثم وقفت إلى جانبه وقلت بجدية عسكرية: «رسميا، أنا في الخطوط الأمامية بعد أن كسر أبي الكأس المفضل لأمي. إن لم أعد، فأخبروا أشين أنني مت وأنا أدافع عن رجل أحمق.» نظر إليَّ أبي بقلق وقال: «إياك أن تخبرها!» أجبته وأنا أعدل الطنجرة فوق رأسي: «لا تقلق، أبي. سأحافظ على

سرنا حتى آخر نفس.» لم تمض سوى لحظات حتى سمعنا خطوات أمي تقترب من المطبخ. تجمدنا في مكاننا، وكأن الزمن توقف احتراما لحجم المصيبة. دخلت سالفيا، ونظرت إلى الكأس المكسور، ثم رفعت عينيها إلينا. «ما الذي حدث هنا بحق السماء؟!» كنت لا أزال أرتدي الطنجرة فوق رأسي، فرفعت يدي وقلت: «أرجوك، لا تأخذي هذه المعلومات أبدا!» ساد الصمت لثوانٍ. حدقت أمي فيَّ، ثم في الطنجرة، ثم في أبي الذي كان يحاول إخفاء يديه خلف ظهره. تنهدت وقلت: «حسنا، توقفي عن الصراخ، سأخبرك بكل شيء!» رد أبي بسرعة: «لكنها لم تصرخ!» التفتت أمي إليه وقالت بهدوء مخيف: «فيكتور، أنا أراك تحت الطاولة.» انخفض رأسي تلقائيا، فاكتشفت أن أبي اختفى بالفعل خلف الطاولة. جاء صوته مكتوما: «فيكتور غير متوفر حاليا.» عقدت أمي ذراعيها وقالت: «اخرج أيها الأبله!» فأجابها: «لا أستطيع، أنا عالق!» لم أتمالك نفسي، فانفجرت ضاحكا، لكن ضحكتي انقطعت عندما التفتت أمي نحوي وسألت: «إذن، من كسر الكأس؟» نظرت إلى أبي، ثم إلى أمي، وشددت قبضتي حول حافة الطنجرة. «لقد وعدت أبي أنني لن أشي به!» رفع أبي رأسه من تحت الطاولة وقال بفخر: «هذا ابني!» نظرت إليه أمي، فعاد إلى الاختباء فورا.

نهض أبي أخيرا، ونفض ملابسه، ثم قال بنبرة رسمية: «أعتذر، يجب أن أحضر شيئا من المطبخ.» رمشت عدة مرات وأنا أحدق فيه. «أبي... نحن في المطبخ.» توقف عند الباب، ونظر حوله، ثم ابتسم ابتسامة مرتبكة. «كنت أقصد... المطبخ الآخر.» وما إن وصل إلى الباب حتى انطلق هاربا كأن حياته تعتمد على سرعته. لم تتحرك أمي للحاق به؛ اكتفت بالتنهد، ثم خرجت من المطبخ بخطوات هادئة. وبعد لحظات، سمعنا صوتها أمام إحدى الغرف: «فيكتور، أستطيع رؤية قدميك.» جاء صوته من الداخل: «فيكتور غير متوفر!» أغمضت عيني وأنا أضحك حتى شعرت بألم في بطني. كان أبي رجلا عاقلا، محترما، قادرا على التعامل مع القضايا المعقدة، لكنه تحول أمام كأس مكسور إلى طفل يحاول الاختباء من أمه. أما أنا، فقد اكتشفت أن ارتداء الطنجرة لا يمنحك الحماية من العواقب، بل يجعلك تبدو أكثر تورطا.

في تلك الليلة، جلست في غرفتي أتذكر ما حدث، ثم وجدت نفسي أقارن بين حياتي الأولى وهذه الحياة. كنت في الماضي أرى الخوف في عيون الجنود، وأسمع صرخات الرجال في ساحات المعارك، وأعود إلى غرفتي حاملا ذكريات لا أستطيع مشاركتها مع أحد. أما الآن، فأنا أضحك على أبي لأنه كسر كأسا، وأسمع أمي توبخه، وأشعر بأنني جزء من فوضى عائلية صغيرة لا تؤذي أحدا.

لم تكن حياتي الحالية مثالية، ولم تكن خالية من المشكلات، لكنني بدأت أؤمن بأنني لم أُمنح هذه الفرصة الثانية لأستعيد ما فقدته فحسب؛ ربما مُنحت لي لأكتشف ما لم أعرفه قط. في حياتي الأولى، كنت أظن أن قدري هو أن أصبح فارسا، وأن أحمي الآخرين حتى لو كان الثمن حياتي. وقد فعلت ذلك، لكنني رحلت دون أن أعرف كيف يكون للمرء بيت يعود إليه، وأب يرتكب حماقة ثم يختبئ، وأم تغضب لأنها تحب الأشياء التي تجمع ذكرياتها. ربما لم يكن قدري في هذه الحياة أن أكون بطلا عظيما، وربما لم أكن بحاجة إلى لقب أو سيف لأثبت أن لحياتي معنى. **ربما كانت هذه هي الحياة التي احتجت إليها منذ البداية؛ حياة لا أضطر فيها إلى الموت كي أكون جديرا بالحب، ولا إلى التضحية بكل شيء كي أشعر بأنني أنتمي إلى مكان ما.*ابتسمت وأنا أسمع أبي يهمس لأمي من خلف الباب: «هل انتهى الأمر؟» فأجابته: «سنتحدث عن الكأس غدا.» ثم سمعت خطواته تبتعد بسرعة. تنهدت وغطيت وجهي بالوسادة. يبدو أن أمامي الكثير لأتعلمه في هذه الحياة، بدءا من الجبر، وانتهاء بكيفية النجاة من غضب أمي

الفصل السادس عشر: حين عانق الماضيُ الحاضر

لطالما أحببتُ حصص التاريخ. قد يبدو ذلك غريبًا بالنسبة إلى طالب في عمري، خصوصًا أن معظم زملائي كانوا يرون التاريخ مجموعةً من التواريخ الجافة، وأسماء الملوك، ومعاهداتٍ لم يسمع بها أحد خارج قاعة الدرس. أما أنا، فكنت أراه شيئًا مختلفًا تمامًا. كانت الحروب والمعارك أشبه بكتب مفتوحة أمامي، أستطيع من خلالها فهم قرارات القادة، وتحليل تحركات الجيوش، واكتشاف الأخطاء التي كلّفت آلاف الرجال حياتهم. وفوق ذلك كله، كنت أريد معرفة المزيد عن أسلحة العصور الأخرى؛ فالسيف الذي أتقنت استعماله في حياتي السابقة لم يكن سوى قطعة واحدة من تاريخ طويل لم تتح لي فرصة استكشافه. في ذلك الصباح، كنت أتابع الأستاذ باهتمام حقيقي، بينما جلس أشين خلفي، وإلى جواره فريسيا، الفتاة التي دافعت عنها في المدرسة سابقًا. كانت تجلس بجانبه بحكم أنها زميلتنا، وقد اعتاد الثلاثة منا العودة إلى المنزل معًا. مال أشين نحوي وهمس بمكر: «أسمع، لقد سمعت أن هناك فتاة تنوي الاعتراف لك.» كدت أبتسم. كان أشين بارعًا في اقتحام أحاديث الآخرين دون استئذان، لكنه كان أكثر براعة في إفساد لحظات التركيز. التفتُّ نحوه لأجيبه، غير أن غريزتي سبقت تفكيري. شيء ما اندفع نحوه. توقّف إصبعي أمام عينه مباشرة، ممسكًا بقطعة طبشور كانت تتجه إلى رأسي قبل لحظات. ساد الصمت. حدّقت في الطبشور بين أصابعي، ثم رفعت عيني ببطء نحو الأستاذ، الذي كان يقف أمام السبورة بملامح تجمع بين الدهشة والرضا. قال وهو يعقد ذراعيه: «رائع! ما دمتَ مركزًا إلى هذا الحد، ولديك ردة فعل كهذه، فأجبني: كيف يستطيع هذا الفيلق، بهذا العدد الصغير، أن ينجو من جيش يفوقه عددًا بثلاثة أضعاف؟» نظرت إلى الخريطة المرسومة على السبورة. وللحظة، لم أعد أرى السبورة. رأيت خريطة أخرى، فوق طاولة خشبية في غرفة استراتيجية داخل القصر الملكي. شممت رائحة الحبر والجلد القديم، وسمعت صوت أستاذي العسكري وهو يشرح لنا كيفية التعامل مع جيش يفوقنا عددًا. كان آرثر يقف بجانبي، يعبث بخنجره الصغير، ثم مال نحوي هامسًا بأنه يفضّل مواجهة الجيش كله على الجلوس ساعة أخرى أمام تلك الخرائط. كدت أضحك آنذاك. يا للسخرية... حتى ذكرياتي السعيدة كانت تعرف كيف تعود إليّ في أكثر اللحظات غرابة. أعدت نظري إلى الخريطة الحالية وقلت بهدوء: «لا ينبغي لهذا الفيلق أن يحاول هزيمة الجيش الأكبر في مواجهة مباشرة. عليه أن يستغل تضاريس المنطقة، ويوهم العدو بأنه يتراجع، ثم يجرّه إلى ممر ضيق لا يستطيع فيه نشر كامل قوته. نضع قوة صغيرة عند الممر لتثبيته، ونرسل بقية الجنود عبر المرتفعات للالتفاف على مؤخرته وقطع خطوط الإمداد. وحين يدرك العدو ما يحدث، سيكون قد خسر قدرته على المناورة قبل أن يخسر رجاله.» توقفت لحظة، ثم أضفت: «لكن نجاح الخطة يعتمد على سرعة التنفيذ، وإلا تحولت القوة الصغيرة إلى مقبرة.» تأمل الأستاذ الخريطة، ثم نظر إليّ وكأنه اكتشف للتو أن أحد طلابه يخفي جيشًا كاملًا داخل رأسه. «أنا معجب بذكائك يا نيراس! لقد سألتك كيف ينجو هؤلاء الجنود، لكنك أعطيتني خطة للفوز! أقسم أنك وُلدت في الزمن الخطأ!» ابتسمت ابتسامة صغيرة. الزمن الخطأ، حقًا؟ لو كنت تعرف كم أصبتَ في وصفك، لربما لم تضحك. فأنا الذي عشت زمن السيوف والدروع، والذي دفنتُ صديقًا تحت سماء ملطخة بالدخان، أقف الآن في فصل دراسي، أحاول حل مسألة عسكرية بينما يفكر زميلي في اعتراف فتاة مجهولة. يا لها من سخرية قدر.

رن الجرس أخيرًا، وانطلقنا نحن الثلاثة نحو المنزل. كان أشين يتحدث بحماس عن إجابة الأستاذ، بينما كانت فريسيا تضحك كلما أعاد تقليد ملامحه المندهشة. كنت أستمع إليهما، وأشعر بشيء يشبه الطمأنينة؛ ذلك النوع البسيط من السعادة الذي لم أكن أعرف قيمته في حياتي السابقة. ثم دوّى الانفجار الأول. اهتز الهواء من حولنا، وتبعه انفجار ثانٍ، ثم ثالث، متقاربًا وعنيفًا بما يكفي لجعل النوافذ ترتجف. ضحك أشين في البداية، معتقدًا أنها أعمال صيانة أو ألعاب نارية. حتى فريسيا التفتت نحو مصدر الصوت بفضول. أما أنا... فقد توقف العالم. لم يكن صوتًا عاديًا بالنسبة إليّ. لم يصل إلى أذني فحسب؛ بل اخترق شيئًا عميقًا في داخلي، شيئًا ظننته مات منذ زمن. اختفت أصوات الشارع، وتلاشت الوجوه والألوان، وحلّت محلها رائحة البارود والدم والتراب المبتل. لم أعد في الشارع. كنت هناك مجددًا. في ساحة المذبحة. حاولت التنفس، لكن الهواء بدا كثيفًا كأنه يتحول إلى رماد داخل رئتي. تراجعت خطواتي دون وعي، ثم انكمشت على نفسي، جالسًا القرفصاء. ضغطت إحدى يدي على فمي، كأنني أستطيع حبس الصرخة خلف أصابعي، بينما قبضت الأخرى على صدري بعنف، محاولًا إيقاف قلبٍ بدا وكأنه يريد تحطيم أضلعي والخروج. لا... ليس مجددًا. لم

أعد أسمع صوتي. رأيت الجنود يتساقطون. رأيت الأرض التي ابتلعت أحلامهم، والوجوه التي لم أستطع إنقاذها. كان الدخان يخنق السماء، وكانت صرخات المحتضرين تتداخل حتى أصبحت صوتًا واحدًا لا ينتهي. ثم رأيته. آرثر. كان مستلقيًا بين ذراعي، شاحب الوجه، والدم يسيل من جروحه. عيناه اللتان اعتادتا الضحك كانتا تفقدان بريقهما ببطء، بينما كنت أضغط على جرحه بيدين مرتجفتين، متوسلًا إليه أن يبقى. كنت أعرف ما سيحدث. ومع ذلك، لم أستطع إيقافه. «آرثر... أرجوك.» لم تخرج الكلمات من فمي الحالي، لكنها كانت تصرخ في داخلي. «لا تتركني وحدي.» مددت يدي نحوه، أو ظننت أنني فعلت، واحتضنت جسده البارد.

شعرت بثقله، وبالفراغ الذي كان يتسع داخلي مع كل نفس يتأخر عن العودة. عاد إليّ صوته الأخير، وطلبه بأن أجد صديقًا آخر، وأن أسمي ابني الأول آرثر، وأن أمزق أدريان إربًا. حتى في لحظاته الأخيرة، كان ذلك الأحمق يفكر في المزاح والانتقام. أردت أن أضحك. أردت أن أصرخ. أردت أن أقتله بيدي لأنه تجرأ على الموت قبلي. لكنني لم أستطع فعل أي شيء سوى احتضانه، كما فعلت يومها، وأنا أشعر بأن نصف روحي يُنتزع مني دون رحمة. في الشارع، كان أشين ينادي اسمي. «نيراس! يا رجل، ما بك؟ انظر إليّ!» اقترب مني، ومد يده نحو كتفي، لكن فريسيا أمسكت بذراعه بسرعة. «توقف! لا تلمسه هكذا، ستزيد الأمر سوءًا!» كانت عيناها مثبتتين عليّ. لم يكن فيهما ذعر منّي، ولا شفقة تُشعرني بأنني شيء مكسور يستحق الرثاء. كان فيهما قلق صادق، وشيء آخر أكثر هدوءًا؛ مودة لم أكن قادرًا على فهمها. قالت لأشين: «هناك طبيب عند الزاوية! اذهب وأحضره، وخذ معك قارورة ماء! أسرع!» ركض أشين دون أن يجادلها. أما فريسيا، فانخفضت إلى الأرض بجانبي. في عالمي المنهار، لم ألحظها في البداية. كنت ما أزال أحتضن آرثر، أدفن وجهي قرب كتفه، وأحاول التشبث بشيء لم يعد موجودًا. ثم حدث شيء لم أتوقعه. شعرت بدفء. لم يكن دفء الشمس، ولا حرارة الدم الذي لطخ يدي في ذلك اليوم. كان دفئًا مختلفًا، هادئًا، يحيط بي من الخارج دون أن يطالبني بشيء. وفي داخلي، بدأ شيء ما يتراجع. الخوف لم يختفِ فجأة. الحزن لم يتبخر، والغضب لم يفقد وجوده. لكن قبضتها حول روحي ارتخت قليلًا، كما لو أن يدًا حنونة ظهرت وسط العاصفة، لا لتمنع المطر، بل لتخبرني أنني لن أضطر إلى مواجهته وحدي. تحول صوت الرياح إلى أنفاس متقطعة، وتلاشت رائحة الدم شيئًا فشيئًا. بقي آرثر بين ذراعي للحظة أطول، ثم شعرت بأن جسده يفقد ملامحه، وأن يدي لم تعدا تقبضان على ملابس جندي ميت، بل على قماش ناعم. كنت أعود. ليس إلى لوسين الذي اعتاد دفن ألمه خلف السيوف والواجبات، بل إلى نيراس، الطفل الذي يملك بيتًا وأبًا وأمًا وصديقًا ينتظره كي يعود إلى المنزل. ومع ذلك، بقي شيء من لوسين هناك، يرتجف في أعماقي، غير مصدق أن النجاة قد تكون ممكنة دون أن يدفع ثمنها دمًا جديدًا. لم أفهم متى احتضنتني فريسيا، ولا كيف انتقلت ذراعاها حولي. كل ما عرفته أن الدفء صار أوضح، وأن جسدي بدأ يستجيب له قبل أن يتمكن عقلي من تصديقه. كانت تهمس بصوت منخفض، لا أفهم كلماته كلها، لكنني شعرت بإيقاعها الهادئ. لم تحاول أن تجبرني على النظر إليها، ولم تطلب مني أن أتوقف عن البكاء. تركتني أرتجف، وتركت أنفاسي تعود ببطء، كأنها تمنحني الإذن بأن أكون ضعيفًا دون أن أفقد احترامي لنفسي. هناك، خلف باب ظل مغلقًا في روحي سنوات طويلة، تحرك شعور كنت قد أقسمت أنني لن أعرفه مجددًا. الأمان. شعور صغير، هش، لكنه حقيقي. وصل أشين برفقة الطبيب، وكان يلهث من شدة الركض. توقّف الاثنان عندما رأيا فريسيا تحتضنني، بينما هدأت ارتجافات جسدي تدريجيًا. انحنى الطبيب بالقرب منا، وأشار إلى فريسيا بأن تبقى هادئة. «هل تسمعني يا بني؟» لم أجب فورًا. كنت أحاول فهم المكان الذي أنا فيه، والتمييز بين الماضي الذي يرفض إطلاق سراحي والحاضر الذي يحاول إعادتي إليه. «هل تعرف اسمك؟» ابتلعت ريقي بصعوبة، ثم همست: «نيراس.» هز الطبيب رأسه مطمئنًا، وبدأ يسألني أسئلة بسيطة، يراقب تنفسي واستجابتي، ويتأكد من أنني لم أتعرض لإصابة. أما أشين، فجلس على ركبتيه أمامي، وقد اختفت ابتسامته المعتادة تمامًا. لم يسألني لماذا انهرت. ولم يمزح بشأن ما حدث. اكتفى بالبقاء هناك. رفعت عيني قليلًا نحو فريسيا. كانت لا تزال تسندني، ولم يكن في نظرتها شيء يجعلني أشعر بالخجل مما حدث. أردت أن أشكرها، لكن الكلمات علقت في حلقي. ففي مكان ما، خلف عينيّ، كان لوسين لا يزال يحتضن صديقه الميت، يبكي على حياة لم يستطع إنقاذها. لكن نيراس كان هنا أيضًا. يتنفس. ويشعر بالدفء. وللمرة الأولى منذ زمن طويل، لم يكن مضطرًا إلى خوض تلك المعركة وحده.

الفصل السابع عشر: بين قلبٍ خائف وأبٍ كثير الأسئلة

لم أعرف كم مضى من الوقت قبل أن أستعيد قدرتي على التفكير بصورة طبيعية. كانت الأصوات تعود تدريجيًا إلى مكانها، وبدأت أميّز ملامح الشارع من جديد، بعدما اختلطت في ذهني بساحة المعركة التي فقدت فيها آرثر. ظل صدري مثقلًا، وأنفاسي غير منتظمة، لكنني استطعت أخيرًا أن أرفع رأسي دون أن أشعر بأن العالم ينهار فوقي.

كان الطبيب يسألني بعض الأسئلة، ويتأكد من أنني أستجيب له بصورة طبيعية، بينما جلست فريسيا بالقرب مني، وقد أبقت ذراعها حول كتفي حتى هدأت ارتجافاتي. أما أشين، فكان واقفًا أمامنا بملامح قلقة لم أعتد رؤيتها على وجهه. ذلك الأحمق الذي يستطيع تحويل أبسط موقف إلى مهزلة لم يجد هذه المرة مزحة واحدة يقولها.

بعد أن اطمأن الطبيب إلى أنني لا أعاني إصابة جسدية تستدعي نقلي إلى المستشفى، نصحني بالراحة، وأوصى صديقيّ بألا يتركا الأمر دون إخبار عائلتي. شكرته، ثم نهضت ببطء، مستندًا إلى يدي على ركبتيّ.

«سألني أشين فورًا: «هل تستطيع المشي؟

«.نظرت إليه. «لا، بالطبع. كنت أنتظر أن تحملني على ظهرك حتى المنزل، أيها الحصان

لم يضحك.

بل اقترب مني ومد ذراعه حول كتفي، محاولًا إجباري على الاتكاء عليه.

«.هيا، لا تتظاهر بالقوة. اتكئ عليّ»

تنهدت وأنا أنظر إلى ذراعه التي كادت تخنقني أكثر مما تساعدني.

«.أقسم برب العزة أني بخير»

«.وأنا لا أصدقك»

«!يا لك من صديق مخلص»

«.شكرًا، أعرف ذلك»

يا إلهي، حتى في لحظات القلق، لا يستطيع هذا الرجل مقاومة فرصة لمدح نفسه.

توقفت عن مجادلته، ثم قررت إنهاء المسألة بطريقة لا يمكنه الاعتراض عليها. وضعت كفيّ على الأرض، ورفعت ساقيّ إلى الأعلى، وبدأت أمشي على يديّ لبضع خطوات أمامهما.

ساد الصمت.

التفتُّ نحوهما وأنا ما أزال مقلوبًا، فرأيت فريسيا تنفجر ضاحكة، حتى اضطرت إلى وضع يدها على بطنها. أما أشين، فقد فتح فمه وحدق بي كما لو أنه اكتشف أنني أخفي تحت ملابسي محركًا نفاثًا.

عدت إلى الوقوف بصورة طبيعية، ونفضت الغبار عن كفيّ.

«ما الأمر؟ لماذا تضحكان؟»

حاولت فريسيا الإجابة، لكنها لم تستطع من شدة الضحك. أما أشين، فمرر يده على وجهه ثم قال:

«!بصراحة، أرعبتني يا رجل. ظننت أنك ستودع الملاعب»

نظرت إليه ببطء.

«أيها الوغد اللعين! أراهن أنك كنت تريدني أن أودع الملاعب لكي تأتي وتأكل في جنازتي، أليس كذلك؟»

تغيرت ملامحه فجأة، وكأن السؤال يستحق اجتماعًا طارئًا لمناقشة شؤون الدولة.

«هل سيكون هناك لحم؟»

وضعت يدي على صدري، متظاهرًا بالتأثر.

«.لا. سأوصي بأن تكون جنازتي نباتية بامتياز»

رفع أشين رأسه نحو السماء، محاولًا تغيير الموضوع بأكثر الطرق وضوحًا في تاريخ البشرية.

«.لا يا رجل، لا أريدك أن تودع الملاعب»

حدقت فيه ببرود.

«!أيها الوغد»

وانفجرنا نحن الثلاثة بالضحك.

ضحكت فريسيا حتى دمعت عيناها، وضرب أشين كتفي وهو يضحك، بينما وجدت نفسي أبتسم دون أن أضطر إلى إجبار نفسي على ذلك.

كان الأمر غريبًا.

قبل دقائق قليلة، كنت أحتضن جثة آرثر في عالم لم يعد موجودًا، وأشعر بأنني أعيش أسوأ لحظات حياتي مرة أخرى. والآن، كنت أقف في الشارع أتشاجر مع صديقي بشأن لحم جنازتي الافتراضية.

لم تختفِ الذكريات. لم يصبح صوت الانفجارات أقل رعبًا لمجرد أنني ضحكت بعدها. لكن شيئًا في داخلي بدأ يفهم أن الألم، مهما كان عميقًا، لا يملك الحق في احتكار كل ما تبقى من حياتي.

تابعنا طريقنا نحو المنزل، وهذه المرة لم يحاول أشين إجباري على الاتكاء عليه. اكتفى بالسير بجانبي، وكان يلقي بين الحين والآخر نظرات سريعة نحوي، ظانًّا أنني لا ألاحظها.

كنت ألاحظها بالطبع.

لكني لم أحرجه بالتعليق.

وحين وصلنا إلى مفترق الطرق، ودعتهما بابتسامة، ثم اتجهت إلى منزلي. كانت فريسيا قد استعادت هدوءها، لكنها أخبرتني قبل أن تفترق طرقنا بأنها سعيدة لأنني أصبحت أفضل. أما أشين، فقد أوصاني بأن أخبره إن شعرت بأي شيء غريب.

«.قلت له: «سأخبرك بالتأكيد

ثم أضفت في نفسي: حتى تتمكن من إحضار الطعام إلى جنازتي.

ما إن فتحت باب المنزل حتى ظهرت أمي أمامي.

لم تمنحني فرصة لقول كلمة واحدة. اندفعت نحوي واحتضنتني بقوة، ولفت ذراعيها حول ظهري، ثم سمعت صوتها المرتجف قرب أذني.

«**!ابني!** ماذا حدث لك؟ لقد اتصلت بي أم أشين وأخبرتني بكل شيء»

تجمدت في مكاني.

أيها الواشي**!**

كان أول ما خطر ببالي هو أشين، ذلك الخائن الذي لم يكتفِ بإحضار الطبيب، بل قرر على ما يبدو أن يوزع تفاصيل الحادثة على الأمهات أيضًا.

لكن غضبي لم يصمد طويلًا. في الحقيقة، لم أستطع لومه. لو كنت مكانه، ورأيت صديقًا لي ينهار بهذه الطريقة، لفعلت الشيء نفسه دون تردد.

بل إن احترامي له ازداد، وإن كنت سأحرص على ألا يعرف بذلك مطلقًا؛ إذ لا أريد أن أمنحه سببًا إضافيًا للتفاخر بكونه أفضل صديق في العالم.

ابتعدت أمي قليلًا، وأمسكت بكتفيّ، ثم أخذت تتفحص وجهي بعينين امتلأتا بالدموع.

«قالت إنك سقطت على الأرض، وإنك لم تكن تستجيب لهم**!** هل أصابك شيء؟ هل تشعر بالألم؟ هل تريد الذهاب إلى المستشفى؟»

«.أمي، أرجوك، أنا بخير. الطبيب فحصني بالفعل، وقال إنه لا توجد إصابة جسدية خطيرة»

«لكن ماذا حدث لك؟»

لم أعرف بماذا أجيب.

كيف يمكنني أن أخبرها بأنني لم أكن في الشارع حين انهرت؟ بأنني كنت في ساحة معركة مات فيها أعز أصدقائي، وأنني عشت موته من جديد بكل ما فيه من ألم وعجز؟ كيف أشرح لها أن ثلاثة انفجارات قصيرة كانت كافية لجعلني أعود إلى حياة ظننت أنني دفنتها إلى الأبد؟

لم تكن الكلمات كافية، ولم أكن مستعدًا لفتح ذلك الباب أمامها.

لذلك اكتفيت بأن أمسكت بيديها وقلت:

«.لا أعرف كيف أشرح الأمر الآن، لكنني لم أتعرض لإصابة. أنا هنا يا أمي، أمامك»

ارتجفت شفتاها، ثم جذبتني إلى حضنها مرة أخرى.

«.لا تخفني عليك هكذا، يا حبيبي»

أغمضت عيني.

لم يكن في صوتها أي عتاب حقيقي، بل خوف أم اكتشفت فجأة أن ابنها قد يتألم بطرق لا تستطيع رؤيتها. مررت يدي على ظهرها ببطء، محاولًا طمأنتها، رغم أنني كنت أنا نفسي بحاجة إلى الطمأنينة.

«.أنا آسف لأنني أخفتك»

بقيت صامتة لحظات، ثم ابتعدت قليلًا ومسحت دموعها. حاولت أن تبتسم، لكنها لم تنجح تمامًا.

فقررت أن أساعدها بطريقتي الخاصة.

«.أمي، إذا واصلت احتضاني بهذه القوة، فقد أحتاج إلى طبيب فعلًا، ولكن هذه المرة بسبب كسور الأضلاع»

ضربت كتفي بخفة.

«!أيها المشاغب»

ضحكت، وضحكت هي أيضًا، ولو قليلًا. وشعرت بأن الهواء أصبح أخف في صدري.

لكنني نسيت شخصًا مهمًا.

أبي.

كان فيكتور يقف عند مدخل غرفة الجلوس، وقد شبك ذراعيه أمام صدره. لم تكن ملامحه غاضبة على النحو الذي توقعت، ولم يكن هادئًا تمامًا أيضًا. كان ينظر إليّ بتلك الطريقة التي تجعل المرء يتمنى لو أنه يعرف الإجابة قبل أن يُطرح السؤال.

«.قال: «نيراس، تعال واجلس. أريد أن أفهم ما حدث

جلست على الأريكة، وجلست أمي بجانبي، بينما سحب أبي كرسيًا ووضعه أمامنا.

ثم بدأ التحقيق.

«هل شعرت بدوار قبل الانفجارات؟»
«.لا»

«هل كان لديك صداع؟»

«.لا»

«هل كنت واعيًا بما يحدث حولك عندما سقطت؟»

ترددت قليلًا.

«.ليس تمامًا»

أومأ، وسجل شيئًا في هاتفه، ثم رفع عينيه إليّ مجددًا.

«هل تذكرت شيئًا محددًا؟ هل شعرت بأنك موجود في مكان آخر؟»

توقفت أنفاسي للحظة.

لم يكن سؤاله عاديًا. لم أعرف كيف توصل إلى هذا الاحتمال، لكنني شعرت بأن الرجل الذي أمامي لا يجمع إجابات فحسب؛ إنه يحاول فهم ما وراءها.

«.قلت بحذر: «لم أكن أرى الشارع بوضوح. كنت أشعر وكأنني أعيش شيئًا آخر

لم يقاطعني، ولم يضغط عليّ لأشرح أكثر.

قال بعد لحظة: «حسنًا. لن نجبرك على الحديث عن شيء لا تستطيع شرحه الآن. لكنني أريد أن نتأكد من أنك بخير، لذلك سأتواصل مع مختص يستطيع تقييم ما حدث ومساعدتك إذا تكرر.»

نظرت إليه بدهشة خفيفة.

كنت أتوقع أن يكتفي بالقول إن الأمر مجرد خوف، أو أن يطلب مني تجاهله، أو ربما أن يوبخني لأنني لم أتماسك أمام الناس. لكنه لم يفعل أيًّا من ذلك.

كان يأخذ الأمر بجدية، دون أن يعاملني كأنني ضعيف أو معيب.

قالت أمي وهي تمسك بيدي: «المهم أن نيراس بخير، وسنفعل كل ما يلزم لمساعدته.»

أومأ أبي، ثم أضاف بنبرة عملية:

«سأرتب موعدًا مع طبيب مختص. وإذا احتجنا إلى فحوصات إضافية، فسنقرر ذلك بعد التقييم. لا أريد أن نفترض أن كل شيء انتهى لمجرد أنك استطعت العودة إلى المنزل.»

حدقت فيه.

أبي، هل أنت أب أم محقق جنائي؟

ثم تذكرت أنه يعمل في القضايا القانونية، فوجدت أن الأمر أصبح أكثر منطقية، وإن لم يكن أقل إثارة للقلق.

في حياتي السابقة، كان الألم أمرًا أخفيه خلف درعي، وكانت الجروح التي لا يراها أحد هي الجروح التي اعتدت تجاهلها. لم يسألني أحد يومًا إن كنت أحتاج إلى مساعدة قبل أن أعود إلى ساحة المعركة. كان المطلوب مني أن أستمر، وأن أكون قويًا، وأن أدفن كل ما لا يساعدني على القتال.

أما هنا، فقد احتاج الأمر إلى دقائق قليلة من الانهيار حتى اجتمعت عائلتي حولي، لا لتسألني لماذا لم أكن قويًا بما يكفي، بل لتعرف كيف يمكنها مساعدتي.

كان الفرق مؤلمًا بقدر ما كان جميلًا.

لم أكن قد شُفيت من الماضي، ولم أكن أعرف إن كنت سأتمكن يومًا من سماع انفجار دون أن أعود إلى تلك الساحة. لكنني بدأت أفهم أنني لست مضطرًا إلى مواجهة ذلك وحدي.

نظرت إلى أمي، ثم إلى أبي، وقلت بهدوء:

«حسنًا. سأذهب إلى الطبيب.»

ارتاحت ملامح أمي قليلًا، بينما أومأ أبي وكأنه أغلق ملفًا مؤقتًا، على أن يعود إليه لاحقًا.

«ثم قال: «جيد. والآن، هل تريد أن تخبرني بما كنت تفعله قبل الحادثة؟

رمشت بعيني.

«كنت أمشي مع أشين وفريسيا.»

«وماذا كنتم تفعلون؟»

«.نتحدث»

«عن ماذا؟»

حدقت فيه للحظات.

يا إلهي، لقد وصلنا إلى مرحلة التحقيق في المحادثات أيضًا!

«أبي، هل ستسألني عن كل كلمة قلتها منذ الصباح؟»

فكر قليلًا، ثم قال بجدية تامة:

«.إذا كان ذلك سيساعدني على فهم ما حدث، فربما»

غطيت وجهي بيدي.

لقد نجوت من حروب، وواجهت خونة، وشهدت موت أعز أصدقائي، ثم أُعيدت إلى الحياة في عالم جديد.

ومع ذلك، لم تكن أي من تلك التجارب مهيأة لإعدادي لمواجهة أبي عندما يقرر أن يصبح محققًا.
ومن جانبي، كانت أمي تبتسم أخيرًا، بعدما تأكدت أنني أستطيع المزاح مجددًا. أما أبي، فواصل أسئلته، مقتنعًا بأن كل إجابة تقربه خطوة من فهم ما حدث.

وبين قلق أمي وتحقيق أبي، وجدت نفسي أفكر في شيء واحد:

يا روح الزمن، لقد منحتني حياة جديدة، وبيتًا دافئًا، وعائلة تحبني... لكن ألم يكن بإمكانك أن تمنحني أبًا أقل اهتمامًا بالتفاصيل؟

الفصل الثامن عشر: إمبراطورية من الفوضى، ومشاعر بلا اسم

حلّ المساء أخيرًا، وبدأ المنزل يستعيد هدوءه المعتاد بعد أحداث ذلك اليوم. كانت رائحة الطعام تتسلل من المطبخ، حيث تقف أمي أمام الموقد، تحرّك محتويات القدر بين الحين والآخر، بينما يصلني صوت أبي الخافت من مكتبه، حيث كان يراجع بعض القضايا التي لم تمنحه عمله فرصة لإنهائها خلال النهار.

أما أنا، فقد كنت في غرفتي، مستلقيًا على كرسي أمام الحاسوب، أعيش معركة لا تقل أهمية عن المعارك التي خضتها في حياتي السابقة.

حسنًا، ربما أبالغ قليلًا.

وقد جربتها ،Social Wars كانت هناك نسخة أحدث منها تُدعى .Social Empire كنت ألعب لعبة استراتيجية قديمة تُدعى بالفعل، لكنني فضّلت النسخة الأولى. لم يكن السبب متعلقًا بالرسومات أو طريقة اللعب فحسب؛ بل كان في تلك اللعبة شيء يعيدني إلى أيام بعيدة، إلى فترة من حياتي لم تكن فيها أصوات السيوف والصراخ آخر ما أسمعه قبل النوم.

كانت اللعبة بسيطة بمقاييس هذا العصر، لكنها امتلكت سحرًا خاصًا بالنسبة إليّ. بناء القواعد، وتوزيع الموارد، وتدريب الوحدات، واختيار اللحظة المناسبة للهجوم؛ كل ذلك جعلها أقرب إلى ساحة تدريب صغيرة أستطيع فيها تجربة استراتيجيات مختلفة دون أن أضطر إلى دفن أحد أصدقائي بسبب قرار خاطئ.

حاليًا، كنت أراقب جيشي الافتراضي وهو يستعد لمهاجمة قاعدة خصمي.

«...حسنًا، إذا أرسلت القوات من الجهة الشرقية، فسوف يستنزف دفاعاته هناك، ثم ألتف حوله من الشمال»

توقفت لحظة، وحدقت في الشاشة.

«انتظر، لماذا وضعت أبراج الدفاع بهذا الشكل؟ هل تريد من خصمك أن يهزمك، أم أنك تحاول إقناعه بأنك كريم؟»

كنت أتحدث مع الشاشة بجدية تامة، وكأن قائد الجيش الافتراضي يستطيع سماعي.

وفجأة، ظهر إشعار مكالمة واردة.

أشين وفريسيا.

رفعت حاجبيّ.

«.أخيرًا! كنت أتساءل لماذا لم يظهرا حتى الآن»

قبلت المكالمة، وما إن ظهرت الصورة حتى أدركت أنني كنت على وشك مشاهدة كارثة طبيعية مباشرة.

كانت غرفة أشين تبدو وكأن إعصارًا من الدرجة الخامسة مرّ بها، ثم عاد لأنه نسي شيئًا. الملابس مبعثرة على الأرض، والوسائد موزعة في أماكن لا علاقة لها بالسرير، وكتب المدرسة مكدسة فوق بعضها بصورة توحي بأن صاحبها استخدمها لبناء حصن دفاعي ضد الواجبات المنزلية.

أما أشين، فكان جالسًا أمام الكاميرا، يحاول أن يبدو وكأن كل شيء طبيعي.

حدقت فيه لثوانٍ.

«أشين... هل حدث انفجار في غرفتك أيضًا؟»

«رد ببرود: «لا، لماذا؟

وفي اللحظة نفسها، سقط قميص من أعلى الصورة، واستقر فوق رأسه، حاجبًا وجهه بالكامل.

لم أستطع منع نفسي من الضحك.

سمعت صوت امرأة من خلف باب الغرفة:

«أشين! كم مرة طلبت منك أن ترتب غرفتك؟ هل تعتقد أن الملابس ستطير وحدها إلى الخزانة؟»

أزال القميص عن وجهه، وهمس لي:

«.لا تتحرك. أمي غاضبة، لكنني أسيطر على الوضع»

نظرت إلى الفوضى خلفه.

«.بالطبع. أرى أنك تسيطر على الوضع لدرجة أن ملابسك بدأت تمطر من السقف»

وقبل أن يتمكن من الرد، انفتح الباب بعنف، وظهرت أمه وهي تحمل نعلًا في يدها.

تغير وجه أشين.

«—أمي، أستطيع تفسير»

طار النعل في الهواء.

أصاب رأسه إصابة مباشرة، حتى إنني سمعت صوت الضربة عبر المكالمة.

اختفت صورة أشين فجأة.

بقيت الشاشة سوداء.

ساد الصمت لثانيتين.

ثم قلت بكل هدوء:

«.حسنًا، يبدو أنه ودّع الملاعب قبلي. على الأقل سأأكل شيئًا مفيدًا منه»

انفجرت فريسيا بالضحك، واضطرت إلى إبعاد وجهها عن الكاميرا حتى تستعيد أنفاسها.

«أنتما لا تختلفان كثيرًا عن بعضكما، أتعرف ذلك؟»

«.أختلف عنه في نقطة جوهرية»

«وما هي؟»

«.أنا أرتب غرفتي»

نظرت إليّ فريسيا نظرة متشككة.

التفتُّ نحو مكتبي، حيث تراكمت بعض الكتب وأوراق المدرسة، ثم أعدت نظري إليها.

«.حسنًا، لن نناقش التفاصيل الصغيرة»

ضحكت مجددًا، وشعرت بأن الجو أصبح أخف. لم يكن في ضحكتها تصنّع أو حذر، بل عفوية جعلتني أنسى للحظات ما حدث في الشارع. كنت أحتاج إلى تلك اللحظات أكثر مما أحب الاعتراف به.

وبعد أن هدأت، اقتربت قليلًا من الكاميرا، ثم قالت بصوت خافت:

«أسمع... ماذا قررت بشأن حكاية الفتاة التي تريد الاعتراف لك؟»

توقفت أصابعي فوق لوحة المفاتيح.

أي فتاة؟

حدقت في الشاشة، محاولًا استرجاع الحديث الذي دار بيني وبين أشين في وقت سابق. ثم تذكرت فجأة.

آه، تلك الحكاية.

ابتسمت ابتسامة بلهاء، وهي الابتسامة التي تظهر على وجهي عندما أحاول التصرف بصورة طبيعية بينما يكون عقلي مشغولًا بالبحث عن مخرج مناسب.

«قلت: «لماذا؟ أتغارين عليّ؟

احمرّ وجه فريسيا فورًا.

«!لا! أيها الأبله! لا أريد أن تفرّقك فتاة عنا»

.«توقفت عند كلمة «عنا
كان بإمكانها أن تقول إنها لا تريد أن أفقد وقتي مع أصدقائي، أو أن العلاقات في هذا العمر قد تكون معقدة، لكنها قالت «عنا»، وكأنها تضع نفسها في مكان لا تريد لأحد أن ينتزعه منها.

لم يكن ذلك دليلًا على شيء، بالطبع. ربما كانت تخشى ببساطة أن يتغير شكل صداقتنا. ومع ذلك، وجدت نفسي أعيد التفكير في نبرة صوتها أكثر مما ينبغي.

يا لها من عادة مزعجة.

في حياتي الأولى، كنت أستطيع قراءة تحركات جيش كامل من خلال خريطة، لكنني الآن لم أكن قادرًا على فهم جملة واحدة دون أن أبحث خلفها عن معنى آخر.

قلت وأنا ألوّح بيدي:

أمزح معك. أولًا، سأرفض، لأننا لا نزال صغارًا. وثانيًا، ربما أفكر في الأمر عندما نصل إلى الثانوية. وحتى لو حدثت معجزة،» ووجدت نفسي في علاقة مع فتاة، فأنا لا أريد تلك العلاقات العابرة التي يدخلها الناس لمجرد التجربة. إذا ارتبطت بواحدة، فسأكون «.جادًا بشأنها

هدأت ملامح فريسيا، لكنها لم تتخلَّ عن ابتسامتها تمامًا.

«.حسنًا، هذا يبدو جديًا جدًا بالنسبة إلى شخص لا يزال يتشاجر مع معادلات الرياضيات»

«.المعادلات مسألة مختلفة. تلك الكارثة تستحق فصلًا مستقلًا من التاريخ»

ضحكت، ثم نظرت إلى شيء خارج الشاشة.

«.حسنًا، دعني أذهب. يبدو أن لديك ضيفًا»

«أي ضيف؟»

ابتسمت ابتسامة غامضة، ثم غمزت لي.

«.تصبح على خير يا نيراس»

وانتهت المكالمة.

بقيت أحدق في الشاشة السوداء، محاولًا فهم ما قصدته بقولها إن لديّ ضيفًا. نظرت إلى الباب، فلم أرَ أحدًا. ثم عدت إلى اللعبة، محاولًا استعادة تركيزي على المعركة التي تركتها معلقة.

لكنني لم أستطع.

كان هناك شيء غريب في تلك المحادثة، شيء صغير لا يكفي لتسميته شعورًا واضحًا، لكنه كان كافيًا لإرباكي.

لم أكن أعتقد أنني أحب فريسيا. كانت صديقتي، وكنت أرتاح إلى وجودها، وأحب ضحكتها وطريقتها في الحديث. لكن أليس هذا ما يشعر به المرء تجاه أصدقائه؟

لماذا إذن كنت أعيد في ذهني الطريقة التي احمرّ بها وجهها؟
ولماذا شعرت بشيء يشبه الارتياح عندما قالت إنها لا تريد أن تفرّقني فتاة عنهم؟

هززت رأسي.

«.يا إلهي، لوسين، لقد نجوت من مؤامرات الأمراء والحروب، فلا تخسر عقلك أمام محادثة عادية»

لكن المشكلة أنني لم أعد لوسين وحده.

كنت نيراس أيضًا، طفلًا يعيش حياة مختلفة، ويتعلم مشاعر لم تتح له فرصة فهمها في حياته الأولى. لم أكن أعرف إن كان ما أشعر به مجرد تعلق بصديقة، أم أن هناك شيئًا آخر يتشكل ببطء دون أن أنتبه إليه.

ولم أكن مستعدًا لتسميته.

ربما لأنني ما زلت أحمل في داخلي ذكرى حب لم أستطع الاعتراف به إلا بعد فوات الأوان. وربما لأنني أخشى، دون أن أعترف بذلك، أن يؤدي الاقتراب من شخص جديد إلى فتح باب لم أتعلم بعد كيف أعبره.

أغلقت نافذة اللعبة للحظة، ثم أعدت فتحها.

«حسنًا، لنفز بهذه المعركة أولًا. العلاقات العاطفية يمكنها الانتظار حتى أجد طريقة لإقناع جنودي بالتوقف عن مهاجمة الأبراج من الجهة الخطأ.»

عدت إلى التخطيط، محاولًا إقناع نفسي بأن الأمور عادت إلى طبيعتها.
ثم سمعت صوتًا خافتًا من جهة الباب.

«يا إلهي... يبدو أن ابني كبر أخيرًا وأصبح يبحث عن زوجة.»

قفزت من مكاني والتفتُّ بسرعة.
كانت أمي تقف عند طرف الباب، ولم يظهر منها سوى رأسها، وعيناها تلمعان بفضول لا يبشر بالخير.

حدقت فيها برعب.

«أمي! منذ متى وأنت هنا؟»

ابتسمت ابتسامة بريئة بصورة مريبة.

«منذ الوقت الذي بدأت فيه تتحدث عن الزواج.»

وضعت يدي على وجهي.

«رجاءً يا أمي، إنها صديقتي!»

دخلت الغرفة قليلًا، وأسندت كتفها إلى إطار الباب.

«بالطبع، يا حبيبي. كل ما في الأمر أنني لم أسمعك تتحدث بهذه الجدية عن فتاة من قبل.»

«لأنني لا أتحدث عن الفتيات بهذه الطريقة أصلًا!»

رفعت حاجبيها.

«إذن، هل تعني أنك لا تحبها؟»

فتحت فمي لأجيب، ثم أغلقته.
لماذا كان السؤال صعبًا إلى هذه الدرجة؟

كنت أستطيع الإجابة بسهولة لو سألتني إن كنت أحب وجود فريسيا في حياتي. نعم، بالطبع. ولو سألتني إن كنت أريد أن تبقى صديقتي. بالتأكيد. لكن السؤال الذي طرحته كان مختلفًا، ولم أكن أعرف ما إذا كنت أملك إجابة صادقة عنه.

رأت أمي حيرتي، فابتسمت برفق، دون أن تضغط عليّ أكثر.

«لا بأس يا نيراس. لم أقل إن عليك الزواج غدًا. أردت فقط أن أرى وجهك.»

«أنت تستمتعين بتعذيبي، أليس كذلك؟»

ضحكت.

«.أنا أمك. هذا من امتيازاتي»

ثم اقتربت وقبّلت جبيني قبل أن تتجه نحو الباب.

«.تعال إلى المطبخ عندما تنتهي. الطعام سيكون جاهزًا قريبًا»

راقبتها وهي تغادر، ثم عدت ببطء إلى كرسيي.

كان المنزل دافئًا، ورائحة الطعام تملأ الممر، وصوت أبي يصلني من مكتبه وهو يتحدث عبر الهاتف بشأن إحدى قضاياه. كانت حياتي الجديدة تمضي في تفاصيل صغيرة كهذه، تفاصيل لم أكن أتصور يومًا أنها قد تصبح ثمينة إلى هذا الحد.

ومع ذلك، لم أستطع منع نفسي من التفكير في فريسيا مرة أخرى.

ربما لم تكن سوى صديقة أخشى أن أخسر قربها.

وربما كان هناك شيء آخر، شيء لم يتشكل بعد، ولا يعرف حتى الآن أي اسم ينبغي أن يحمله.

لم أكن مضطرًا إلى حسم الأمر هذه الليلة.

فقد تعلمت من حياتي السابقة أن بعض الأشياء، عندما نحاول انتزاع إجابة منها قبل أوانها، لا تمنحنا سوى الندم.

عدت إلى اللعبة، ووضعت خطة جديدة لهزيمة خصمي.

لكن قبل أن أضغط زر الهجوم، تمتمت:

«.على الأقل، جنودي لا يسألونني إن كنت أحب أحدًا»

ثم بدأت المعركة من جديد.

الفصل التاسع عشر: إرثٌ من القوة، وقليلٌ من الجنون

كانت صبيحة يوم الأحد هادئة على نحوٍ يبعث على الاسترخاء. لم تكن هناك مدرسة، ولا واجبات تنتظرني، ولا حاجة إلى الاستيقاظ مبكرًا لمواجهة معركة جديدة مع الرياضيات. لذلك قضيت بعض الوقت في سريري قبل أن أنهض وأتجه نحو غرفة المعيشة، حيث وجدت أمي جالسة على الأريكة تتابع التلفاز، وقد وضعت كوبًا من القهوة على الطاولة أمامها.

جلست بجانبها، ومددت ساقيّ براحة، ثم ألقيت نظرة عابرة على الشاشة.

كانت نشرة الأخبار تعرض تقريرًا عن حريق اندلع في أحد المباني، مع صور لسيارات الإطفاء ورجال الإنقاذ وهم يعملون في المكان. لم يكن الأمر مثيرًا لاهتمامي في البداية، إلى أن انتقلت الكاميرا إلى أحد رجال الإطفاء الذين كانوا يتحدثون مع المذيعة.

توقفت عيناي عند الرجل.

حدقت في الشاشة.

ثم اقتربت قليلًا منها، وكأن المسافة ستساعدني على تصديق ما أراه.

«...لحظة»

التفتُّ إلى أمي ببطء.

«!آآآه... ماذا يفعل جدي هناك؟»

لم تحوّل أمي عينيها عن التلفاز، بل أجابت بهدوء وكأنها تتحدث عن أمر بديهي:

«ألا تعلم أن جدك يعمل في قسم الإطفاء؟»

نظرت إليها باستغراب.

«!أعرف ذلك، لكنني ظننت أنه متقاعد، أو على الأقل يعمل في وظيفة مكتبية في أقصى الحالات! أعني، انظري إلى عمره»

ثم عدت إلى الشاشة وتأملت بنيته الجسدية.

كان جدي يقف وسط رجال الإطفاء مرتديًا زيه المخصص للعمل، وقد بدا أكبر سنًا من معظم الموجودين حوله، لكنه لم يكن أقل نشاطًا منهم. كان عريض الكتفين، قوي البنية، ويمتلك وقفة رجل اعتاد العمل الشاق أكثر مما اعتاد الجلوس خلف مكتب.

أضفت وأنا أضيق عينيّ:

«حسنًا، مع جسمه هذا، ربما أستطيع تقبّل الأمر... لكن انتظري، ما ذلك الذي يحمله؟»

اقتربت الكاميرا قليلًا، فظهر جدي وهو يحمل عمودًا حديديًا طويلًا يستقر على كتفه، وكأنه يحمل عصا خشبية لا وزن لها.

حدقت فيه للحظات.

«!هل هذا عمود حديد؟»

بدأت المذيعة تطرح عليه بعض الأسئلة عن عملية الإنقاذ، ثم أشارت إلى العمود الذي يحمله وسألته بابتسامة:

«سيدي، لاحظنا أنك ما زلت تحمل هذا العمود منذ وصولنا. هل هناك سبب لذلك؟»

نظر جدي إلى كتفه، ثم إلى العمود، وكأنه يراه للمرة الأولى.

ساد صمت قصير.

ثم انفجر ضاحكًا.

«!تبًّا! لقد نسيته هناك»

أنزل العمود ووضعه على الأرض، ثم تابع حديثه بكل بساطة:

«قمت بانتشاله من أساس المبنى حتى أفتح طريقًا للمدنيين بعيدًا عن النار. كانت الممرات إما مشتعلة بالكامل، أو مليئة بالدخان إلى درجة لا يمكن تحملها. لم يكن هناك وقت لانتظار المعدات، فاضطررت إلى إزاحته بنفسي.»

ابتسمت المذيعة بدهشة واضحة، بينما أومأ جدي وكأنه يشرح لها كيفية نقل قطعة أثاث من غرفة إلى أخرى.

أما أنا، فبقيت أحدق في الشاشة.

«انتشله من أساس المبنى... ووضعه على كتفه... ثم نسي أنه يحمله؟»

ضحكت أمي وهي تراقب تعابير وجهي.

«أعتقد أننا عرفنا الآن من أين أتت قوتك الجسدية، عزيزي.»

أومأت بجدية.

«بلا شك. يبدو أنني ورثت بعض الجينات الممتازة.»

التفتت نحوي وضربت رأسي بخفة.

«!وماذا تقصد بذلك؟! وكأنك لم ترث مني شيئًا»

وضعت يدي على موضع الضربة، متظاهرًا بالألم، ثم نظرت إليها بابتسامة.

«لقد ورثت منك طيبتك.»

توقفت أمي لحظة، ثم احمرّ وجهها قليلًا، وظهرت ابتسامة رقيقة على شفتيها.

«حقًا؟»

«بالطبع.»

أومأت برضا، ثم أضافت بعد لحظة:

«لكن للأسف، يبدو أنك ورثت أيضًا غباء أبيك وطيشه.»

اختفت ابتسامتي تدريجيًا.

«...أمي»

تابعت وهي تعود إلى متابعة التلفاز:

«.ذلك الزنديق الذي يجلس في مكتبه في الجهة الأخرى من المدينة، ويظن أن العمل أهم من تناول الطعام في موعده»

لم أتمالك نفسي من الضحك.

كان من المضحك أن أسمعها تتحدث عن أبي بهذه الطريقة، خصوصًا أن الرجل نفسه يبدو هادئًا ومتزنًا أمام الآخرين. لكنني بدأت أكتشف أن لكل شخص جانبًا لا يظهر إلا داخل منزله، وأن أبي ربما كان يمتلك نصيبًا كبيرًا من ذلك الجانب.

وفي تلك اللحظة، انتقل المشهد إلى الجهة الأخرى من المدينة.

كان فيكتور جالسًا خلف مكتبه، وقد انتشرت أمامه مجموعة من الملفات والأوراق. كانت عيناه تتحركان بين الوثائق بتركيز، بينما يدوّن بعض الملاحظات بين الحين والآخر. على طرف المكتب كان هناك كوب قهوة أوشك على أن يبرد، وهاتفه موضوع بجانب مجموعة من الملفات التي تحتاج إلى مراجعة.

توقف فجأة عن الكتابة، ورفع رأسه دون سبب واضح.

«.غريب... أشعر أن أحدًا يتحدث عني»

نظر حوله، ثم عاد إلى أوراقه.

وبعد لحظات، تمتم لنفسه:

«.أراهن أنها زوجتي... لا بد أنها قالت عني شيئًا»

توقف قليلًا، ثم ضيّق عينيه وكأنه استطاع سماع صوتها من مسافة بعيدة.

«.ربما وصفتني بالزنديق مرة أخرى»

هز رأسه وعاد إلى العمل.

«.حسنًا، على الأقل لم تقل إنني عديم الفائدة»

وفي المنزل، كنت لا أزال أضحك بجانب أمي، غير مدرك أن أبي، في تلك اللحظة تحديدًا، كان يحاول تخمين نوع الإهانة التي وجهتها إليه زوجته.

عدت إلى مشاهدة التقرير، فوجدت جدي يتحدث عن زملائه وعن أهمية العمل الجماعي في عمليات الإنقاذ. كان صوته ثابتًا، وملامحه جادة على عكس ضحكته قبل قليل. بدا رجلًا يعرف تمامًا أن ما يفعله ليس استعراضًا للقوة، بل مسؤولية قد تتوقف عليها حياة أشخاص لا يعرف أسماءهم حتى.

تأملته قليلًا.

لطالما اعتقدت أن القوة الجسدية وحدها هي ما يجعل الإنسان قويًا، لكنني بدأت أفهم أن الأمر أعمق من ذلك. فالقوة التي تدفع رجلًا إلى دخول مبنى مشتعل لإنقاذ غرباء ليست في عضلاته فحسب، بل في قراره بأن حياة الآخرين تستحق المخاطرة من أجلها.

ابتسمت دون أن أشعر.

«.يبدو أن جدي رجل مثير للاهتمام فعلًا»

قالت أمي بفخر:

«.إنه كذلك، لكنه عنيد للغاية. لا يمكنك إقناعه بالراحة حتى عندما يكون مرهقًا»

«.أعتقد أنني فهمت من أين ورث أبي عناده»

نظرت إليّ أمي.

«ومن أين؟»

أشرت إلى التلفاز.

«.من جدي، بالتأكيد»

ضحكت، ثم مالت نحوي وربتت على شعري.

«.يبدو أنك ورثت قليلًا من كل واحد منا، يا نيراس»

أعدت نظري إلى الشاشة، حيث كان جدي يواصل حديثه مع المذيعة، ثم نظرت إلى أمي الجالسة بجانبي.

كان صباحًا عاديًا، لا يحمل معركة ولا مأساة، مجرد تقرير إخباري عن حريق، وجَدّ ينسى عمودًا حديديًا فوق كتفه، وأم تسخر من زوجها، وأب بعيد يحاول معرفة سبب شعوره بأن أحدًا يسيء إليه.

ابتسمت.

ربما كانت هذه هي الأشياء التي لم أكن أعرف أنني أحتاج إليها؛ تفاصيل صغيرة لا تصنع تاريخًا عظيمًا، لكنها تصنع حياة تستحق أن تُعاش.

الفصل العشرون: حين اختلّ إيقاع القلب

كان ذلك اليوم من الأيام التي قررت فيها أن أترك المنزل لبعض الوقت، وأذهب إلى المكان الذي اعتدت فيه التدرب. لم يكن الأمر مجرد رغبة في تحريك عضلاتي أو تحسين لياقتي، بل كان أشبه بموعد ألتقي فيه بجزء من نفسي لا أستطيع العثور عليه في أي مكان آخر.

هناك، بين القضبان الحديدية والأرضية التي اعتادت استقبال الساقطين والنهوض بهم من جديد، كنت أشعر بأنني أعيش حقا.

وصلت إلى المكان في وقت مناسب، فوجدت عددا من الشباب قد سبقوني. كان بعضهم يتدرب على تمارين الكاليستنيكس، بينما انشغل آخرون بتبادل الحديث والمزاح، وكأنهم اجتمعوا في نزهة لا في مكان للتدريب.

ما إن رأوني حتى رفع أحدهم يده محييا.

«.ها قد وصل صغيرنا! ظننت أنك قررت الاعتزال»

أجبته وأنا أضع حقيبتي جانبا:

كنت أفكر في ذلك، لكنني تذكرت أنكم لا تستطيعون الاستغناء عن وجود» «.شخص يرفع مستوى المجموعة

ضحك أحدهم وقال:

يرفع مستوى المجموعة؟ أنت لا تزال تحتاج إلى من يشرح لك كيف لا تسقط» «!على وجهك

«.على الأقل أعرف كيف أسقط بطريقة لا تجعلني أبدو ككيس بطاطا»

انطلقت الضحكات من حولي، ثم بدأنا بالتدرب. كانت الأحاديث تتداخل مع أصوات الحركة واحتكاك الأحذية بالأرض، وبين حين وآخر كان أحدنا يتوقف ليراقب حركة الآخر أو يعلق عليها بسخرية.

لم يمض وقت طويل حتى وصلت مجموعة من شباب البريك دانس، وكانوا يحملون معهم مكبر الصوت الصغير الذي اعتدنا أن نراه في كل مرة يجتمعون فيها. وما إن وضعوه على الأرض حتى تغيرت أجواء المكان.

ارتفع الإيقاع، وبدأ أحدهم يتحرك بخفة، يتبعه الآخر بحركات أكثر جرأة. لم أستطع مقاومة الأمر طويلا، فانضممت إليهم.

كنت أحب ذلك الشعور الذي تمنحني إياه الحركة؛ حين يصبح الجسد امتدادا للإيقاع، وحين تتتابع الخطوات دون أن تحتاج إلى التفكير في كل واحدة منها. لم تكن المسألة بالنسبة إلي مجرد استعراض للمهارات، بل كانت لغة أخرى أستطيع التعبير بها عما يعجز لساني عن قوله.

وبينما كنت أستعد لمتابعة التدريب، لمحت مجموعة من الفتيات يدخلن المكان.

توقفت عيناي للحظة، ثم أطلقت زفرة خافتة.

يا إلهي... ليس مجددا.

لم تكن لدي مشكلة مع وجود الفتيات في حد ذاته، لكنني كنت أعرف جيدا ما قد يحدث عندما تقترب بعضهن من المكان. فهناك دائما من ينسى فجأة أنه جاء ليتدرب، ويتحول من رياضي منشغل بتمارينه إلى طاووس يحاول إثبات أنه أكثر مخلوقات الأرض إثارة للإعجاب.

بعض الشباب لا يحتاجون إلا إلى استشعار رائحة الأستروجين في الهواء حتى تتغير شخصياتهم بالكامل!

لكن الغريب أنني لم أنشغل كثيرا بتلك المجموعة. كان هناك شيء ما جذب انتباهي إليها، شيء لم أستطع تحديده.

لم أكن أرى وجوههن بوضوح، فقد كن يتحدثن مع بعضهن ويتحركن في المكان، لكنني شعرت بانجذاب غريب نحو إحداهن، أو ربما نحو وجود المجموعة بأكملها. لم أفهم السبب، ولم أجد تفسيرا مقنعا لذلك الشعور.

ثم تحركت إحداهن قليلا، فتعرفت إلى ملامح مألوفة.

فريسيا؟

رمشت بعيني مرتين، وكأنني أحاول التأكد من أن ذاكرتي لا تمارس معي إحدى حيلها المعتادة.

نعم، إنها فريسيا!

يبدو أنها خرجت مع صديقاتها وجئن إلى هنا لقضاء بعض الوقت.

وقبل أن أتمكن من إبعاد نظري عنهن، اقترب مني أحد الشباب، وكان قد لاحظ اتجاه عيني.

«لحظة... هل رأيت ما رأيت؟»

نظرت إليه بحذر.

«ماذا؟»

ابتسم ابتسامة واسعة، ثم قال بصوت متعمد الارتفاع:

«!يبدو أن علامات الساعة الكبرى قد ظهرت! نيراس مهتم بإحدى الفتيات»

التفت إليه ببطء.

«ماذا تقول أيها الأبله؟»

«!لا تنكر! لقد رأيتك تنظر إليهن»

«.إحداهن تدرس معي، وقد تفاجأت بوجودها هنا. هذا كل شيء»

«!آه، تدرس معك؟ يا لها من مصادفة عظيمة»

صفعته على مؤخرة رأسه، فتراجع وهو يضحك.

«آخ! لماذا تضربني؟»

«.لأنك تتكلم أكثر مما ينبغي»

لكن يبدو أن الصفعة لم تكن سوى الوقود الذي احتاجه هؤلاء المجانين لإشعال حماسهم.

بدأ اثنان منهم يتغامزان، ثم تبادلا نظرة ذات مغزى، بينما أطلق ثالث صفيرا خافتا.

وضعت يدي على وجهي وأغمضت عيني.

يا رباه... أأنا هنا لأتدرب أم لأشارك في اجتماع رسمي لجمعية الحمقى؟

عدت إلى مكاني محاولا تجاهلهم، لكن أفكاري لم تكن متعاونة معي هذه المرة.

لماذا شعرت بذلك حين رأيتها؟

لماذا ارتجف قلبي للحظة، وكأن شيئا ما قد باغته دون سابق إنذار؟ ولماذا شعرت بأن عضلاتي قد توترت فجأة، حتى إنني نسيت الحركة التي كنت أستعد للقيام بها؟

والأغرب من ذلك كله... لماذا شعرت بالسعادة؟

سعادة صغيرة، هادئة، لكنها كانت واضحة بما يكفي لتربكني.

لم تكن تلك المشاعر مألوفة بالنسبة إلي. لقد عرفت الخوف، والغضب، والحزن، والراحة بعد النجاة من معركة، وحتى ذلك الدفء الذي أشعر به عندما أعود إلى المنزل وأجد أمي وأبي في انتظاري. لكن هذا الشعور كان مختلفا، لم يكن قويا بما يكفي لأصفه، ولا ضعيفا بما يكفي لأتجاهله.

هل يمكن للإنسان أن يشعر بشيء قبل أن يعرف اسمه؟

وهل تحتاج المشاعر حقا إلى تعريف حتى تكون حقيقية؟

ربما كنت أبحث عن تفسير منطقي لأمر لا يقبل المنطق من الأساس. وربما كنت أحاول فهم شيء لم أتعلم كيف أتعامل معه في حياتي السابقة، ولا في حياتي الحالية.

أنا الذي استطعت قراءة تحركات خصومي وسط المعارك، وعرفت كيف أميز الخيانة من الصدق، وأدرت جنودا في ساحات القتال... أقف الآن عاجزا أمام شعور صغير لا أعرف حتى كيف أصفه.

يا للسخرية.

عدت إلى التدريب قبل أن تتحول أفكاري إلى محاضرة فلسفية لا نهاية لها، وقررت أن أترك الأمر لوقت آخر.

وبعد فترة من التدريب، بدأ الشباب يتناوبون على إظهار مهاراتهم. تقدم أحدهم، وأدى مجموعة من الحركات التي أثارت إعجاب البقية، ثم تبعه آخر حاول التفوق عليه، وانتهى الأمر بمسابقة غير معلنة بين الجميع.

كان كل واحد منهم يريد أن يقدم شيئا أفضل من سابقه.

وفي أثناء ذلك، لاحظ أحد الشباب أن الفتيات ينظرن باتجاهنا، فرفع صوته فجأة:

«!اسمعوا يا شباب»

التفتنا إليه.

ارفعوا الإيقاع! النساء ينظرن إلينا! لا أريد أن يخرج أحد من هنا وقد خيّب ظن» «!الرجولة

ساد صمت قصير، ثم انفجر الجميع بالضحك.

قال أحدهم:

أنت قبل قليل كنت تتدرب وكأنك تبحث عن مكان تنام فيه، والآن أصبحت» «سفيرا للرجولة؟

رد الآخر بثقة مصطنعة:

«.هناك أوقات تستدعي منا إظهار أفضل ما لدينا»

هززت رأسي وأنا أضحك.

يبدو أن مستوى الهرمونات في هذا المكان قد تجاوز الحدود المسموح بها.

ثم جاء دوري.

تقدمت إلى المساحة المفتوحة، وأخذت نفسا عميقا. شعرت بالإيقاع يصل إلى أذني، ثم امتد أثره إلى بقية جسدي. أغمضت عيني للحظة، وتركت الضوضاء المحيطة تتراجع إلى الخلف.

لم أكن أفكر في الفتيات، ولا في نظرات الشباب، ولا حتى في تلك التعليقات السخيفة.

كان هناك شيء واحد فقط في ذهني: الحركة التالية.

بدأت بخطوات هادئة، ثم أخذت وتيرة الرقص تتسارع تدريجيا. انتقلت من حركة إلى أخرى بسلاسة، وكأن كل واحدة منهما تمهد الطريق لما بعدها. لم تكن هناك حركة منفصلة عن الأخرى؛ فقد كانت سلسلة متصلة من التوازن والسرعة والتناسق.

استدرت، وانخفضت بجسدي، ثم انتقلت إلى حركة أخرى جعلت بعض الشباب يرفعون أصواتهم تشجيعا. لم أكن أسمع كلماتهم بوضوح، فقد كان تركيزي منصبا بالكامل على ما أفعله.

كلما ارتفع الإيقاع، ازدادت حركاتي سرعة، وكلما اقتربت من النهاية، حاولت أن أجعل الانتقال بين الحركات أكثر انسيابية.

لم أكن أريد مجرد إنهاء الرقصة، بل أردت أن أشعر بأنني قد أخرجت كل ما لدي فيها.

وحين وصلت إلى الحركة الأخيرة، أنهيتها بثبات، ثم بقيت للحظة في مكاني قبل أن أرفع رأسي.

ساد صمت قصير.

كنت ألهث بشدة، وأحاول استعادة أنفاسي، فيما بدأت أسمع التصفيق من حولي. لكنني شعرت بوخز خفيف عند كتفي، ثم انتبهت إلى أن قميصي قد تلطخ ببقع صغيرة من الدم. يبدو أن قوة الحركة والاحتكاك قد تسببا في خدوش عند كتفي، ولم أنتبه إليها وسط اندماجي.

لم تكن إصابة خطيرة، لكنها كانت كافية لتجعلني أتنهد وأنا أنظر إلى قميصي.

رائع... حتى ملابسي قررت المشاركة في التدريب.

اقترب مني أحد الشباب وهو يصفق.

«!يا سلام! يبدو أن صغيرنا بدأ الصيد مبكرا»

رمقته بنظرة متعبة.

«هل تستطيع أن تصمت لخمس دقائق فقط؟»

ضحك وقال:

«!لقد نجحت بالفعل، فلا داعي للإنكار»

وقبل أن أجيبه، لاحظت حركة قادمة من جانبي.

كانت فريسيا.

اقتربت بخطوات مترددة، ثم توقفت أمامي ونظرت إلى كتفي بقلق.

«نيراس... هل أنت بخير؟»

أجبتها وأنا أحاول التقليل من الأمر:

«.أنا بخير، مجرد جرح صغير»

ضيقت عينيها قليلا.

«.دعني أرى»

توقفت للحظة.

لم أعرف لماذا شعرت بأن وجهي أصبح أكثر دفئا فجأة. وربما لم يكن السبب سوى الإرهاق، أو الحرارة التي اكتسبتها بعد التدريب... نعم، بالتأكيد هذا هو السبب.

لكن فريسيا نفسها بدت وكأنها أدركت شيئا بعد أن قالت عبارتها. احمر وجهها قليلا، وسرعان ما أبعدت نظرها.

«.أقصد... دعني أرى الجرح، حتى أتأكد أنه ليس خطيرا»

ثم أضافت بسرعة:

«.آسفة، لم أقصد أن أقولها بهذه الطريقة»

نظرت إليها، ولم أجد جوابا مناسبا في البداية.

«.لا بأس... فهمت ما تقصدينه»

أخرجت من حقيبتها منديلا، ومدته إلي.

«.خذ هذا. وحاول أن تنتبه إلى نفسك في المرة القادمة»

أخذته منها، وقلت بابتسامة صغيرة:

«.سأحاول. شكرا لك»

ابتسمت ابتسامة خفيفة، ثم أضافت:

«.ولا تبالغ في التدريب إلى هذا الحد»

«.سأضع ذلك في الحسبان»

«.أنت تقول هذا الآن فقط»

ضحكت بخفة، ولم أجد ما أقوله ردا عليها.

كانت محادثة قصيرة للغاية، لا شيء استثنائيا فيها، ومع ذلك شعرت بأن شيئا ما قد تغير في مزاجي. لم أكن أعرف إن كان ذلك بسبب اهتمامها، أم لأنني لم أتوقع رؤيتها هنا أصلا.

ربما كان الأمر أبسط مما أظن.

وربما لم يكن كذلك.

لكنني لم أملك وقتا طويلا للتفكير، فقد التفت إليها بعد أن لاحظت أنها تنظر إلى كتفي مجددا، ثم قلت:

«.لا تقلقي، سأعتني به»

أومأت برأسها، ثم عادت إلى صديقاتها.

تابعتها بعيني للحظة، قبل أن أستدير نحو الشباب.

...وهناك

كانت الكارثة تنتظرني.

وقف جميع أفراد مجموعة البريك دانس، ومعهم بعض شباب الكاليستنيكس، في صف واحد تقريبا. كانت على وجوههم ابتسامات عريضة وغبية، وتبادلوا النظرات فيما بينهم بطريقة جعلتني أشعر بأنني وقعت في فخ لم أكن أعلم بوجوده.

رفع أحدهم حاجبيه، بينما وضع آخر يده على ذقنه متظاهرا بالتفكير العميق. ثم قال ثالث:

«.يا شباب، أعتقد أننا شهدنا اليوم حدثا تاريخيا»

أجابه آخر:

«.صحيح. لقد اكتشف نيراس أن هناك أشياء في الحياة أهم من العضلات»

وقال أحدهم وهو يضع يده على صدره:

«.لقد كبر صغيرنا... أشعر أنني سأبكي»

أخذت نفسا عميقا، ثم وضعت يدي على وجهي.

...يا إلهي

أنا حقا أتدرب مع مجموعة من المنغوليين.

والأسوأ من ذلك أنني كنت أعرف أنهم لن يتركوني وشأني بعد هذا اليوم.

أما فريسيا، فقد كانت قد ابتعدت بالفعل، لكنني لم أستطع منع نفسي من تذكر ابتسامتها القصيرة وكلماتها الأخيرة.

نظرت إلى المنديل الذي ما زلت أمسك به، ثم طويته بعناية ووضعته في جيبي.

لم يكن لذلك أي معنى خاص... أو هكذا أقنعت نفسي.

ففي النهاية، لم يكن سوى منديل أعطتني إياه زميلة قلقة على جرح صغير.

لكنني، لسبب لم أفهمه، لم أرد أن أفقده.

الفصل الحادي والعشرون: حين يصبح الصمت أثقل من الروح

لم أكن أظن أنني سأواجه في حياتي الثانية موقفًا كهذا.

لقد عشت حياة كاملة من قبل، رأيت فيها الحروب، وشهدت سقوط الرجال، وفقدت أشخاصًا كانوا أقرب إليّ من نفسي. ظننت أنني أصبحت قادرًا على فهم معظم أشكال الألم، وأن الموت قد علمني ما يكفي عن قيمة الحياة.

لكنني كنت مخطئًا.

فثمة أوجاع لا تحتاج إلى سيوف ولا إلى ساحات قتال كي تترك آثارها في الإنسان، وثمة معارك يخوضها المرء داخل صدره دون أن يعلم أحد أنه يخسر فيها شيئًا من نفسه كل يوم.

بدأ صباح ذلك اليوم على غير عادته.

كنت أستعد للخروج من المنزل من أجل الركض، وهي عادة اعتدت ممارستها برفقة أمي. لكن أمي كانت مشغولة ببعض الأمور، فقررت أن أذهب وحدي.

ارتديت ملابسي الرياضية، وضعت السماعات في أذني، ثم خرجت بعدما أخبرت أمي أنني لن أتأخر.

كان الهواء الصباحي منعشًا، والسماء لا تزال تحتفظ بلونها الهادئ، بينما بدأت أشعة الشمس تتسلل بين المباني لتعلن بداية يوم جديد.

انطلقت في الركض على وتيرتي المعتادة.

كان صوت الموسيقى يعزلني عن ضجيج العالم، وخطواتي المنتظمة تمنحني شعورًا بالراحة. لم أكن أفكر في شيء محدد، بل كنت أترك ذهني يتجول بحرية بين ذكريات الماضي وتفاصيل الحاضر.

وبعد فترة، وصلت إلى الطريق المحاذي للنهر.

كان المكان هادئًا، تحيط به الأشجار من الجانبين، وتلقي أغصانها ظلالًا متفرقة على الأرض. انعكس ضوء الصباح على سطح الماء، بينما كانت أوراق الأشجار تتحرك برفق مع النسيم.

خففت سرعتي قليلًا، ثم نزعت إحدى السماعتين.

وفي تلك اللحظة، رأيته.

كان فتى يجلس تحت إحدى الأشجار، في مثل عمري تقريبًا. لم يكن يفعل شيئًا، ولم يكن ينظر إلى النهر أو يتأمل الأشجار كما يفعل معظم الناس حين يأتون إلى مكان هادئ كهذا.

كان ساكنًا بصورة غريبة.

وبجانبه شيء جعلني أتوقف.

لم أكن بحاجة إلى معرفة قصته كي أشعر بأن هناك أمرًا غير طبيعي. ربما كانت تلك الغريزة التي اكتسبتها في حياتي السابقة، أو ربما كان الأمر أبسط من ذلك بكثير؛ مجرد إحساس إنساني يخبرك بأن شخصًا ما ليس بخير.

تقدمت نحوه بحذر.

لم أرد أن أفزعه أو أجعله يشعر بأنه محاصر. كنت أعرف أن بعض الكلمات، حين تُقال في اللحظة الخاطئة، قد تتحول إلى جدران إضافية بين الإنسان والعالم.

اقتربت حتى أصبحت على مسافة مناسبة، ثم جلست بجانبه دون أن أفرض عليه النظر إليّ.

قلت بهدوء:

«.صباح الخير»

لم يجب.

نظرت إلى النهر، وكأنني لم أنتظر منه ردًا أصلًا.

«الجو جميل اليوم، أليس كذلك؟»

ظل صامتًا.

«.مع أنني أعتقد أنني ارتكبت خطأ بالخروج من دون أن أتناول الإفطار. معدتي بدأت بالفعل في تقديم شكوى رسمية»

لم أسمع سوى صوت الرياح.

التفت إليه قليلًا، فرأيت ملامح شاب يبدو وكأنه لم ينم جيدًا منذ وقت طويل. لم تكن عيناه تعكسان مجرد الحزن، بل شيئًا أعمق؛ ذلك الإرهاق الذي يجعل أبسط الأشياء تبدو ثقيلة، حتى الاستيقاظ في الصباح.

قلت:

«اسمي نيراس. وأنت؟»

مر وقت قصير قبل أن يجيب بصوت خافت:

«.لوكاس»

ابتسمت ابتسامة بسيطة.

«.تشرفت بمعرفتك يا لوكاس»

لم يبتسم.

ولم أكن أنتظر منه ذلك.

جلست إلى جانبه، ثم قلت:

«هل تسمح لي بالبقاء هنا قليلًا؟»

أومأ إيماءة بالكاد تُرى.

كانت عيناي قد لاحظتا ما يكفي لأدرك أن الموقف أخطر من مجرد يوم سيئ. لم أكن أنوي تركه وحده، ولم أكن أريد أن أتصرف وكأنني أفهم كل ما يجري في داخله. لذلك بقيت قريبًا منه، محافظًا على هدوئي، وفي ذهني قرار بأن أطلب مساعدة شخص بالغ موثوق فور أن أضمن ألا يشعر لوكاس بأنه تُرك وحيدًا أو خُذل مرة أخرى.

وبعد صمت طويل، سألته:

«هل حدث شيء؟»

ضحك ضحكة قصيرة خالية من الفرح.

«هل يبدو أنني بخير؟»

«.لا»

أجبته بصراحة.

«.لكنني لا أعرف ما الذي حدث لك، ولا أريد أن أتظاهر بأنني أعرف»

نظر إليّ للمرة الأولى.

كانت عيناه متعبتين، وفيهما شيء من الدهشة، وكأنه لم يعتد أن يسمع إجابة لا تحمل حكمًا أو نصيحة جاهزة.

قال:

«.الجميع يقولون إنني أبالغ»

«ومن قال إنهم يعرفون ما تشعر به؟»

خفض رأسه.

«.لا أحد يعرف»

ثم بدأ يتحدث.

في البداية كانت كلماته متقطعة، وكأنه يحاول إخراجها من مكان عميق ظل مغلقًا مدة طويلة. لكنه مع مرور الوقت أخذ يسرد حكايته، ولم أقاطعه إلا حين احتاج إلى التقاط أنفاسه.

كان لوكاس فتى ذا قلب مرهف، يحب أشياء كثيرة، ويحمل في داخله أحلامًا صغيرة لم يطلب من العالم أن يصفق لها، بل كان يريد فقط أن يجد من يحترمها.

كان يحب الكتابة، ويكتب الشعر والقصائد. يحب الرياضة، ويجد في الحركة متنفسًا لأفكاره. كما كان مهتمًا بعلوم الحاسوب، ويقضي وقتًا في تعلم أشياء جديدة، محاولًا بناء مستقبل يراه بعينيه قبل أن يصل إليه.

لكن أباه لم يكن يرى في ذلك شيئًا يستحق التقدير.

كل نشاط يحبه لوكاس كان بالنسبة إليه مضيعة للوقت، وكل محاولة لتطوير نفسه كانت تُقابل بالتقليل من شأنها. لم يجد منه تشجيعًا حين حاول، ولا كلمة طيبة حين أخفق، بل كان يشعر دائمًا بأنه مهما فعل فلن يكون كافيًا.

أما أصدقاؤه، فلم يكونوا كما ظن.

كانوا يسخرون منه، ويستفزونه عمدًا، ويستغلون ما يعرفونه عن ظروفه لإحراجه أمام الآخرين. كانوا يعلقون على ملابسه وأغراضه، وعلى أن والده لا يمنحه المال أو يشتري له ما يمتلكونه هم.

لم تكن كلماتهم دائمًا مباشرة، وهذا ما جعل الأمر أشد إرباكًا. فقد كانوا يخفون سخرية جارحة خلف ضحكات عابرة ومزاح يطالبونه بعدم أخذه على محمل الجد.

وحتى حين أحب فتاة، ظن أنها قد تكون مختلفة عن الآخرين، وأنها ربما ترى فيه شيئًا لم يره بقية الناس.

لكنه اكتشف أنها تلاعبت بمشاعره، وجعلته موضع سخرية بين من حولها.

قال بصوت منخفض:

«حاولت يا نيراس... أقسم إنني حاولت. حاولت أن أكون جيدًا في شيء، أي شيء. كتبت، وتدربت، وتعلمت، وحاولت أن أكون صديقًا جيدًا. لكن في كل مرة كنت أظن أنني اقتربت من شيء جميل، أجد نفسي أعود إلى النقطة نفسها.»

توقف قليلًا، ثم تابع:

«حتى عندما أكون سعيدًا بشيء أنجزته، أسمع صوت أبي في رأسي يخبرني بأنه لا قيمة له. وعندما أكون مع أصدقائي، أفكر في اللحظة التي سيقررون فيها السخرية مني مجددًا. وعندما أرى فتاة تعجبني، أتذكر كيف انتهى الأمر في المرة السابقة.»

أطرق رأسه.

«أشعر وكأنني غير مرغوب في وجودي. وكأن كل ما أفعله خطأ، وكل ما أحبه سخيف، وحتى أنا... لست شخصًا يستحق أن يحبه أحد.»

لم أجب مباشرة.

كنت أنظر إلى النهر، لكن عقلي كان يستعيد شيئًا آخر.

كنت أتذكر لوسين.

أتذكر ذلك الفتى الذي نشأ في قصر ملكي، وحصل على التدريب والطعام والمكانة، لكنه لم يستطع أن يحصل على كلمة واحدة من الشخص الذي أحبها حين كان في أمس الحاجة إليها.

أتذكر آرثر، الذي كان يضحك رغم قسوة العالم، ثم رحل تاركًا خلفه أمنية بسيطة: ألا أعيش بقية حياتي وحيدًا.

كنت أعرف أن الألم لا يقاس بما يراه الآخرون من الخارج. قد يملك الإنسان منزلًا، وطعامًا، وملابس، وربما أشخاصًا يحيطون به، ومع ذلك يشعر بأنه لا يملك مكانًا آمنًا يضع فيه قلبه.

لكنني كنت أعرف أيضًا أن الشعور بالوحدة، مهما كان حقيقيًا، لا يعني أن الإنسان لا يستحق الحياة.

التفت إلى لوكاس.

«هل تعرف ما أكثر شيء لفت انتباهي في قصتك؟»

لم يجب.

«أنك تحدثت عن كل ما تحبه، ثم تحدثت عن الطريقة التي جعل بها الآخرون تلك الأشياء تبدو بلا قيمة.»

رفع عينيه نحوي.

تابعت:

«تحدثت عن الشعر، والرياضة، وعلوم الحاسوب، وعن رغبتك في أن تكون محبوبًا. لكنني لم أسمع منك مرة واحدة أنك توقفت عن حب تلك الأشياء لأنك اكتشفت أنها سيئة. كل ما سمعته هو أن الآخرين أخبروك بأنها لا تستحق.»

قال بمرارة:

«.وماذا يغير ذلك؟ إنهم لا يزالون يسخرون مني»

«.لا يغير ما فعلوه، لكنه يغير الطريقة التي تنظر بها إلى نفسك»

هز رأسه.

«.أنت لا تفهم. لقد تعبت»

«.أصدقك»

بدت عليه الدهشة.

فأكملت:

«لا أقول إنني أعرف تمامًا ما تشعر به، ولا أستطيع أن أزعم أنني عشت حياتك. لكنني أصدق أنك متعب، وأصدق أن ما مررت به .آلمك، وأصدق أنك لم تكن تستحق أن تُعامل بهذه الطريقة»

ساد الصمت قليلًا.

ثم قال:

«إذن لماذا أشعر بأنني أنا المشكلة؟»

أخذت نفسًا هادئًا.

«لأن الإنسان حين يسمع الإهانة مرات كثيرة، قد يبدأ في ترديدها لنفسه. وحين يتكرر التقليل من شأنه، يصبح صوت الآخرين جزءًا .من حديثه الداخلي. فيظن أنه هو من يتحدث، بينما هو في الحقيقة يعيد كلمات لم يخترها أصلًا»

نظرت إليه مباشرة.

«.لكن اسمعني جيدًا يا لوكاس. ليس كل ما يقوله الناس عنك حقيقة، وليس كل من يملك سلطة عليك يملك الحق في تعريفك»

سألني:

«حتى أبي؟»

«.حتى أبوك»

لم أقلها بغضب أو تحدٍّ، بل بهدوء.

«الأب ليس معصومًا من الخطأ لمجرد أنه أب. قد يكون متعبًا، أو قاسيًا، أو عاجزًا عن فهم ابنه، لكن ذلك لا يجعل إهماله لمشاعرك .أمرًا طبيعيًا، ولا يجعل أحلامك تافهة. أنت لا تحتاج إلى أن تكره نفسك كي تثبت أنك تحترمه»

نظر إلى يديه.

«.لكنه لا يرى أي فائدة مما أفعله»

«وهل يجب أن يرى الجميع الفائدة حتى يصبح الشيء ذا قيمة؟»

لم يجب.

فقلت:

«لو كتبت قصيدة ولم يقرأها أحد، فهل تفقد كلماتها معناها؟ وإذا تدربت على رياضة ولم يشاهدك أحد، فهل تختفي القوة التي بنيتها؟ وإذا تعلمت البرمجة ولم يصفق لك أحد، فهل تصبح المعرفة أقل قيمة؟»

ابتسمت قليلًا.

«أحيانًا نعيش وكأن العالم لجنة تحكيم، ننتظر منها أن تمنحنا تصريحًا لنحب ما نحب. لكن الحياة ليست مسابقة، يا لوكاس. لست مضطرًا إلى الفوز بإعجاب الجميع حتى تستحق أن تكون سعيدًا.»

قال بصوت خافت:

«لكنني أريد أن يحبني أحد... أريد فقط أن أشعر أنني مهم بالنسبة إلى شخص ما.»

كان ذلك أكثر صدقًا من كل ما قاله حتى تلك اللحظة.

لم يطلب مالًا، ولا شهرة، ولا أن يصبح أفضل من الآخرين.

كان يريد أن يكون مهمًا.

أن يسأله أحدهم عن يومه، وأن يستمع إليه دون أن يسخر منه، وأن يفرح حين ينجح، وأن يربت على كتفه حين يفشل.

أشياء صغيرة للغاية، لكنها قد تصبح بعيدة كالمجرات حين يحرم منها الإنسان طويلًا.

قلت:

«هذه ليست رغبة مخجلة. كلنا نحتاج إلى أن نشعر بأن وجودنا يعني شيئًا لشخص آخر. لا عيب في أن ترغب في الحب، ولا ضعف في أن تتألم عندما لا تجده.»

ثم أضفت:

«لكن هناك فرقًا بين أن تحتاج إلى الحب، وبين أن تجعل غياب حب شخص معين دليلًا على أنك لا تستحق الحب أصلًا.»

رفع رأسه ببطء.

«كيف أفعل ذلك؟»

«لا أعرف إن كنت أستطيع إعطاءك إجابة واحدة تصلح لكل شيء. لكنني أعرف أن عليك ألا تجعل الأشخاص الذين خذلوك يقررون قيمة حياتك. إنهم جزء من قصتك، وليسوا القصة كلها.»

تنهد لوكاس، ثم نظر إلى النهر مجددًا.

«أحيانًا أتمنى لو أنني أستطيع إيقاف كل شيء. أن أرتاح من التفكير، ومن المحاولات، ومن الشعور بأنني عبء على الجميع.»

شعرت بثقل كلماته، لكنني لم أهرب منها.

قلت بهدوء:

«هل ما زلت تفكر في إيذاء نفسك؟»

لم يجب فورًا.

ثم أومأ برأسه.

«.نعم... لم أعد أرى طريقة أخرى»

أخذت نفسًا عميقًا، وأبقيت صوتي هادئًا.

«.أنا سعيد لأنك أخبرتني. لن أتركك تواجه هذه اللحظة وحدك»

نظر إليّ بعينين متعبتين.

«.لن تفهم... لقد وصلت إلى مرحلة لا أريد فيها شيئًا»

ربما لا أفهم كل ما في داخلك، لكنني لن أتعامل مع كلامك كأنه مجرد مبالغة. ما تمر به خطير، ويستحق أن نطلب له المساعدة» «.الآن

لم أحاول تحويل الحديث إلى محاضرة، ولم أطلب منه أن يعدني بأن يكون سعيدًا غدًا، أو أن ينسى كل ما حدث. كان ذلك سيكون ظلمًا آخر له.

طلبت منه أن يبقى معي، وأن يبتعد عن كل ما قد يؤذيه. ثم أخبرته أن علينا التواصل مع شخص بالغ يستطيع مساعدته، وأننا لن نغادر المكان قبل أن نتأكد من وصول المساعدة المناسبة إليه.

قال بعد صمت:

«.لا أريد أن يعرف أحد»

أفهم خوفك من أن يعرف الآخرون، لكن سلامتك أهم من إبقاء هذا الأمر سرًا. لن أخبر الناس لمجرد الحديث عنك، لكنني لن أخفي» «.خطرًا قد يهدد حياتك أيضًا
خفض رأسه.

«وماذا لو لم يتغير شيء؟»

أجبته:

لن أعدك بأن كل شيء سيتغير في يوم واحد. سيكون هناك عمل كثير، وربما أيام صعبة، وربما ستشعر أحيانًا بأنك عدت إلى» «.النقطة الأولى. لكن ذلك لا يعني أنك فشلت

ثم نظرت إليه وأكملت:

أريدك أن تفهم شيئًا: هذه رحلتك، نعم، وستكون لك فيها خطوات لا يستطيع أحد أن يخطوها بدلًا منك. لكن هذا لا يعني أنك وحيد» «.فيها. طلب المساعدة ليس ضعفًا، والاعتماد على أشخاص تثق بهم ليس عجزًا. لا أحد مطالب بأن يكون جيشًا كاملًا بمفرده

بقي صامتًا.

ثم قلت بنبرة أخف قليلًا:

«.وبالمناسبة، لدي اقتراح لأول خطوة»

نظر إليّ دون اهتمام كبير.

«ما هي؟»

«.أن تبكي»

رمش بعينيه، وكأنه لم يفهم.

«ماذا؟»

أريدك أن تسمح لنفسك بالبكاء إن كنت تحتاج إلى ذلك. لا تحاول أن تثبت لي أنك قوي، ولا أن تخفي حزنك حتى لا أظن أنك» «.ضعيف. لقد أمضيت وقتًا طويلًا وأنت تكتم كل شيء، وربما حان الوقت كي تتوقف عن محاكمة نفسك حتى على مشاعرك

ابتسمت ابتسامة صغيرة.

أنت لست آلة، يا لوكاس. وجسدك وعقلك ليسا مكانًا لتخزين كل ما يؤلمك إلى الأبد. لا أريد منك أن تكون بخير الآن، أريد فقط أن» «.تتوقف عن التظاهر بأنك لست متألمًا

ظل ينظر إليّ.

ثم حاول أن يتحدث، لكن صوته انكسر.

«.أنا... أنا تعبت يا نيراس»

لم أقل شيئًا.

تعبت من المحاولة... تعبت من أن أكون الشخص الذي يعتذر دائمًا، حتى عندما لا يفعل شيئًا. تعبت من الضحك معهم وأنا أعرف» «.أنهم يسخرون مني. تعبت من العودة إلى المنزل وأنا أفكر في كل كلمة قلتها، وكل شيء كان يجب أن أقوله ولم أقله

بدأت عيناه تدمعان.

«.تعبت من أن أكون جيدًا مع الناس، ثم أعود لأكتشف أنني كنت مجرد نكتة بالنسبة إليهم»

انخفض رأسه، وبدأ صوته يرتجف.

لماذا لا أستطيع أن أكون كافيًا؟ لماذا لا يستطيع أبي أن ينظر إليّ مرة واحدة ويقول إنه فخور بي؟ لماذا كل شيء أحبه يصبح سببًا» «للسخرية؟

ثم انفجر بالبكاء.

لم يكن بكاءً هادئًا أو دموعًا قليلة يستطيع إخفاءها بمسح عينيه. لقد انهارت الكلمات التي ظل يحملها طويلًا، وخرجت معه شهقات متلاحقة، حتى صار عاجزًا عن إكمال جملة واحدة.

كان يبكي بحرقة جعلتني أتوقف للحظة.

لم أكن أتوقع أن يحمل هذا الفتى كل ذلك في داخله.

جلست بجانبه، وأبقيت حضوري هادئًا، ثم ناولته منديلا. لم أطلب منه التوقف، ولم أقل له إن الأمور لا تستحق كل هذا البكاء.

فمن أنا حتى أحدد له حجم الألم الذي ينبغي أن يشعر به؟

كان كل ما أستطيع فعله أن أترك له مساحة آمنة ليخرج ما ظل يحاول دفنه.

ومع كل دقيقة تمر، كنت أكتشف أنني أمام روح شابة أنهكها العالم قبل أن تمنحها الحياة فرصة كافية لتعرف نفسها.

كيف يمكن لفتى لم يرَ من الدنيا إلا جزءًا صغيرًا أن يحمل كل هذا التعب؟

كيف استطاعت كلمات أشخاص يفترض أنهم قريبون منه أن تصبح أثقل من أحلامه؟

وكيف تحول المكان الذي كان ينبغي أن يجد فيه الأمان إلى مكان يخشى العودة إليه؟

شعرت بشيء من الغضب، لكنني لم أسمح له بأن يظهر في وجهي. لم يكن لوكاس بحاجة إلى أن يرى شخصًا غاضبًا نيابة عنه، بل كان بحاجة إلى أن يرى شخصًا قادرًا على البقاء هادئًا إلى جواره.

قلت بصوت منخفض:

«.لا بأس يا لوكاس... خذ وقتك»

بكى أكثر.

«.لا بأس أن تكون حزينًا. لا بأس أن تعترف بأنك تأذيت. أنت لست مضطرًا إلى أن تكون قويًا طوال الوقت»

وبينما كان يحاول استعادة أنفاسه، أدركت حقيقة لم أفكر فيها من قبل.
في حياتي الأولى، كنت أظن أن القوة تعني القدرة على الوقوف في وجه جيش كامل، وأن الشجاعة تعني ألا تتراجع مهما كان الثمن.

لكنني تعلمت في حياتي الثانية أن هناك شجاعة أخرى لا تقل قيمة عن تلك.

أن يعترف الإنسان بأنه يتألم.

أن يطلب المساعدة بعدما ظل يرفضها طويلًا.

أن يمنح نفسه فرصة أخرى، حتى عندما لا يستطيع تخيل شكل الغد.

وبينما كنت أنتظر وصول المساعدة التي تواصلنا معها، بقيت إلى جانب لوكاس، أستمع إليه كلما استطاع إخراج كلمة جديدة.

لم أكن فارسًا هذه المرة، ولم أحمل سيفًا أو درعًا.

كنت مجرد فتى يجلس تحت شجرة بجوار فتى آخر.

وربما كان ذلك كافيًا كبداية.

بعد أن هدأ بكاؤه قليلًا، مسح وجهه بالمنديل، ثم قال بصوت مبحوح:

«.آسف... جعلتك تشاهد هذا كله»

نظرت إليه باستغراب.

«تعتذر عن ماذا؟»

«.عن بكائي»

تنهدت، ثم قلت:

«.لوكاس، إن اعتذارك عن البكاء يشبه اعتذار شخص عن حاجته إلى التنفس»

لمعت في عينيه لمحة صغيرة من الدهشة.

«.لم أفكر في الأمر بهذه الطريقة»

«.إذن فكر فيها من الآن»

ثم أضفت مازحًا:

«.لكن لدي شكوى صغيرة»

نظر إليّ.

«ما هي؟»

لقد جعلتني أخرج للركض في الصباح الباكر، ثم تحولت إلى مستمع محترف قبل أن أتناول الإفطار. أعتقد أنني أستحق وجبة» «.محترمة بعد هذا

خرجت منه ضحكة خافتة امتزجت ببقايا دموعه.

كانت ضحكة صغيرة، متعبة، لكنها كانت أول صوت يشبه الفرح أسمعه منه.

ولم أطلب منها أن تصبح أكبر.

لم أطلب منه أن يبتسم طوال الوقت، أو أن ينسى ما حدث.

فبعض الخطوات الأولى لا تبدو عظيمة من الخارج، لكنها تكون عظيمة بما يكفي لمن اتخذها.

نظرت إلى الأشجار المحيطة بنا، ثم إلى النهر الذي واصل جريانه كأن شيئًا لم يحدث.

وفكرت في آرثر.

تذكرت أمنيته الأخيرة، حين طلب مني أن أجد صديقًا آخر، وألا أعيش حياتي وحيدًا.

لم أكن أعلم أنني سألتقي يومًا بشخص يحتاج إلى صديق بهذه الطريقة.

لكنني فهمت شيئًا الآن.

ربما لا نستطيع إنقاذ العالم كله، وربما لا نستطيع إصلاح كل ما كسره الآخرون في نفوس من نحب. لكننا نستطيع أن نكون سببًا في ألا يواجه أحدهم أسوأ لحظاته بمفرده.

وهذا ليس أمرًا صغيرًا.

أما لوكاس، فقد ظل ينظر إلى النهر لبعض الوقت، ثم قال:

«نيراس... هل تعتقد أنني أستطيع أن أبدأ من جديد؟»

نظرت إليه وقلت:

«لا أعتقد أنك بحاجة إلى أن تبدأ من الصفر. أنت لم تكن بلا قيمة حتى تبدأ في بنائها من جديد. أنت فقط تحتاج إلى أن تتعلم كيف تنظر إلى نفسك بعيدًا عن أحكام الآخرين، وأن تحصل على المساعدة التي تستحقها.»

ثم ابتسمت.

«وأريدك أن تتذكر أن حياتك أكبر بكثير من الأيام السيئة التي مررت بها. لم تكتب قصتك كاملة بعد، فلا تسمح لأشخاص لم يفهموا حتى بدايتها بأن يقرروا نهايتها.»

لم يجب، لكنه أومأ برأسه ببطء.

في ذلك الصباح، لم أستطع أن أزيل آلام لوكاس، ولم أستطع أن أعيد إليه السنوات التي قضاها وهو يشعر بأنه غير مرغوب فيه.

لكنني استطعت أن أجلس إلى جواره، وأن أسمعه، وأن أساعده على الوصول إلى من يستطيع الوقوف معه في الأيام القادمة.

وربما كان هذا أول درس حقيقي تعلمته من حياتي الثانية:

ليس كل من يحتاج إلى الإنقاذ ينتظر بطلًا يحمل سيفًا.

بعضهم ينتظر شخصًا يلاحظ صمته، ويجلس بجانبه، ويسأله بصدق:

«هل أنت بخير؟»

ثم يمتلك الشجاعة الكافية ليبقى عندما تكون الإجابة: لا.

الفصل الثاني والعشرون: أشين، الرجل الذي لا تعترف به قوانين المنطق

إذا كان هناك شخص واحد في هذا العالم يستطيع أن يجعلني أتساءل عن الحكمة من وجود العقل البشري، فهو أشين.

لا أقصد ذلك إهانة له، بل على العكس، فأشين من أقرب الأشخاص إلى قلبي، ومن أكثرهم وفاءً عندما يتعلق الأمر بالصداقة. لكنه يمتلك موهبة نادرة لا أظن أن العلم اكتشفها بعد؛ يستطيع تحويل أبسط موقف في الحياة إلى كارثة اجتماعية، ثم الخروج منها مقتنعًا بأنه الطرف المنتصر.

إنه شخص لا يعرف معنى الحدود.

لا حدود للحديث، ولا حدود للمزاح، ولا حدود للثقة بالنفس، والأهم من ذلك كله، لا حدود للقرارات الغبية التي يتخذها ثم يطالب الآخرين باحترامها.

أتذكر ذات مرة أننا كنا نلعب إحدى الألعاب عبر الإنترنت. كان الأمر في البداية طبيعيًا للغاية؛ مجموعة من الأصدقاء، مباراة عادية، وبعض المزاح بين حين وآخر.

إلى أن قرر أشين فتح فمه.

كان أداؤه في المباراة سيئًا للغاية، ولن أكون مبالغًا إن قلت إنني رأيت كراسي أكثر فائدة منه في ساحات القتال الافتراضية.

وبينما كنا نحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه، دخلت معنا امرأة في الفريق، وبعد عدة أخطاء ارتكبها أشين، لم تستطع كتمان انزعاجها.

قالت عبر المحادثة الصوتية:

«.يبدو أنك لا تجيد هذه اللعبة أصلًا»

ساد صمت قصير.

كنت أراقب الشاشة، وأظن أن أشين سيتقبل الملاحظة، أو ربما يرد بطريقة طبيعية.

يا لسذاجتي.

فجأة، اقترب أشين من الميكروفون وكأن أحدهم أعلن بداية الحرب العالمية الثالثة.

«!ماذا؟ ماذا أيتها اللعينة؟»

رفعت حاجبي.

يا إلهي، بدأ الأمر.

تابع أشين بصوت مرتفع:

«...هل هناك لعينة تتحدث معي؟ هل هناك أنثى تتحدث معي الآن؟ هل أنا»

حاولت المرأة مقاطعته:

«...اسمع، أنا فقط أقول إنك لا تعرف كيف تلعب، وربما عليك أن»

«!لا، لا، لا! انتظري»

رفع أشين إصبعه أمام الشاشة، وكأنها تستطيع رؤيته.

«!هل أنا أتخيل؟ هل أنا أتخيل أم أن هناك أنثى تكلمني الآن؟ أنثى لعينة تتحدث معي؟»

ثم أخذ نفسًا عميقًا، وأكمل بنبرة شخص يعلن حكمًا ملكيًا:

«!أخرجي من اللعبة، وحضّري لزوجك شطيرة»

تجمدت في مكاني.

أما بقية الفريق، فقد تحولوا إلى مجموعة من المشاهدين الذين يشاهدون حادثًا لا يستطيعون إيقافه.

قال أحدهم بصوت متردد:

«.يا أخي... إنها تلعب معك في الفريق»

رد أشين فورًا:

«!وهذا هو سبب المشكلة»

لم أعد أستطيع التركيز على المباراة. كنت أحاول منع نفسي من الضحك، بينما كانت المرأة ترد عليه بكلمات غاضبة، وأشين يواصل الدفاع عن كرامته المهددة داخل لعبة إلكترونية.

وفي نهاية الأمر، خسرنا المباراة.

وبطبيعة الحال، أعلن أشين أن الخسارة كانت بسبب ضعف التنسيق بين أعضاء الفريق، وأنه لم يحصل على الدعم الكافي.

نعم، بالطبع.

المشكلة لم تكن في أدائه، ولا في قراراته، ولا في إضاعة نصف وقت المباراة في جدال لا طائل منه.

المشكلة كانت في الفريق.

أحيانًا أتساءل إن كان أشين يستطيع خسارة سباق ضد سلحفاة، ثم يقنع نفسه بأن السلحفاة استخدمت أساليب غير قانونية.

لكن تلك لم تكن أغرب مواقفه.

فإذا كانت الألعاب الإلكترونية ساحة يستطيع فيها أشين إطلاق العنان لجنونه، فإن العلاقات الاجتماعية تمثل بالنسبة إليه ساحة معركة لا يعرف فيها حتى أين يقف العدو.

وأفضل مثال على ذلك كان اليوم الذي قرر فيه الاعتراف لفتاة تعجبه.
كنت أقف على مسافة ليست بالبعيدة عنه، أتحدث مع أحد الشباب، بينما كان أشين يستعد لتنفيذ ما وصفه بأنه «أهم خطوة في .«حياته

لقد قضى وقتًا طويلًا في التفكير فيما سيقوله، وطلب مني رأيي مرات عديدة.

«هل أقول لها إنني معجب بها؟»

«.نعم، قل ذلك ببساطة»

«أم أقول إنني أشعر بشيء مختلف عندما أراها؟»

«.هذا جيد أيضًا»

«أم أخبرها أنني أريد أن أكون الشخص الذي يجعلها تبتسم؟»

«.أشين، أنت لا تزال تتحدث عن الاعتراف، لا عن كتابة وصية»

رمقني بنظرة مستاءة.

«.أنت لا تفهم شيئًا عن الرومانسية»

لم أرد.

فأنا، على الأقل، لم أكن الشخص الذي تدرب أمام المرآة على جملة اعتراف لمدة أربعين دقيقة.

وبعد كل ذلك التحضير النفسي، تقدم أشين نحو الفتاة.

وقفت أراقب من بعيد، وأنا أشعر ببعض التعاطف معه. لم يكن الأمر سهلًا، خاصة بالنسبة إلى شخص مثله، اعتاد إخفاء ارتباكه خلف المزاح والثرثرة.

بدأ الحديث بينهما.

لم أسمع الكلمات الأولى، لكنني رأيت أشين يحرك يديه كثيرًا، ثم يشير إلى نفسه، وبعدها بدا وكأنه يحاول شرح شيء معقد للغاية.

وأخيرًا، قال ما كان يريد قوله.

استمعت الفتاة إليه حتى انتهى، ثم أجابته بوضوح شديد:

«.آسفة، لكنني لا أبادلك الشعور. وبصراحة، لا أراك بهذه الطريقة إطلاقًا»

ثم أضافت شيئًا آخر لم أسمعه.

لكنني رأيت وجه أشين.

...يا إلهي

كان الأمر أشبه بمشاهدة جندي يعود من معركة وقد اكتشف أن الجيش الذي قاتل من أجله كان في إجازة.

ابتسم ابتسامة متيبسة، وأومأ برأسه، ثم قال شيئًا لا أستطيع سماعه.

وبعدها عادت الفتاة إلى صديقاتها.

أما أنا، فقد كنت على مسافة منه، أحاول فهم ما حدث.

...وفجأة

بدأت أسعل.

لم يكن لدي مرض، ولم أكن أعاني من حساسية، لكنني شعرت بأن الكلمات التي سمعها أشين قد قطعت المسافة بيننا وأصابت رئتي مباشرة.

وضعت يدي على صدري، محاولًا استعادة أنفاسي.

«...أ... أح»

نظرت إلى أشين، ثم قلت بين سعلتين:

«!أراهن... أن حتى أحفاد أشين... سيشعرون بهذا الرفض»

التفت إليّ أحد الشباب مستغربًا.

«ما علاقة أحفاده بالموضوع؟»

أجبته وأنا أحاول كتم ضحكتي:

«!لا أعرف، لكنني أشعر أن الصدمة تجاوزت حدود هذا الجيل»

ثم بدأت أفرك يديّ ببعضهما، وارتسمت على وجهي ابتسامة لم تكن تبشر بالخير.

«.هذا... سيكون حافزًا ممتازًا له ليأتي إلى التمارين»

نظر إليّ الشاب باستغراب.

«.أنت تتحدث وكأنك وجدت للتو سببًا لاستغلال مصيبة صديقك»

أجبته بجدية مصطنعة:

«.بل وجدت فرصة ذهبية لتحويل المعاناة العاطفية إلى لياقة بدنية»

ثم أضفت وأنا أراقب أشين من بعيد:

«.إنه يحتاج إلى هدف جديد في حياته. وربما تكون عضلات البطن هي ذلك الهدف»

لكنني، في أعماقي، كنت أعرف أنني لا أملك الحق في السخرية منه كثيرًا.

فإذا تحدثنا عن الفشل في الأمور العاطفية، فأنا لست بالضبط الشخص الذي يحق له تقديم النصائح.

في حياتي السابقة، قضيت سنوات طويلة أحب إيلارا بصمت. كنت أراقبها من بعيد، وأبحث عن اللحظة المناسبة لأقول لها ما أشعر به، حتى انتهى الأمر بي وأنا أقرأ خبر زواجها من رجل آخر.

يا لها من خبرة عاطفية عظيمة!

عشت حياة كاملة، وخضت حروبًا، وأصبحت فارسًا، وكنت قادرًا على وضع الخطط العسكرية المعقدة... لكنني لم أستطع حتى أن أقول لفتاة إنني أحبها في الوقت المناسب

لو كان هناك كتاب بعنوان «كيف تفشل في الحب رغم امتلاكك قرونًا من الخبرة الحياتية»، فأنا أستحق أن أكون مؤلفه الأول.

لذلك، لا، لم أكن أفضل من أشين في هذا الجانب.

ربما كنت أكثر هدوءًا منه، وربما لم أكن أصرخ في وجه العالم عندما أتعرض للرفض، لكنني كنت أملك سجلًا عاطفيًا لا يقل كارثية.

والفرق الوحيد بيننا أن أشين يحول مصائبه إلى نكات، بينما كنت أنا أحولها إلى مآسٍ أدبية طويلة.

أعتقد أنني بحاجة إلى مراجعة أسلوبي في الحياة.

على الأقل، أشين يملك الشجاعة ليعترف بما يشعر به، حتى لو انتهى به الأمر إلى تلقي رفض يجعل أحفاده يشعرون بالصداع.

...أما أنا

حسنًا، دعونا لا نفتح هذا الملف الآن.

وهنا، أيها القارئ العزيز، أعتقد أن الوقت مناسب للعودة إلى الراوي.

«.ها أنت تروي الآن»

كان الصوت هادئًا، لكنه يحمل نبرة شخص وجد فرصة ذهبية للتدخل في عمل لا يخصه.

التفت روح الزمن نحو الفراغ، حيث ظهر الراوي أخيرًا.

«.أوه! ها أنت ذا! كنت أتساءل متى ستظهر»

رد الراوي بامتعاض:

«.أنا أروي فقط لأن هذا الفتى لا يدرك وجودنا. لو كان يعرف أننا هنا، لما استطعت قول كلمة واحدة دون أن يقاطعني»

رفع روح الزمن حاجبيه.

«إذن أنت تعترف بأنك تحتاج إلى غياب وعيه حتى تستطيع أداء عملك؟»

«!لا تحاول تحريف كلامي»

ضحك روح الزمن، ثم وضع يديه خلف ظهره.

على أي حال، كان حديثًا ممتعًا. خصوصًا الجزء الذي تحدث فيه عن فشله العاطفي. لم أتوقع أن يكون لدينا فارس سابق يمتلك سجلًا رومانسيًا بهذا السوء.»

رد الراوي:

«.أنت آخر من يحق له الحديث عن العلاقات»

«أنا؟ لماذا؟»

«.لأنك كائن يتحكم بالزمن، ومع ذلك تقضي وقتك في إزعاج الآخرين بدلًا من إصلاح مشاكلك الخاصة»

وضع روح الزمن يده على صدره.

«.يا لها من إهانة! أنا لا أملك مشاكل خاصة. أنا كائن متكامل»

«.أنت متكامل من ناحية الإزعاج فقط»

ابتسم روح الزمن، ثم التفت إلى القراء.

«.حسنًا، دعونا نتحدث عن شيء أكثر أهمية»

أشار بيده، فظهرت أمامه عدة خطوط مضيئة متشابكة، تمتد في فضاء واسع لا يبدو أن له نهاية.

«.هل تتذكرون ما قاله نيراس قبل قليل؟ إنه يراهن على أن أحفاد أشين سيشعرون بألم الرفض نفسه»

ابتسم ابتسامة غامضة.

«.حسنًا... يبدو أن مزحته كانت أكثر دقة مما ينبغي»

اقترب من أحد الخطوط المضيئة.

لسبب لا أعرفه حتى الآن، تسبب ذلك الرفض تحديدًا في اضطراب زمني صغير. ليس شيئًا خطيرًا، لكنه غريب بما يكفي ليستحق» «.أن أتحدث عنه

مرر إصبعه على أحد الخيوط.

«.في بعض الخطوط الزمنية الأخرى، كبر أشين، وعاش حياته، وتزوج، وأصبح لديه أبناء، ثم أحفاد»

ثم التفت إلى القارئ.

«...نعم، هناك بالفعل أحفاد لأشين في بعض العوالم. وأريدكم أن تتخيلوا شيئًا»

مال برأسه قليلًا.
في هذه اللحظة بالذات، وفي التوقيت نفسه الذي تحدث فيه نيراس عن تلك الحادثة، شعر بعض أحفاد أشين بألم مفاجئ في» «!صدورهم، وكأن صدمة الرفض عبرت الأجيال لتصل إليهم

صمت قليلًا، ثم أطلق ضحكة.

تخيلوا ذلك المشهد. حفيد لأشين يجلس مع عائلته على مائدة الإفطار، يتناول طعامه بهدوء، وفجأة يضع يده على صدره ويقول: لا» «.أعرف لماذا أشعر بحزن عميق

قلّد صوتًا دراميًا:

«هل حدث شيء يا بني؟»

ثم أجاب بصوت آخر:

«.لا يا أمي... أشعر فقط أن جدي رُفض قبل سنوات طويلة»

انفجر ضاحكًا.

«!يا لها من وراثة عاطفية! هناك من يرث لون العينين، وهناك من يرث الطول، وأحفاد أشين يرثون آثار الرفض الرومانسي»

وفي الخلفية، ارتفع صوت الراوي:

«أنت تعلم أنك تفسد إيقاع الفصل، أليس كذلك؟»

التفت روح الزمن.

«أوه، ما زلت هنا؟»

«.للأسف، نعم»

«.حسنًا، لدي سؤال لك»

«ماذا؟»

«هل فكرت يومًا في تغيير مهنتك؟»

«!أنا الراوي»

«.أجل، وهذه هي المشكلة»

رفع روح الزمن كتفيه، ثم عاد إلى القراء.

«.على أي حال، لا تخبروا أشين بما حدث. لا أريد أن يبدأ في البحث عن أحفاده ليعتذر إليهم عن الألم الذي تسبب فيه»

ثم أضاف بابتسامة خبيثة:

«.أو ربما يخبرهم أنه كان ضحية مؤامرة كونية»

أشار بيده، فعادت الخطوط الزمنية إلى الاختفاء.

«أوه، وبالمناسبة... إذا شعر أحدكم بألم غريب في صدره بعد قراءة هذا الفصل، فلا تقلقوا. من المحتمل أن يكون أحد أحفاد أشين قد .رُفض للتو في خط زمني مجاور»

ثم رفع إبهامه.

«!اعتنوا بأنفسكم»

صفق بيديه.

وعاد الزمن إلى الحركة.

واصل نيراس السير دون أن يدرك أن شيئًا قد حدث.

كان لا يزال يفكر في أشين، وفي الطريقة التي سيحاول بها تحويل رفض فتاة إلى مشروع تطوير بدني شامل.

قال لنفسه:

«.ربما ينبغي أن أشجعه قليلًا. من يدري؟ قد يصبح أفضل رياضي في المكان بسبب تلك الحادثة»

ثم أضاف:

«.مع أنني أشك في أنه سيستمر أكثر من ثلاثة أيام قبل أن يقرر أن عضلاته تحتاج إلى إجازة»

ضحك وحده.

كان العالم يمضي كالمعتاد، والناس يتابعون أعمالهم، والشمس ترتفع ببطء في السماء.

أما في مكان بعيد، وفي خط زمني لا يعرف عنه نيراس شيئًا، فقد وضع شاب يده على صدره فجأة، ونظر حوله باستغراب.

«غريب... لماذا أشعر بحزن شديد؟»

وفي خط زمني آخر، توقف رجل في منتصف حديثه مع زوجته.

«هل أنت بخير؟»

«.لا أعرف... شعرت للتو أن قلبي قد انكسر»

نظرت إليه زوجته بريبة.

«هل فعلت شيئًا دون أن تخبرني؟»

«!ماذا؟ لا»

«.إذن لا تبدأ بالتمثيل»

أما في مكان ثالث، فقد استيقظ طفل صغير من نومه وهو يصرخ:

«!لاااا! لا ترفضيني»

ولم يكن أحد في تلك العوالم يعرف السبب.

إلا روح الزمن.

الذي كان، في تلك اللحظة، يراقب كل ذلك من مكانه ويضحك.

«.آه... أشين. هدية أخرى من هداياك للأجيال القادمة»

أما نيراس، فلم يكن يعرف شيئًا عن كل هذا.

كان فقط يتساءل إن كان صديقه قد حضر إلى التدريب أم لا.

ولم يكن يعلم أن مجرد ذكر اسم أشين قد تسبب في واحدة من أغرب الكوارث العاطفية التي شهدتها خطوط الزمن.

يا له من رجل...

الفصل الثالث والعشرون: ظلالٌ لا تنام، وخيانةٌ في وضح النهار

يقولون إن الحياة الجديدة تمنح الإنسان فرصة للبدء من الصفر، وإن الماضي، مهما كان ثقيلًا، لا يستطيع الوقوف في طريق من قرر المضي قدمًا.

ربما يكون ذلك صحيحًا بالنسبة إلى البعض.

أما أنا، فقد اكتشفت أن تغيير الحياة لا يعني بالضرورة التخلص من آثار الحياة السابقة.

فبعض الذكريات لا تغادر بمجرد أن نفتح أعيننا في عالم مختلف، وبعض الأصوات تظل عالقة في أعماقنا، وبعض المشاهد تعود إلينا في اللحظات التي نظن فيها أننا أصبحنا بخير.

بالنسبة إليّ، لم تكن تلك الذكريات مجرد صور عابرة أتذكرها بين الحين والآخر، بل كانت تأتي أحيانًا على هيئة كوابيس، أو نوبات خوف مفاجئة، خصوصًا عندما أسمع صوت انفجار.

قد يكون الأمر مجرد صوت ألعاب نارية في الشارع، أو إطار سيارة ينفجر، أو حتى صوت شيء ثقيل يسقط على الأرض بطريقة مفاجئة.

لكن عقلي لا يهتم كثيرًا بالفارق بين تلك الأصوات.

ففي لحظة واحدة، يتوقف الزمن من حولي، ويعود كل شيء إلى ذلك اليوم.

اليوم الذي فقدت فيه آرثر.

هناك كابوس بعينه يتكرر بين الحين والآخر، كأن عقلي قرر أن يعيد عرض أكثر أيام حياتي قسوة، دون أن يمنحني خيار إغلاق الستار.

أجد نفسي في ساحة المعركة مجددًا. السماء رمادية، والهواء ثقيل، والغبار يملأ المكان. أسمع صرخات الجنود، وقع الأقدام، واصطدام الأسلحة ببعضها. أبحث بعيني بين الوجوه، وأعرف مسبقًا ما الذي سأجده، ومع ذلك أواصل البحث، كأن جزءًا مني يأمل أن تكون النهاية هذه المرة مختلفة.

ثم أراه.

آرثر.

أركض نحوه، أناديه، أحاول الوصول إليه، لكن المسافة بيننا تبدو أطول مما ينبغي. وحين أصل إليه، أجد نفسي أعيش اللحظة نفسها مرة أخرى؛ اللحظة التي تمنيت لو استطعت انتزاعها من ذاكرتي إلى الأبد.

أستيقظ بعدها فجأة، جالسًا على سريري، ألهث وكأنني كنت أركض لمسافات طويلة. يكون جسدي مغطى بالعرق البارد، وقلبي يخفق بعنف، بينما أحاول إقناع نفسي بأنني في غرفتي، وأنني لم أعد هناك.

وأحيانًا، لا أستيقظ بهدوء.

قد أصرخ دون أن أشعر، أو أمد يدي أمامي كأنني أحاول الإمساك بشخص يبتعد عني.

وفي بعض تلك الليالي، حين أفتح عيني، أرى الدماء على يديّ.

تغطي أصابعي، وتمتد إلى راحتي، وأشعر للحظة بأنها لطخت وجهي وثيابي أيضًا. أنظر إلى جسدي بفزع، وأحاول استيعاب ما أراه، قبل أن أرمش عدة مرات وأكتشف أن كل ذلك لم يكن سوى وهم صنعه عقلي من ذكريات قديمة.

لا دماء هناك.

لا ساحة معركة.

لا صرخات.

فقط غرفتي، ونافذتي، وصوت أنفاسي المضطربة.

أجلس لبعض الوقت، أضم ركبتيّ وأحدق في يديّ حتى يهدأ ارتجافهما.

ثم أتنفس بعمق، وأذكر نفسي بالحقيقة.

أنا نيراس الآن.

لست لوسين الذي عاش بين الحروب والسيوف، ولست ذلك الفارس الذي لم يكن يعرف كيف ينام دون أن يضع سلاحه بالقرب منه.

أنا مجرد فتى يعيش حياة عادية، لديه والدان يقلقان عليه، وصديق لا يعرف معنى الهدوء، وفتاة تجيد إرباك أفكاره دون أن تبذل جهدًا يُذكر.

حياة مختلفة تمامًا.

ومع ذلك، لا تزال بعض الظلال تعرف الطريق إليّ.

لكنني تعلمت شيئًا واحدًا على الأقل: ليس عليّ أن أكون بخير طوال الوقت حتى أستحق الاستمرار.

وهكذا، مع مرور الأيام، أصبحت أتعامل مع تلك الذكريات كما أتعامل مع جرح قديم؛ لا أستطيع إنكار وجوده، لكنني لا أسمح له بأن يقرر كيف أعيش بقية يومي.

كان ذلك صباح يوم دراسي عادي.

أو هكذا كان من المفترض أن يكون.

جلست في مقعدي أراقب الأستاذ وهو يشرح درسًا بدا أنه قرر أن يستمر إلى الأبد. كانت الكلمات تتدفق من فمه بإيقاع منتظم، بينما كنت أحاول بكل ما أملك من إرادة أن أركز فيما يقوله.

لكن المشكلة كانت تجلس خلفي مباشرة.

أشين.

ذلك الكائن الذي يبدو أن عقله لا يعرف معنى الصمت، حتى عندما يكون الصمت هو الخيار الوحيد الذي قد ينقذه من العقاب.

مال قليلًا نحوي وهمس:

«.نيراس»

لم ألتفت إليه، واكتفيت بتحريك عيني نحوه.

«ماذا؟»

«هل تعرف لماذا يكره الأستاذ الطلاب الذين يتحدثون أثناء الشرح؟»

أجبته بصوت منخفض:

«لأنهم يزعجونه؟»

هز رأسه بجدية مصطنعة.

«لا. لأنه يشعر بالغيرة. تخيل أنك تقف أمام ثلاثين شخصًا تتحدث لمدة ساعة، ولا يهتم بك أحد، بينما يكفي أن يهمس طالب بكلمة واحدة حتى يلتفت إليه نصف الصف.»

أغمضت عيني للحظة.

«أشين، هل فكرت يومًا في استخدام عقلك لشيء مفيد؟»

«بالطبع. لقد استخدمته صباح اليوم لأقرر ألا أدرس.»

«قرار عبقري، لا شك في ذلك.»

تابع الأستاذ شرحه دون أن يلاحظ حديثنا، بينما أخرج أشين ورقة صغيرة وبدأ يكتب عليها شيئًا. ثم دفعها إلى طرف طاولتي.

نظرت إليها.

كان قد رسم وجه الأستاذ، لكن بصورة مبالغ فيها؛ عينان واسعتان، وفم طويل، وشعر يقف في جميع الاتجاهات، وفوق رأسه عبارة: «الخطر المحدق بالطلاب».

وضعت يدي على فمي محاولًا منع نفسي من الضحك.

همس أشين:

«أعترف أنني موهوب.»

كتبت على طرف الورقة:

«موهوب في تدمير مستقبلك الدراسي.»

قرأ ما كتبت، ثم أضاف أسفل رسمته جسدًا صغيرًا يحمل كتابًا ضخمًا، وكتب بجانبه: «الضحية».

لم أعد أستطع مقاومة ابتسامتي.

ثم همس قائلًا:

«هذا أنت عندما يحاول الأستاذ شرح الرياضيات.»

نظرت إليه ببطء.

«سأجعلك تندم.»

«تهديداتك لا تخيفني، أيها القصير—»

لم يكمل جملته، فقد رسم لنفسه تاجًا صغيرًا فوق رأسه، وكتب: «العبقري الذي لا يُقدّر».

انفلتت مني ضحكة قصيرة، تبعتها ضحكة مكتومة من أشين.

لكن يبدو أن القدر قرر أن يختبر مدى ولائنا لبعضنا في ذلك الصباح.

فجأة، توقف صوت الأستاذ.

ساد الصمت في الصف.

رفع رأسه ببطء، ثم نظر مباشرة إلى الخلف.

كان أشين لا يزال يضحك، وقد حاول إخفاء فمه بيده، لكن كتفيه كانا يتحركان بصورة فضحته تمامًا.

قال الأستاذ بنبرة صارمة:

«أشين! هل تود مشاركتنا بما يثير اهتمامك إلى هذه الدرجة؟»

تجمد أشين في مكانه.

ثم، وبحركة غريزية، التفت نحوي.

كنت جالسًا باستقامة تامة، أنظر إلى السبورة بوجه لا يحمل أي تعبير.

بل أظن أنني كنت أكثر شخص جدية في ذلك الصف كله.

نظر إليّ أشين، واتسعت عيناه قليلًا.

وفي داخله، سمعت صوته المتخيل بوضوح:

أيها الخائن!

لم أحتج إلى قراءة أفكاره حقًا كي أعرف ما يدور في رأسه.

قال الأستاذ:

«.انهض، أشين»

وقف أشين ببطء.

«—أستاذ، يمكنني التوضيح»

«.لا حاجة إلى التوضيح. اجمع أغراضك واخرج من الصف حتى نهاية الحصة»

«!لكنني لم أفعل شيئًا»

رفع الأستاذ حاجبه.

«حقًا؟ إذن كنت تضحك وحدك؟»

«.في الحقيقة، نعم... لدي حس فكاهي مستقل»

«.إلى الخارج»

خرج أشين وهو يتمتم بكلمات لم أستطع سماعها، لكنه منحني نظرة أخيرة قبل أن يغلق الباب.

كانت نظرة رجل خانه أقرب الناس إليه.

أما أنا، فقد عدت إلى النظر إلى السبورة بكل براءة ممكنة.

وبعد لحظات، سمعت صوتًا خافتًا بجانبي.

«.خائن»

التفتُّ قليلًا.

كانت فريسيا تنظر إليّ، وقد أمالت رأسها إلى الخلف بطريقة غريبة قليلًا، كأنها تحاول رؤية وجهي من زاوية لم تخطر على بال أحد. كان شعرها البني يتحرك فوق كتفها، وعيناها تحملان بريقًا مرحًا.

خفضت صوتها وسألتني:

«لماذا خنته؟»

نظرت إليها باستغراب مصطنع.

«وما ذنبي إن كان لا يستطيع كبح ضحكته؟»

ابتسمت.

«.لكنك كنت تضحك معه»

«.كنت أضحك على غبائه، وهذا فرق جوهري»

وضعت يدها على فمها كي لا تضحك بصوت مرتفع.

أضفت بنبرة هادئة:

«.ثم إن ضحكته مضحكة أصلًا. لا أعرف كيف يستطيع أن يصدر ذلك الصوت دون أن يختنق»

كادت تضحك مجددًا، لكنها تمالكت نفسها.

«.ومع ذلك، تركته يتحمل العقوبة وحده»

«.هذا نصيبه لأنه يستفزني بغبائه. لقد حذرته مرارًا من أن يتوقف عن التصرف كأنه عبقري، لكنه يصر على اختبار صبري»

نظرت فريسيا إلى الباب، ثم عادت إليّ.

«.أظن أنه سيظل يتهمك بالخيانة حتى نهاية اليوم»

«.بل حتى نهاية حياته، على الأرجح»

ابتسمت، ثم قالت وكأنها تذكرت شيئًا:

«.بالمناسبة، سمعت أمرًا غريبًا عنك»

رفعت حاجبي.

«عنّي؟»

«.نعم. يقولون إنك عندما تغضب بشدة، تبدأ بالتحدث بلغة غريبة»
توقفت للحظة.

ثم أطلقت زفيرًا خافتًا، وأدرت عيني نحو السبورة حتى لا تلاحظ التغير الطفيف في ملامحي.

«من قال ذلك؟»

«.أحد زملائنا. قال إنه سمعك مرة تتمتم بكلمات لم يفهم منها شيئًا»

أجبتها بابتسامة صغيرة:

«.ربما كان يتخيل»

«حقًا؟»

«.ربما»

لم تكن تتوقع أنني سأجيب بهذه السرعة، لذلك اكتفت بالنظر إليّ قليلًا، قبل أن تعود إلى دفترها.

أما أنا، فقد وجدت نفسي غارقًا في أفكاري.

لغة غريبة؟

حسنًا، لم تكن غريبة بالنسبة إليّ على الإطلاق.

كانت تلك لغتي في حياتي الأولى.

لغة نشأت بين القلاع والجنود والملوك، وسمعتها على ألسنة الفرسان والناس في الطرقات والساحات. لغة رافقتني سنوات طويلة، حتى أصبحت الكلمات فيها تخرج مني دون تفكير.

وبصراحة، كان من المريح أنني ما زلت أستطيع استخدامها.

ففي بعض الأحيان، عندما يغضب المرء بشدة، يحتاج إلى أن يشتم بكل أريحية، دون أن يضطر إلى التفكير في الترجمة أو اختيار الكلمات المناسبة.

خصوصًا عندما يكون أشين هو السبب.

تنهدت بهدوء، ثم نظرت إلى الورقة التي تركها خلفه.

رسمته السخيف ما زال أمامي.

أمسكت القلم، وأضفت إلى الرسم سيفًا صغيرًا مغروسًا في رأس الشخصية، ثم كتبت أسفلها:

«.هنا يرقد أشين، ضحية لسانه وقلة عقله»

كتمت ابتسامة صغيرة.

يبدو أنني لم أكن بريئًا تمامًا كما اعتقد الأستاذ.

وفي تلك اللحظة، سمعت صوت فريسيا يهمس بجانبي:

«ماذا كتبت؟»

دفعت الورقة قليلًا نحوها.

نظرت إليها، ثم وضعت يدها على فمها وهي تحاول منع ضحكتها.

أما أنا، فاكتفيت بالعودة إلى الكتاب، متظاهرًا بأنني طالب مجتهد لم يرتكب أي مخالفة منذ بداية الحصة.

لكنني كنت أعرف أن أشين لن يتركني وشأني بعد خروجه.

وبصراحة، كنت أتطلع إلى سماع خطبته الطويلة عن الخيانة والوفاء والصداقة، والتي سيختمها على الأرجح باتهامي بأنني لا أصلح حتى لأكون شاهدًا في محكمة.

يا له من صديق رائع.

رائع حقًا.

لكن ربما كان ذلك أحد أسباب تمسكي بهذه الحياة.

فبعد سنوات طويلة قضيتها بين الحروب والخسارات والقرارات التي لا تحتمل الخطأ، أصبحت أجد في هذه التفاصيل الصغيرة ما لم أجده يومًا في القصور أو ساحات المعارك.

صديق أحمق يضحك في غير وقته.

فتاة تمازحني بهدوء.

وأستاذ يطرد طالبًا من الصف لأنه لم يستطع التحكم بضحكته.

أشياء بسيطة، لا تستحق أن تُكتب في كتب التاريخ، لكنها تستحق أن تُعاش.

وربما، للمرة الأولى منذ زمن طويل، لم أكن أريد أن أكون بطل حكاية عظيمة.

كنت أريد فقط أن تنتهي الحصة، وأن يعود أشين إلى مقعده، وأن يستمر هذا اليوم العادي كما هو.

الفصل الرابع والعشرون: ليلة الحرية، وكارثة ذات اثنين وثلاثين عامًا

هناك أيام تستيقظ فيها وأنت تظن أن كل شيء سيكون عاديًا. لا أحداث غريبة، ولا مفاجآت غير متوقعة، ولا كوارث تستحق أن تُروى للأجيال القادمة.

مجرد يوم هادئ في المنزل، تستيقظ فيه، تتناول فطورك، وربما تقضي بعض الوقت في اللعب أو مشاهدة التلفاز.

كان ذلك ما اعتقدته في البداية.

استيقظت في ذلك الصباح متثاقلًا، وفركت عينيّ قبل أن أخرج من غرفتي. كان المنزل هادئًا على نحو مريح، ووجدت أمي في الصالة، منشغلة ببعض الأمور بينما كان التلفاز يعمل في الخلفية.

ألقيت عليها التحية، فردت بابتسامة، ثم اتجهت نحو المطبخ بحثًا عن شيء أتناوله.

لكنني ما إن تجاوزت المدخل حتى توقفت مكاني.

كان أبي واقفًا فوق طاولة المطبخ.

نعم، فوق الطاولة.

بكامل قامته، وحذائه، وملامحه الجادة، وكأنه يستعد لخوض معركة مصيرية ضد عدو غير مرئي.

حدقت فيه لثوانٍ، محاولًا التأكد من أنني لم أستيقظ داخل أحد أحلامي الغريبة.

ثم قلت:

«أبي... ماذا تفعل؟»

التفت إليّ ببطء، ووضع إصبعه على شفتيه طالبًا مني الهدوء.

«.هناك شيء خاطئ»

نظرت إلى الطاولة، ثم إليه.

«كيف؟»

أجاب بصوت منخفض، وكأنه يخبرني بسر عسكري بالغ الخطورة:

«.أمك في مزاج جيد»

ساد الصمت.

رمشت بعيني مرتين.

«وماذا في ذلك؟...»

نظر إليّ بجدية أكبر.

«.تبًّا»

حدقت فيه مجددًا، ثم أشرت إلى الأرض.

«.انزل من هناك، قد تأتي»

رفع ذقنه بثقة مبالغ فيها.

«.أنا لا أخاف منها»

في تلك اللحظة تحديدًا، شعرت بأن شيئًا ما ليس على ما يرام.

لم يكن الخوف الذي ظهر في عينيه هو المشكلة، بل حقيقة أنه لم يكن ينظر خلفي.

فقد كانت أمي قد دخلت المطبخ بالفعل، واتكأت على إطار الباب، تنظر إليه بصمت.

كانت ملامحها هادئة تمامًا، لكن عينيها كانتا تحملان ذلك النوع من الهدوء الذي يسبق العواصف.

نظرت إليها، ثم إلى أبي، ثم عدت إليها.

لم أعرف ماذا أقول.

أما أبي، فواصل حديثه بثقة الرجل الذي لا يدرك أن نهايته تقف خلفه مباشرة.

«ثم إنني لا أفهم لماذا يعتقد الجميع أنني أخاف منها. أنا رجل مسؤول، ولدي كرامتي، ولن أسمح لأحد بأن»

«.فيكتور»

تجمد أبي.

لم أكن بحاجة إلى الالتفات كي أعرف أن أمي ابتسمت.

لكن أبي التفت ببطء شديد، وكأن عنقه أصبح فجأة أثقل من المعتاد.

«ن... نعم؟»

رفعت أمي صوتها:

«!فيكتور»

صرخ أبي:

«!آآآآآه»

وفي أقل من ثانية، ظهرت المكنسة في يد أمي.

بدأت المطاردة.

نزل أبي عن الطاولة محاولًا الهرب، بينما أخذت أمي تضرب ساقيه بالمكنسة، وهو يقفز يمينًا ويسارًا ويطلق احتجاجات لا يبدو أن أحدًا مهتم بسماعها.

«!انتظري! انتظري! يمكننا التحدث عن الأمر»

«!أي أمر؟»

«!لا أعرف! لكنني متأكد من أننا نستطيع التوصل إلى حل»

كنت واقفًا في منتصف المطبخ، أحاول استيعاب المشهد، قبل أن أقرر التدخل.

أمسكت بسروال أبي من الخلف وبدأت أسحبه بعيدًا عن نطاق ضربات المكنسة.

«!أبي، تعال من هنا»

صرخ وهو يحاول المحافظة على توازنه:

«!أحسنت يا بني! أنقذ والدك»

سحبته خطوة أخرى، ثم نظرت إلى ساقيه وقلت بجدية:

«.يا لها من سيقان قوية»

التفت إليّ وهو يلهث.

«.شكرًا، لقد اعتنيت بها بنفسي»

نظرت إليه باستغراب.

«.أنا أتحدث عن الطاولة»

صمت أبي للحظة.

ثم نظر إلى الطاولة، وعاد ينظر إليّ.

«.آه»

أما أمي، فقد توقفت عن تحريك المكنسة للحظة، ونظرت إلى حذائه.

«.فيكتور»

ابتلع أبي ريقه.

«نعم، عزيزتي؟»

«.على الأقل، انزع حذاءك قبل أن تقف فوق الطاولة»

نظر أبي إلى قدميه، وكأنه اكتشف للتو أنه يرتدي حذاءً.

«...صحيح»

انحنى، ونزع حذاءه الأيمن، ثم الأيسر، قبل أن يرفع أحدهما في يده.

ظننت أنه سيضعهما جانبًا.

لكن لا.

رمى أحدهما باتجاهي.

ارتطم الحذاء برأسي.

«!آخ! أبي»

قال بكل هدوء:

«.آسف، كان عليّ التخلص من الأدلة»

حدقت فيه بعدم تصديق.

أما أمي، فقد عادت إلى الإمساك بالمكنسة.

«!فيكتور»

«!حسنًا، حسنًا! لقد فهمت»

ثم نظر إليّ فجأة، ومد ذراعيه.

«!التقط»

لم أفهم ما يقصده إلا عندما قفز من فوق الطاولة.

وفي اللحظة التالية، وجدت نفسي مستلقيًا على الأرض، وأبي فوقي.

خرج الهواء من صدري دفعة واحدة.

حدقت في السقف.

ثم التفتُّ إليه بصعوبة.

«...أبي»

«نعم؟»

«.أعتقد أنك قتلت ابنك»

«.لا تبالغ، أنت ما زلت تتحدث»

«.هذه ليست علامة كافية على سلامتي»

ومن فوقنا، وصل صوت أمي:
«!أنتما الاثنان... نظفا المطبخ»

تنهدت.

كان ذلك يومًا عاديًا بالفعل.

على الأقل، وفقًا لمعايير عائلتنا.

حلّ الغروب أخيرًا.

كانت أمي قد انتهت من تجهيز حقيبتها، إذ كان عليها السفر إلى مدينة أخرى للمشاركة في مسابقة رياضية. وقفت عند الباب، تتأكد من أنها لم تنسَ شيئًا، بينما كان أبي يساعدها في حمل بعض الأغراض.

وقبل أن تغادر، التفتت إلينا بنظرة تحذيرية.

«.أريدكما أن تتصرفا بعقلانية أثناء غيابي»

أومأ أبي فورًا.

«.بالطبع»

ثم نظرت إليّ.

«.وأنت يا نيراس، لا تسمح لأبيك بفعل أي شيء متهور»

أجبتها:

«.سأحاول»

ضيقت عينيها قليلًا.

«.أقصد ذلك»

«.وأنا أيضًا»

عادت بنظرها إلى أبي.

«.فيكتور، لا أريد تكرار ما حدث في المرة السابقة. لا حفلات عشوائية، ولا طلبات غريبة، ولا تحويل المنزل إلى ساحة معركة»

وضع أبي يده على صدره.

«.أعدك بأنني سأكون أكثر الرجال انضباطًا في هذه المدينة»

لم أتمكن من منع نفسي من التمتمة:

«.هذا أكثر ما يقلقني»
نظرت أمي إليّ، ثم إلى أبي، وأطلقت زفيرًا طويلًا.

«.سأعتبر أنني أوصلت رسالتي»

فتحت الباب، ولوحت لنا بيدها، ثم غادرت.

أغلق الباب.

ساد الصمت.

ثانية واحدة.

ثانيتان.

ثم التفت أبي إليّ.

التفتُّ إليه في اللحظة نفسها.

نظر كل منا إلى الآخر، قبل أن تظهر على وجهيْنا أكبر ابتسامة بليدة يمكن أن يشهدها التاريخ.

كانت ابتسامة رجلين يعرفان تمامًا أن أمامهما فرصة ذهبية، وأنهما لا ينويان إضاعتها.

قال أبي:

«هل تفكر فيما أفكر فيه؟»

أجبته:

«.إذا كنت تفكر في الطعام، فنعم»

أخرج هاتفه فورًا.

«!بيتزا»

رفعت يدي بحماس.

«!بيتزا دجاج»

«!والجبن الإضافي»

«!والأجنحة»

«!والبطاطا»

«!والحلوى»

نظر إليّ أبي بإعجاب.

«.أنت تفهم الحياة يا بني»

وبدأ يطلب أكبر وليمة بيتزا استطاع العثور عليها، بينما كنت أفتح هاتفي وأفكر في الأشخاص الذين يمكن دعوتهم.

اتصل أبي ببعض أصدقائه من المكتب، وأخبرهم أن المنزل مفتوح لسهرة صغيرة.

أما أنا، فاتصلت بأشين ولوكاس.

.«لم يحتج أشين إلى أكثر من سماع كلمة «طعام

«.سآتي»

قلت:

«.لم أخبرك حتى بما سنأكل»

«.لا يهم. سأكون هناك»

أما لوكاس، فقد بدا أكثر تهذيبًا.

«هل أنت متأكد أنني لن أزعجكم؟»

أجبته:

«.بالطبع لا. تعال، ستكون سهرة ممتعة»

«.حسنًا، سأحضر معي شيئًا بسيطًا»

ابتسمت.

«.لا تتكلف، البيت بيتك»

أغلقت الاتصال، ثم نظرت إلى أبي الذي كان قد بدأ بالفعل في ترتيب الطاولة.

كان وجهه يحمل تعبيرًا من الحماس لا يتناسب إطلاقًا مع رجل بالغ لديه مسؤوليات عمل وعائلة.

قلت:

«أبي، هل أنت متأكد أن أمي لن تعود مبكرًا؟»

رفع رأسه عن الهاتف.

«لماذا تسأل؟»

«.مجرد فضول»
ابتسم بثقة.

«.لا تقلق. لدينا وقت كافٍ»

كان ذلك النوع من الجمل الذي يجعلني أشعر بأن الكارثة قادمة، لكنني قررت تجاهل إحساسي.

بدأ الضيوف بالوصول تباعًا.

كان أصدقاء أبي خمسة أشخاص؛ ثلاثة رجال وامرأتين، وقد بدوا وكأنهم اعتادوا على هذه التجمعات. كانوا يتحدثون ويضحكون، ويتبادلون النكات عن العمل وبعض المواقف التي حدثت في المكتب.

أما أنا، فقد كنت أساعد في ترتيب الطعام، حين لاحظت أن إحدى السيدات تنظر إليّ باهتمام.

كانت ذات شعر أبيض قصير، وعينين خضراوين، وملامح تحمل قدرًا من المرح. عرفني أبي إليها باسم لوسي.

ابتسمت لي وقالت:

«!إذن هذا هو نيراس»

أومأت بأدب.

«.تشرفت بمعرفتك»

نظرت إليّ من رأسي حتى قدمي، ثم قالت:

«.يا إلهي، ما ألطفه! شاب وسيم ومهذب. من الصعب تصديق أنه ابن فيكتور»

وضع أبي يده على صدره متظاهرًا بالتأثر.

«.أشكرك على هذا الإطراء، لكنني أفضّل أن أسمعه دون الإهانة المبطنة»

ضحك أحد الرجال.

أما لوسي، فقد تجاهلت اعتراضه تمامًا، ثم قالت بنبرة مازحة:

«.شاب وسيم مثل نيراس لا بد أنه يلعب في الخفاء، مثل أبيه تمامًا»

شهق أبي ووضع يده على صدره.

«!ما هذه الاتهامات؟»

قال أحد أصدقائه:

«.أوه، لا تتظاهر بالبراءة يا فيكتور»
ثم أضاف أبي:

«.وعلى النقيض، فقد سمعت أنه كان في مكالمة مع إحدى الفتيات، وكان الحديث بينهما يدور حول الزواج»

ساد الصمت لجزء من الثانية.

...ثم

«!ماذا؟»

«!زواج؟»

«!نيراس؟»

«متى حدث هذا؟»

انفجر الجميع حماسة، وكأنني أعلنت للتو خطبتي أمامهم.

أما أنا، فقد بقيت واقفًا في مكاني، أحمل طبقًا فارغًا، وأحاول فهم كيف تحولت سهرة بيتزا إلى جلسة تحقيق عائلي.

قلت بتردد:

«...أعتقد أن هناك سوء فهم»

لكن لوسي رفعت إصبعها وقالت:

«.لا، لا، لا. دعنا نسمع القصة أولًا»

وأضافت المرأة الثانية:

«.فقط أعطنا الكلمة، وسنبحث في سجلها»

نظرت إليهما.

ثم إلى أبي.

كان أبي يبتسم.

ابتسامة واسعة.

ابتسامة رجل وجد أخيرًا فرصة للانتقام من ابنه على كل مرة سخر فيها منه.

قلت في نفسي:

لقد بعتني يا أبي.

كان الموقف محرجًا لدرجة غير طبيعية. لم أكن أعرف حتى من أين جاءت تلك الشائعة، ولا كيف وصلت إلى أصدقاء أبي، لكنني كنت متأكدًا من أنني سأحتاج إلى تغيير اسمي والانتقال إلى قارة أخرى إذا استمر هذا الحديث.

...ولحسن حظي

رن جرس الباب.

لم أكن يومًا سعيدًا بسماع جرس الباب كما كنت في تلك اللحظة.

قلت بسرعة:

«!سأفتح»

ولم أنتظر رد أحد.

كدت أركض نحو الباب، وكأنني ذاهب لإنقاذ مدينة بأكملها.

فتحته، فوجدت أشين أمامي، يحمل على وجهه ابتسامة عريضة، وخلفه لوكاس الذي كان يمسك بعلبة صغيرة من الكعك.

نظرت إليهما.

ثم قلت لأشين:

«.لأول مرة في حياتي، أنا سعيد حقًا برؤيتك أيها الوغد»

رفع حاجبه.

«.يا لها من طريقة جميلة لاستقبال صديقك»

ثم تجاوزني ودخل مباشرة، دون أن ينتظر دعوة أخرى.

حدقت في ظهره.

«هل يمكنك التصرف وكأنك ضيف ولو لمرة واحدة؟»

أجاب من الداخل:

«لماذا؟ أليس البيت بيتي؟»

تنهدت، ثم التفت إلى لوكاس الذي كان لا يزال واقفًا عند الباب.

«.أدخل يا رجل، البيت بيتك ولا تخجل. وكن مثل رأس الأباجورة الذي هناك»

أشار لوكاس بعينيه إلى أشين، ثم ابتسم بخجل.

«.أعتقد أنه لا يحتاج إلى إذن»

«.لقد فهمت الأمر بسرعة»

دخل لوكاس، وقدم الكعك إلى أبي الذي رحب به بحرارة، ثم انضم إلينا.

كانت تلك أول مرة يزور فيها لوكاس منزلنا، لذلك بدا عليه شيء من التردد في البداية، لكنه سرعان ما اندمج مع الأجواء.

أما أشين، فقد تصرف منذ اللحظة الأولى وكأنه صاحب المنزل، وبدأ يتفقد الطعام قبل حتى أن يخلع حذاءه.

قلت له:

«!أشين! الحذاء»

نظر إلى قدميه.

«.آه، صحيح»

ثم خلعه وأكمل طريقه نحو المطبخ.

أحيانًا أتساءل كيف يستطيع هذا الإنسان أن يعيش دون أن ينسى نفسه في مكان ما.

مع مرور الوقت، انقسم المنزل إلى مجموعتين.

الكبار اجتمعوا حول الطاولة، وأخرجوا أوراق اللعب، وبدأوا مباراة صاخبة امتلأت بالضحك والاعتراضات والاتهامات المتبادلة بالغش.

أما نحن الشباب، فقد استقر بنا الأمر أمام الألعاب الإلكترونية.

جلس أشين على الأريكة، بينما اختار لوكاس المقعد المجاور لي. كنا قد بدأنا مباراة جماعية عبر الإنترنت، وكان كل شيء يسير بصورة طبيعية، إلى أن انضم إلينا لاعب رابع.

في البداية، لم نعطِ الأمر أهمية كبيرة.

لكن بعد دقائق، لاحظت أن اللاعب الرابع يتحدث بصوت فتاة.

كان لوكاس هادئًا كعادته، يركز على اللعبة ويحاول تنسيق تحركاتنا. أما أشين، فقد تغيرت ملامحه بصورة غريبة.

رأيته يمسح شعره بيده، ثم يعدل جلسته، ويخرج من صدره زفيرًا طويلًا.

نظرت إليه بطرف عيني.

ثم نظرت إلى الشاشة.

ثم عدت إليه.

كان يحك يديه ببعضهما، وعلى وجهه تعبير لا أستطيع وصفه إلا بأنه مزيج من الثقة والجنون.

همست:

«.أشين»

لم يرد.

«.أشين»

«ماذا؟»

نظرت إليه بريبة.

«هل أنت بخير؟»

«.بأفضل حال»

ثم ابتسم ابتسامة غريبة.

لم يعجبني ذلك إطلاقًا.

وبما أن الفضول قد يكون أحيانًا عدو الإنسان الأول، قررت أن أسأل اللاعب الرابع سؤالًا بسيطًا.

قلت:

«عذرًا، فقط من باب الفضول... كم عمرك؟»

لكن لوكاس قاطعني قبل أن تجيب.

قال بهدوء:

«.أعتقد من صوتها أنها في السادسة عشرة»

توقفت أصابع أشين عن الحركة.

ثم مسح شعره بيده من الأمام إلى الخلف، وأعاد ترتيب جلسته، وقال بنبرة واثقة:

«.هذا جيد»

ضحكت الفتاة من الطرف الآخر.

«عن ماذا تتحدثون؟»

أجاب أشين:

«.لا شيء، لا شيء»

ثم سألها:

«كم عمرك إذن؟»

قالت ببساطة:

«.اثنان وثلاثون»

...

صمت.

صمت طويل.

شعرت بأن الهواء توقف داخل الغرفة.

أما أشين، فقد تجمد في مكانه، وكأن أحدهم ألقى عليه تعويذة حجرية.

ثم انفجر:

«!اثنان وثلاثون؟»

ارتفع صوته لدرجة أنني كدت أُبعد الهاتف عن أذني.

«!ما أنتِ؟! آثار لعينة؟! عودي إلى قبرك أختاه! ماذا تفعلين هنا؟! براااه! استلقي في قبرك! ديناصور لعين»

لم أستطع تحمل الأمر.

انفجرت ضاحكًا.

أما لوكاس، فقد حاول في البداية كتم ضحكته، لكنه فشل بطريقة كارثية. بدأ يصدر أصواتًا غريبة من صدره، أشبه بأصوات مخلوق فضائي يحاول التواصل مع كوكبه الأصلي.

كان وجهه قد احمر، وكتفاه يرتجفان، بينما كنت أحاول التقاط أنفاسي.

قال أشين، وقد بدا عليه الذهول الحقيقي:

«!اثنان وثلاثون يا رجل»

ثم عاد إلى الشاشة.

«!اثنان وثلاثون»

أجبته بصعوبة بين ضحكاتي:

«.نعم، لقد سمعنا الرقم في المرة الأولى»

لكن أشين لم يكن قد انتهى.

قال للفتاة:

«!أنتِ في الثانية والثلاثين؟! اذهبي والعبي مع أطفالك الخمسة! ماذا تفعلين هنا؟»

عند تلك اللحظة، شعرت أنني على وشك الاختناق من شدة الضحك.

وضعت يدي على بطني، وانحنيت إلى الأمام، بينما كان لوكاس قد فقد السيطرة تمامًا، وأصبح يطلق أصواتًا لا أعتقد أن اللغة البشرية تملك حروفًا كافية لكتابتها.

أما الفتاة، فقد ضحكت هي الأخرى.

«!يا إلهي! أنتم مجانين»

رد أشين فورًا:

«!نحن لسنا مجانين، أنتِ فقط أكبر من اللعبة نفسها»

ثم أضاف:

«!هل كنتِ تلعبين هذه اللعبة قبل أن أتعلم المشي؟»

لم أعد قادرًا على الكلام.

كان أبي وأصدقاؤه يجلسون في الغرفة المجاورة، وبينما كانوا منشغلين بأوراق اللعب، وصلت إليهم كل كلمة تقريبًا.

سمعت ضحكة أحد الرجال ترتفع، ثم صوت أبي وهو يحاول كتم ضحكته.

لكن الأمر لم يستمر طويلًا.

فقد انفجر الجميع بالضحك.

قال أحدهم بصوت مرتفع:

«!يا إلهي، هذا الفتى لا يرحم»

أما أبي، فقد وضع أوراق اللعب على الطاولة، وأخذ يضحك حتى اضطر إلى مسح عينيه.

لم أكن أعرف إن كان يضحك على أشين أم على حقيقة أن ابنه وصديقه كادا يفقدان وعيهما أمام لعبة إلكترونية.

ربما الاثنين معًا.

وفي وسط كل ذلك، عاد أشين إلى المباراة وكأن شيئًا لم يحدث.

قال بجدية:

«.حسنًا، لنركز الآن. نحن نخسر»

رفعت رأسي ببطء، ونظرت إليه.

كان وجهه هادئًا تمامًا.

قلت:

«...أشين»

«ماذا؟»

«.أنت السبب في أننا نخسر»

أجاب بثقة:

«.مستحيل. المشكلة في الفريق»

نظرت إلى لوكاس.

نظر إليّ.

ثم انفجرنا ضحكًا من جديد.

أما أشين، فقد تنهد بعمق وقال:

«.لا أعرف لماذا أصر على اللعب معكما»

أجبته:

«.لأنك لا تملك أصدقاء آخرين يتحملونك»

صمت لحظة، ثم قال:

«.هذا صحيح»

كانت السهرة قد أصبحت أكثر صخبًا مما توقعت.

الكبار يضحكون حول طاولة اللعب، وأشين يصر على أن خسارتنا ليست مسؤوليته، ولوكاس بدأ يشعر براحة أكبر بيننا.

أما أنا، فقد جلست أراقب المشهد للحظات، وأفكر في مدى غرابة الحياة.

في حياة لوسين، كانت السهرات تعني اجتماعات عسكرية، ومناقشة خرائط، وتبادل تقارير عن تحركات الجيوش.

أما في حياة نيراس، فقد أصبحت تعني بيتزا دجاج، وأوراق لعب، وصديقًا يصرخ في وجه امرأة لأنها تبلغ اثنين وثلاثين عامًا.

لا أعرف إن كان ذلك تقدمًا حضاريًا أم تراجعًا خطيرًا.
لكنني كنت متأكدًا من شيء واحد.

أنني لم أكن أريد أن تنتهي تلك الليلة مبكرًا.

ففي بعض الأحيان، لا يحتاج الإنسان إلى مناسبة عظيمة كي يشعر بالسعادة.

يكفي أن يكون محاطًا بأشخاص يضحكون معه، وأن يجد مكانًا يستطيع فيه التصرف على طبيعته دون أن يخشى ما سيحدث بعد ذلك.

حتى لو كان ذلك المكان مليئًا بأشخاص لا يعترفون بقوانين المنطق.

وبينما كنت أستعد لبدء مباراة جديدة، سمعت أشين يقول:

«.هذه المرة سأحمل الفريق وحدي»

نظرت إليه.

ثم إلى لوكاس.

ثم عدت إليه.

«.أشين، لقد خسرت المباراة السابقة لأنك كنت مشغولًا بمناقشة التاريخ الجيولوجي للاعب الرابع»

رفع إصبعه باعتراض.

«.أولًا، لم تكن مناقشة. كنت أقدم لها نصيحة حياتية»

قال لوكاس بهدوء:

«.نصحتها بالعودة إلى القبر»

أومأت بجدية.

«.نصيحة عميقة فعلًا»

أشين نظر إلينا، ثم تنهد.

«.أنا محاط بالخونة»

ابتسمت وأنا أضغط زر بدء المباراة.

«.أهلًا بك في المنزل»

الفصل الخامس والعشرون: منديلٌ قديم، ومشاعر لا تعرف طريقها

بالكاد مرّت سهرتنا الأخيرة بسلام.

أقول «بسلام» لأننا، بطريقة ما، نجحنا في تنظيف المنزل وإعادة كل شيء إلى مكانه قبل عودة أمي. لم تكن المهمة سهلة، خصوصًا بعد أن قرر أبي أن يترك أكواب المشروبات في كل زاوية من المنزل، بينما أصر أشين على أن بقايا الطعام لا تُعد فوضى ما دامت لا تزال صالحة للأكل.

أما لوكاس، فقد كان أكثرنا تعاونًا، وربما كان السبب الوحيد الذي جعلنا ننتهي في الوقت المناسب.

وبعد أن انتهينا، وقفت في منتصف الصالة أتأمل المكان بفخر، بينما وضع أبي يده على كتفي وقال:

«.أرأيت يا بني؟ لا شيء مستحيل عندما يعمل الرجال معًا»

نظرت إلى كومة الأطباق التي لم نغسلها بعد.

«.أبي، ما زال هناك المطبخ»

اختفت ابتسامته تدريجيًا.

«.حسنًا... لا تفسد اللحظة»

وهكذا انتهت السهرة، وانتهت معها واحدة من أكثر الليالي عبثية في تاريخ منزلنا.

لكن الأيام لا تنتظر أحدًا، حتى لو كنت تفضّل البقاء في المنزل وتناول البيتزا بدلًا من العودة إلى مقاعد الدراسة.

كان ذلك يومًا دراسيًا مختلفًا بعض الشيء.

آخر يوم في المرحلة الإعدادية.

لم تكن هناك دروس حقيقية، ولا اختبارات، ولا واجبات تنتظرنا في اليوم التالي. كان معظم الطلاب يتجولون في الممرات، ويتبادلون الحديث عن العطلة الصيفية، بينما انشغل آخرون بتبادل أرقام الهواتف والتقاط الصور التذكارية.

أما أنا وأشين، فقد اخترنا مكانًا أكثر هدوءًا.

كنا نجلس على طاولة قريبة من النافذة، نتبادل الحديث حول خططنا للعطلة، بينما كان ضوء الشمس يدخل من الزجاج ويلقي ظلالًا دافئة على أرضية الصف.

كان أشين مستلقيًا على كرسيه بطريقة توحي بأنه فقد أي صلة تربطه بالمدرسة، وقد وضع يديه خلف رأسه.

قال:

«.أخيرًا! لقد انتهى هذا العذاب»

أجبته وأنا أنظر إلى الساحة:

«.أنت تتحدث وكأنك قضيت ثلاث سنوات في منفى»

«.وهل هناك فرق؟ لقد أجبروني على الاستيقاظ مبكرًا، والجلوس لساعات، وحفظ أشياء لا أحتاج إليها»

«.أنت تحتاج إلى بعض تلك الأشياء، صدقني»

«مثل ماذا؟»

«.الرياضيات، على سبيل المثال»

نظر إليّ بجدية.

«.لا أحتاج إلى الرياضيات. لدي أصابع»

أغمضت عيني للحظة.

«...يا إلهي»

ضحك أشين، ثم بدأ يتحدث عن الألعاب التي يريد تجربتها خلال العطلة، وعن الأماكن التي ينوي زيارتها، وعن خطته العبقرية لقضاء أكبر وقت ممكن دون الاقتراب من أي كتاب.

كنت أستمع إليه، وأجيبه بين الحين والآخر، لكنني شعرت بشيء غريب.

كان هناك شيء ناقص.

لم أستطع تحديد ماهيته في البداية. نظرت إلى الطاولة، ثم إلى الساحة، وألقيت نظرة على المقاعد الفارغة في الصف.

كل شيء في مكانه.

أشين أمامي، والنافذة بجانبي، والطلاب في الخارج.

ومع ذلك، كان هناك شعور صغير يلح عليّ بأن أحدًا لم يكتمل حضوره بعد.

لم أكن قد توصلت إلى إجابة حين مرّ شخص بجانب النافذة.

امتدت يد من الخارج، وصفعت رقبة أشين صفعة خفيفة.

«!أهلًا بشباب العُلا»

انتفض أشين من مكانه.

«!يا ابن اللعينة»

التفتنا معًا لنجد لوكاس واقفًا بجانب النافذة، يضحك وهو يرفع يده بتحية بريئة تمامًا، وكأنه لم يرتكب جريمة للتو.

قلت:

«لوكاس، هل تعلم أن هناك أبوابًا في هذه المدرسة؟»

أجاب مبتسمًا:

«.أعلم، لكن النافذة أسرع»

أما أشين، فقد كان يفرك رقبته.

«.سأقتلك يومًا ما»

«.سأكون سعيدًا بحضور جنازتك»

تبادلت معهما نظرة قصيرة، ثم تنهدت.

كان ذلك هو العنصر الناقص، على ما يبدو.

لوكاس أو هذا ما أقنعت به نفسي.

انضم إلينا، وسحب كرسيًا وجلس بالقرب منا. ثم نظر إلى الساحة المزدحمة وقال:

«.بالمناسبة، ما رأيكم أن ننظم جولة اليوم؟ بما أنه آخر يوم في الدراسة، وآخر يوم لنا في المرحلة الإعدادية أيضًا»

التفت إليه أشين فورًا.

«!أنا موافق»

نظرت إليه، ثم إلى لوكاس.

«بسرعة هكذا؟»

أجاب أشين:

«.بالطبع! نحن نتحدث عن الخروج، لا عن حل معادلة رياضية»

قلت وأنا أشير إليه:

«.إذا كنت تقصد أن نخرج لنفضح أنفسنا أمام الناس، فأعتقد أن هذا التعبير أفضل»

وضع أشين يده على صدره.

«.أنت تسيء إلى سمعتي»

«أي سمعة؟»

ضحك لوكاس، ثم بدأنا نتحدث عن الأماكن التي يمكننا زيارتها. وبعد بعض النقاش، اتفقنا على الخروج إلى المدينة العتيقة، والتجول في أزقتها، وربما تناول شيء في أحد المطاعم هناك.

لم تكن خطة عظيمة، لكنها كانت كافية.

ففي بعض الأحيان، لا تحتاج إلى برنامج محدد كي تستمتع بيومك. يكفي أن تكون برفقة الأشخاص المناسبين.

بعد انتهاء اليوم الدراسي، خرجنا من المدرسة واتجهنا نحو وسط المدينة.

كانت المدينة العتيقة تستقبلنا بضجيجها المعتاد؛ أصوات الباعة تتداخل مع خطوات المارة، ورائحة الخبز الطازج والتوابل تنتشر في الأزقة الضيقة. كانت المباني القديمة تحتفظ بملامحها العتيقة، بأبوابها الخشبية المزخرفة ونوافذها الصغيرة وشرفاتها التي بدت وكأنها شهدت حكايات أكثر مما يستطيع المرء تخيله.

كان أشين يسير أمامنا، يتوقف كل بضع خطوات أمام متجر أو واجهة عرض، وكأنه اكتشف كنزًا جديدًا.

أما لوكاس، فكان يتنقل بيننا بهدوئه المعتاد، ويشاركنا الحديث كلما وجد فرصة.

كنت مستمتعًا بالجولة، لكن ذلك الشعور الغريب عاد إليّ.

في البداية كان خفيفًا، مجرد إحساس مبهم في صدري.

ثم تكرر.

شعرت وكأن أحدًا يراقبني.

ليس بالطريقة التي يراقب بها شخص عابر المارة، بل بشيء أعمق قليلًا، كأن نظرات خفية تحاول الوصول إلى شيء يتجاوز مظهري.

إلى داخلي.

إلى روحي نفسها.

توقفت للحظة والتفتُّ إلى الخلف.

لم أجد سوى المارة، وبعض التجار الذين كانوا منشغلين بعملهم.

تابعت السير.

وبعد دقائق، عاد الإحساس مجددًا.

هذه المرة كان أوضح.

نظرت إلى إحدى الشرفات، ثم إلى الزقاق الذي مررنا به قبل قليل.

لا أحد.

قطبت حاجبي.

هل أتخيل الأمر؟

لقد اعتدت في حياتي السابقة على الشعور بأن هناك عيونًا تراقبني في ساحات المعارك، لكن ذلك كان مختلفًا. هناك، كنت أعرف أن الخطر قد يأتي من أي زاوية، وأن الحذر قد ينقذ حياتي.

أما الآن، فلم يكن هناك سبب منطقي لهذا الشعور.

قال أشين من أمامي:

«نيراس! هل ستظل تحدق في الجدران أم ستأتي؟»

أجبته:

«.قادم»

هززت رأسي محاولًا التخلص من الفكرة، ثم لحقت بهما.

ربما كنت متعبًا فحسب.

أو ربما كان عقلي، الذي اعتاد البحث عن الأخطار، يرفض الاعتراف بأنني أعيش في عالم لا يحتاج فيه المرء إلى تفقد كل زاوية قبل أن يخطو.

على أي حال، قررت ألا أفسد جولتنا بسبب إحساس لا أستطيع تفسيره.

بعد بعض التجول، قررنا دخول أحد المطاعم لتناول الطعام.

كان المكان مزدحمًا نسبيًا، لكنه لم يكن صاخبًا إلى درجة مزعجة. اخترنا طاولة مناسبة، وجلسنا نتحدث عن المدرسة والعطلة، بينما كان أشين يصر على طلب كمية طعام تكفي لإطعام كتيبة كاملة.

قلت له:

«هل تنوي تناول الطعام أم احتلال المطعم؟»

أجاب دون أن يرفع عينيه عن القائمة:

«.الإنسان يحتاج إلى الاستعداد للمستقبل»

قال لوكاس بهدوء:

«أي مستقبل؟»

«.مستقبل لا أجد فيه طعامًا»

«.أعتقد أنك ستنجو»

«.لا يمكنك فهم معاناة الجائع»

كنت على وشك الرد، لكن عيناي توقفتا فجأة عند شخص في الجهة الأخرى من المطعم.

شعر بني مألوف.

ملامح أعرفها جيدًا.

فريسيا.

كانت تجلس مع بعض الأشخاص، ويبدو أنها لم تلاحظ وجودنا بعد.

لم أفكر كثيرًا.

استدرت نحوها دون وعي، وناديتها:

«!فريسيا»

ما إن سمعت صوتي حتى التفتت.

اتسعت عيناها قليلًا، ثم ظهرت على وجهها ابتسامة لطيفة.

ابتسامة بدت وكأنها سبقت كلماتها.

نهضت من مكانها، وتوجهت نحونا.

«.مرحبًا! لم أتوقع أن أراكم هنا»

قالت وهي تنظر إلينا:

«!يبدو أن الثلاثي المرح اجتمع هنا»

ثم أضافت بابتسامة مازحة:

«.لكنني لم أسمع بوقوع أي كارثة حتى الآن، وهذا غير معتاد»

أشرت إلى أشين.

«.بفضل المسكين لوكاس، نقوم بكبح هذا المجنون»

رفع أشين رأسه فورًا.

«!ماذا؟! أنا أكثرنا اتزانًا»

نظرت فريسيا إليه، ثم إليّ.

«.أرى ذلك»

قال لوكاس بهدوء:

«.أعتقد أنني لا أستحق هذا اللقب»
أجبته:

«.بل تستحقه أكثر مما تتصور. أنت آخر خط دفاع بيننا وبين الفوضى»

ابتسمت فريسيا وجلست معنا لبعض الوقت، وبدأنا نتبادل الحديث عن اليوم الدراسي وعن خطط العطلة.

كان كل شيء يسير بصورة طبيعية، حتى حدث أمر صغير لم أتوقعه.

سقط شيء من جيب سترتي عندما تحركت لأفسح لها مكانًا.

انحنت فريسيا تلقائيًا والتقطته.

«.أظن أن هذا لك»

مدت يدها نحوي.

وحين رأيت ما تحمله، توقفت للحظة.

كان منديلًا صغيرًا.

ذلك المنديل الذي أعطتني إياه منذ أكثر من سنة، عندما جرحت كتفي في أثناء التدريب.

كنت قد احتفظت به منذ ذلك اليوم.

لم أكن أفكر في الأمر كثيرًا، فقد أصبح جزءًا من الأشياء التي أحملها معي، وكنت أضعه في جيبي دون أن أنتبه حتى إلى وجوده.

لكن فريسيا تذكرته فورًا.

نظرت إلى المنديل، ثم إليّ.

وبدت على وجهها ابتسامة مختلفة قليلًا، ابتسامة امتزج فيها الخجل بالدهشة.

«أنت... ما زلت تحتفظ به؟»

أخذته منها، ونظرت إليه للحظة.

«.نعم»

ثم أضفت ببساطة:

«.أعجبني المنديل. سيكون إهدارًا أن أتخلص منه وهو لا يزال بحالة جيدة»

لم أكن أكذب تمامًا.

لكنني لم أكن أقول الحقيقة كاملة أيضًا.

رفعت فريسيا عينيها نحوي، ثم ابتسمت بخجل وهي تعبث بأحد أساورها.

«.حسنًا... لم أتوقع أنك ستحتفظ به كل هذه المدة»

«.إنه مجرد منديل، لا داعي لكل هذا الاهتمام»

ضحكت بخفة.

«.ربما»

وفي أثناء حديثنا، وقعت عيناي على شيء في معصمها.

كان بين أساورها سوار بسيط، بدا مألوفًا على نحو غريب.

حدقت فيه قليلًا قبل أن أدرك ماهيته.

كانت ربطة شعرها.

الربطة التي اعتادت ارتداءها في شعرها و التي قد مدحتها من قبل، لكنها حولتها الآن إلى سوار صغير.

أشرت إليها.

«هل هذه ربطة شعرك؟»

نظرت إلى معصمها، ثم ابتسمت.

«.نعم، حولتها إلى سوار»

«لماذا؟»

رفعت عينيها نحوي، وظهر في ابتسامتها شيء من المرح.

«.احتفظت بها كذكرى، بما أنها راقت لأحدهم»

ثم غمزت لي.

«أليس كذلك؟»

توقفت أفكاري.

لم أجد ردًا مناسبًا في اللحظة الأولى، واكتفيت بالنظر إليها، بينما كانت ابتسامتها تتسع قليلًا.

ثم نهضت وهي تقول:

«.على أي حال، كان من الجميل رؤيتكم. سأعود إلى أصدقائي»

أومأت لها.

«.سعدت برؤيتك»

«.وأنا أيضًا»

غادرت بخطوات هادئة، وعادت إلى طاولتها.

أما أنا، فبقيت أنظر إلى المكان الذي كانت تجلس فيه قبل قليل.

لم أكن أعرف لماذا شعرت بشيء غريب في صدري.

كان الأمر بسيطًا، مجرد منديل قديم وربطة شعر تحولت إلى سوار، وكلمات عابرة قيلت بابتسامة.

ومع ذلك، بدا أن تلك التفاصيل الصغيرة تركت أثرًا أكبر مما توقعت.

ثم التفتُّ نحو الطاولة.

وكان ذلك خطئي الثاني في أقل من دقيقة.

فقد وجدت أشين ولوكاس ينظران إليّ.

نظراتهما لم تكن طبيعية.

أشين كان يميل إلى الأمام، واضعًا ذقنه على يده، وعلى وجهه ابتسامة عريضة تكاد تصل إلى أذنيه.

أما لوكاس، الذي ظننت أنه أكثرنا عقلانية، فقد كان ينظر إليّ بالابتسامة نفسها.

قال أشين:

«.حسنًا... يبدو أن أحدنا واقع في الغرام»

وأضاف لوكاس:

«.إنها الخيانة بعينها»

نظرت إليهما بصمت.

ثم قلت:

«توقعتها منك يا أشين، لكن أنت يا لوكاس؟»

ابتسم لوكاس بخجل.

«ماذا فعلت؟»

أشرت إليه بإصبعي.

«.كنت أظنك شخصًا عاقلًا، لكن يبدو أنني عالق وسط جماعة أكلتها العزوبية»

انفجر أشين ضاحكًا.

«!اسمعوا من يتحدث»

«ماذا؟»

«!أنت الذي تحتفظ بمنديل فتاة منذ أكثر من سنة»

قال لوكاس:

«.ولا تنسَ أنها حولت ربطة شعرها إلى سوار»

نظرت إليهما ببرود.

«.أنتما تفسران الأمور بطريقة غريبة»

مال أشين نحوي.

«.إذن دعني أسألك سؤالًا بسيطًا»

«.لا»

«لماذا ناديتها فور رؤيتك لها؟»

«.لأنني أعرفها»

«ولماذا ابتسمت عندما رأيتها؟»

«.لأنني إنسان مهذب»

«ولماذا تحتفظ بالمنديل؟»

«.لقد شرحت ذلك»

«ولماذا لم تتوقف عن النظر إليها بعد أن غادرت؟»

فتحت فمي لأجيب، لكنني لم أجد شيئًا أقوله.

ابتسم أشين بانتصار.

«**!ها!** لقد أسكتُّه»

وضعت يدي على جبيني.

«.يا إلهي، أريد العودة إلى المنزل»
ضحك لوكاس، ثم قال:

«.أعتقد أن أشين محق هذه المرة»

نظرت إليه بصدمة مصطنعة.

«.حتى أنت يا لوكاس؟ لقد فقدت إيماني بالبشرية»

رفع يديه مستسلمًا.

«.أنا فقط أقول ما أراه»

«.وما تراه هو نتيجة سنوات طويلة من الجلوس بجانب هذا المعتوه»

أشار أشين إلى نفسه.

«أنا المعتوه؟»

«هل تريد أن أذكر لك بعض الأمثلة؟»

«.لا داعي»

«.جيد، لأن القائمة طويلة»

عاد أشين إلى الضحك، بينما اكتفى لوكاس بابتسامة صغيرة.

لكنني لم أستطع منع نفسي من العودة إلى التفكير فيما حدث قبل قليل.

***

في حياتي الأولى، عرفت شعورًا مشابهًا.

أو هكذا اعتقدت.

كانت أيلارا.

عندما كنت قريبًا منها، كنت أشعر أحيانًا بأن العالم يصبح أقل ضجيجًا. كان وجودها يمنحني راحة لا أجدها في أي مكان آخر، وكانت أبسط كلماتها قادرة على تغيير مزاج يوم كامل.

كنت أبحث عنها بعيني دون أن أعترف بذلك، وأتذكر تفاصيل صغيرة تخصها، وأجد نفسي أبتسم عندما أتذكر موقفًا جمعنا.

لكنني كنت أعرف طبيعة ذلك الشعور، حتى وإن لم أملك الشجاعة للاعتراف به.

كان حبًا نما بصمت، واستمر سنوات، حتى أصبح جزءًا من حياتي.

...أما ما أشعر به الآن تجاه فريسيا
فلم أكن أعرف كيف أصفه.

لم يكن مطابقًا لما شعرت به تجاه أيلارا، أو ربما كان يشبهه من زاوية لا أستطيع رؤيتها بوضوح.

مع أيلارا، كنت أعرف أنني أحبها، لكنني كنت أخشى الاعتراف بذلك.

أما مع فريسيا، فلم أكن متأكدًا حتى من طبيعة ما أشعر به.

لماذا احتفظت بالمنديل؟

كان من الممكن أن أتخلص منه منذ زمن.

ولماذا شعرت بالارتباك عندما رأيت ربطة شعرها تتحول إلى سوار؟

ولماذا بقيت كلماتها الأخيرة تتردد في رأسي حتى بعد أن غادرت؟

هل لأنني أحب أن أكون موضع اهتمامها؟

أم لأنني أجد صحبتها مريحة؟

أم أنني بدأت أعتاد وجودها إلى درجة أن غيابها أصبح ملحوظًا؟

تنهدت، وأسندت ظهري إلى الكرسي.

يا لها من أسئلة سخيفة.

في حياتي السابقة، واجهت جيوشًا، ووضعت خططًا عسكرية معقدة، ونجوت من مواقف كان من المفترض أن أموت فيها.

ومع ذلك، لم أستطع فهم فتاة أعطتني منديلًا، ثم احتفظت بربطة شعرها على هيئة سوار.

ربما كان هناك شيء مضحك في الأمر.

أو ربما كنت أنا المشكلة.

نظرت إلى أشين ولوكاس، اللذين كانا لا يزالان يتبادلان النظرات والابتسامات الماكرة.

قلت:

«.اسمعا، إذا واصلتما هذا الحديث، فسأطلب منكما دفع الحساب»

اختفت ابتسامة أشين فورًا.

«.لا داعي للمبالغة»

قال لوكاس:

«.أعتقد أننا يجب أن نغير الموضوع»

ابتسمت.

«.أخيرًا، بدأ العقل يعمل»

لكنني كنت أعلم أنني لن أنجو من سخريتهما بسهولة.

فأشين لا ينسى شيئًا يمكن استخدامه لإزعاجي، ولوكاس، رغم هدوئه، بدأ يتعلم منه بعض العادات السيئة.

...أما فريسيا

فقد كانت لا تزال تجلس في الجهة الأخرى من المطعم، تتحدث مع أصدقائها.

ألقيت نظرة عابرة نحوها، فوجدتها تبتسم وهي تنظر في اتجاهنا.

لم أعرف إن كانت قد لاحظت نظراتي أم لا.

لكنني عدت إلى طاولتي بسرعة، متظاهرًا بالاهتمام بقائمة الطعام.

يا إلهي.

يبدو أن العطلة الصيفية لن تكون هادئة كما توقعت.

وربما، وللمرة الأولى، لم أكن متأكدًا إن كنت أرغب في أن تكون كذلك.

فهمتك الآن، الصور مرجع بصري للملابس التي يرتديها نيراس وفريسيا، وليست طلبًا لتعديلها أو توليد صور جديدة. سأعتمد تفاصيل الأزياء كما هي، مع الحفاظ على ملامح الشخصيات المعتمدة في الرواية.

الفصل السادس والعشرون: أجمل ورطة في العطلة الصيفية

كانت العطلة الصيفية واحدة من أكثر الفترات التي انتظرتها منذ بداية حياتي الجديدة.

ولم تكن خيبة أمل، على الإطلاق.

فبعد انتهاء العام الدراسي، وجدت نفسي أمام أسابيع طويلة لا تتطلب مني الاستيقاظ مبكرًا، ولا الجلوس أمام الكتب، ولا الاستماع إلى أشين وهو يشتكي من الرياضيات وكأنها مؤامرة دولية تستهدفه شخصيًا.

كانت أيامًا بسيطة، لكنها ممتلئة بتفاصيل صغيرة جعلتها مميزة.

ذهبنا إلى البحر أكثر من مرة، وكان أشين يصر على أنه سباح محترف، رغم أنه قضى معظم الوقت في رش الماء على الآخرين وإعلان انتصاره على الأمواج. أما لوكاس، فكان أكثر هدوءًا، يستمتع بالجلوس قرب الشاطئ، ويشاركنا الحديث كلما ابتعد أشين عن اختراع طريقة جديدة لإغراق نفسه.

وقضينا بضعة أيام في منزل جدي وجدتي أيضًا.

ولا أعتقد أنني بحاجة إلى شرح طبيعة تلك الزيارة؛ فجدتي لا تزال تؤمن بأن الطعام هو الحل لكل مشكلات الحياة، وأن الإنسان الذي لا يتناول ثلاث وجبات إضافية بعد وجبته الأساسية لا بد أنه يعاني من نقص خطير في السعادة.

أما جدي، فقد أصبح خبيرًا في قراءة تعابير وجهي عندما أسمع صوت جدتي تناديني من المطبخ.

«.كان ينظر إليّ أحيانًا بنظرة تعاطف، وكأنه يقول: «لقد حان وقتك يا بني، لا يمكنني إنقاذك هذه المرة

وبالطبع، لم تخلُ العطلة من سهراتنا المعتادة.

كنت ألتقي بأشين ولوكاس، فنلعب الألعاب الإلكترونية، ونشاهد بعض الأفلام، ونتبادل الأحاديث حتى وقت متأخر. وفي كل مرة، كان أشين يجد طريقة لتحويل أي موضوع عادي إلى نقاش سخيف لا يعرف أحد كيف بدأ أو كيف انتهى.

لكن وسط كل تلك الأحداث، كانت هناك حادثة واحدة بقيت عالقة في ذهني أكثر من غيرها.

حادثة بدأت برسالة بسيطة على الحاسوب.

وانتهت بورطة لم أندم عليها مطلقًا.

***

كان ذلك في أحد أيام العطلة.

كنت جالسًا في غرفتي أمام الحاسوب، أتنقل بين بعض الصفحات وأتحدث مع فريسيا عبر المحادثة. لم يكن هناك موضوع محدد نتحدث عنه، بل مجرد حديث عابر عن العطلة وما فعلناه خلال الأيام الماضية.

أخبرتني عن بعض الأماكن التي زارتها، وعن كتاب بدأت قراءته، ثم انتقل الحديث إلى أمور أخرى لا أتذكر معظمها الآن.

حتى وصلتني رسالة منها:

«.أشعر بالملل»

قرأت العبارة، ثم أسندت ظهري إلى الكرسي.

كتبت:

«وهل جربتِ البحث عن شيء تفعلينه؟»

جاء ردها سريعًا:

«.هذا ما أفعله منذ ساعة تقريبًا»

ابتسمت.

«.إذن ربما عليك الخروج قليلًا»

«.لا أريد الخروج وحدي»

توقفت أصابعي فوق لوحة المفاتيح.

كانت جملة عادية، لا تحمل شيئًا معقدًا، لكنني وجدت نفسي أكتب دون تفكير طويل:

«.ومن قال إنك ستخرجين وحدك؟ سآتي معك»

ضغطت زر الإرسال.

ثم حدقت في الشاشة.

...

لحظة.

ماذا فعلت للتو؟

وضعت يدي على جبيني.

كان بإمكاني اقتراح أن تخرج مع إحدى صديقاتها، أو أن أقول إنني مشغول، أو حتى أن أغير الموضوع ببساطة.

لكن لا.

قررت أن أقدم نفسي طوعًا إلى موقف لم أكن أعرف كيف سأتعامل معه.

وبعد لحظات، ظهرت علامة الكتابة أسفل اسمها.

اختفت.

ثم عادت.

ثم اختفت مجددًا.

وأخيرًا وصلتني رسالتها:

«حقًا؟»

كتبت:

«نعم، لماذا؟»

«.لا شيء... فقط لم أتوقع ذلك»

ثم أضافت:

«.حسنًا، اتفقنا»

كان بإمكاني تخيلها خلف الشاشة، وقد احمر وجهها قليلًا وهي تكتب تلك الكلمات. لم أكن متأكدًا من ذلك بالطبع، لكنني وجدت نفسي أبتسم أمام الحاسوب كالأحمق.

أغلقت المحادثة بعد أن اتفقنا على المكان والوقت.

ثم بقيت أنظر إلى الشاشة السوداء للحاسوب.

قلت لنفسي:

«.حسنًا يا نيراس... لقد ورطت نفسك»

لكنني، ولسبب لم أستطع تفسيره، لم أكن منزعجًا.

بل على العكس.

كانت تلك أجمل ورطة دخلت فيها منذ بداية حياتي.

***

في يوم الخروج، وجدت نفسي أمام المرآة منذ وقت مبكر.

كان ذلك أمرًا غير معتاد.

فأنا لست من الأشخاص الذين يقضون وقتًا طويلًا في اختيار ملابسهم. غالبًا ما أرتدي أول شيء أجده مناسبًا، ثم أغادر الغرفة دون أن أفكر مرتين.

لكن هذه المرة، بدا الأمر مختلفًا.

اخترت قميصًا أبيض بسيطًا، وارتديت فوقه سترة سوداء بغطاء رأس، مع سروال أسود واسع وحذاء رياضي أبيض.

لم يكن هناك شيء مبالغ فيه في ملابسي، لكنها كانت مرتبة ومناسبة للخروج.

مررت يدي في شعري الأسود محاولًا ترتيبه، ثم نظرت إلى المرآة مرة أخرى.

أملت رأسي قليلًا.

ثم عدت إلى وضعي الطبيعي.

«.جيد»

خطوت نحو الباب، لكنني توقفت عندما سمعت صوت أمي.

«أوه؟»

التفتُّ.

كانت أمي متكئة على إطار الباب، وقد عقدت ذراعيها أمام صدرها، وعلى وجهها ابتسامة تحمل قدرًا مقلقًا من الفضول. نظرت إليّ من الأعلى إلى الأسفل، ثم قالت:

«إذن أيها الوسيم... إلى أين أنت ذاهب؟»

أجبت محاولًا التصرف بصورة طبيعية:

«.سأخرج لأتجول قليلًا»

رفعت حاجبها.

«حقًا؟»

«.نعم»

نظرت إلى ملابسي مجددًا، ثم عادت إلى وجهي.

«.لو كنت خارجًا فعلًا لمجرد التجول، لما تأنقت إلى هذه الدرجة»

تنهدت.

«...أمي»

ابتسمت أكثر.

«.اعترف، اعترف»

«.سأذهب إلى مكان فاخر قليلًا، هذا كل شيء»

وضعت يدها على ذقنها متظاهرة بالتفكير.

«مكان فاخر؟»

«.نعم»

«ومع من؟»

نظرت إليها بصمت.

ضحكت بخفة.

«.حسنًا، سأتظاهر بأنني صدقتك»

ثم ابتعدت عن الباب، ولوحت لي بيدها.

«.استمتع بوقتك يا بني»

أومأت لها، وخرجت قبل أن تبدأ جولة جديدة من الأسئلة.

لكنني سمعتها تتمتم خلفي:

«يا إلهي... متى كبر هذا الصغير؟»

هززت رأسي وأنا أبتسم.

يبدو أنني لم أكن الوحيد الذي لاحظ أن هذا اليوم مختلف.

***

وصلت إلى المكان المتفق عليه قبل الموعد ببضع دقائق.

وقفت بالقرب من نقطة اللقاء، وأخرجت هاتفي لأتأكد من الوقت.

كانت الشوارع هادئة نسبيًا، والنسيم الصيفي يحرك أوراق الأشجار القريبة. مر بعض الناس بجانبي، بينما كانت أصوات السيارات والمارة تشكل خلفية مألوفة للمدينة.

نظرت إلى الساعة.

ما زال هناك وقت.

أعدت الهاتف إلى جيبي.

ثم أخرجته بعد أقل من دقيقة.

هل تأخرت؟

لا، بالطبع لا.

ما زال الموعد لم يحن أصلًا.

أعدت الهاتف مرة أخرى.

يا إلهي، ما الذي أفعله؟

كنت قد انتظرت أشخاصًا في حياتي السابقة لساعات، وفي ظروف أكثر خطورة بكثير، دون أن أشعر بهذا القدر من التوتر.

ومع ذلك، ها أنا ذا، أقف في شارع عادي وأتفقد الساعة كل دقيقة تقريبًا.

ثم سمعت صوت خطوات تقترب.

رفعت رأسي.

كانت فريسيا.

وللحظة، نسيت تمامًا ما كنت أفكر فيه.

كانت ترتدي قميصًا بنيًا قصير الأكمام، بتصميم بسيط وياقة صغيرة، وقد نسقته مع سروال واسع بلون كريمي فاتح يصل إلى حذائها الرياضي الأبيض. وضعت قبعة بيج فاتحة على رأسها، وحملت حقيبة بنية صغيرة على كتفها.

كان شعرها البني الطويل ينسدل من تحت القبعة، ويتحرك بخفة مع النسيم.

لم تكن ملابسها متكلفة أو مبالغًا فيها، لكنها بدت أنيقة بصورة طبيعية، وكأنها اختارت كل قطعة بعناية دون أن تفقد بساطة إطلالتها.

اقتربت مني، ثم رفعت يدها بتحية صغيرة.

«.مرحبًا، نيراس»

احتجت إلى لحظة قبل أن أجيب.

«.مرحبًا... فريسيا»

ابتسمت.

«هل انتظرت طويلًا؟»

«.لا، وصلت منذ دقائق فقط»

كانت كذبة صغيرة.

لكنها كذبة بريئة، أليس كذلك؟

نظرت إليّ قليلًا، ثم قالت:

«.تبدو مختلفًا اليوم»

نظرت إلى ملابسي.

«مختلفًا؟»

«.أعني... مرتبًا أكثر من المعتاد»

ابتسمت.

«هل هذا إطراء؟»

احمر وجهها قليلًا.

«.ربما»

ضحكت بخفة، ثم أشرت إلى الطريق.

«إذن، هل نبدأ جولتنا؟»

أومأت.

«.بكل سرور»

وسرنا معًا.

***

كانت وجهتنا الأولى حديقة عامة قريبة.

كانت الأشجار تحيط بالممرات، والزهور موزعة في أحواض صغيرة على الجانبين، بينما جلس بعض الناس على المقاعد يستمتعون بالجو.

اخترنا السير في أحد الممرات الهادئة.

في البداية، كان الحديث بسيطًا.

تحدثنا عن العطلة، وعن المدرسة، وعن بعض المواقف التي حدثت خلال العام الدراسي. أخبرتني فريسيا عن إحدى صديقاتها التي حاولت تعلم الطبخ، وانتهى بها الأمر بإعداد شيء لم تستطع حتى هي تحديد ماهيته.

ضحكت وأنا أستمع إليها.

«هل كان الطعام صالحًا للأكل؟»

«.هذا ما حاولنا معرفته»

«وماذا كانت النتيجة؟»

«.قررنا ألا نكرر التجربة»

«.قرار حكيم»

ثم سألتني عن أيامنا في منزل جدي وجدتي، فحدثتها عن جدتي التي تتعامل مع الجوع باعتباره حالة طوارئ تستوجب إطعام جميع الموجودين في المنزل.

ضحكت فريسيا.

«.تبدو جدتك لطيفة»

«.هي كذلك، لكنني أظن أن لديها اتفاقًا سريًا مع المطبخ»

«لماذا؟»

«.لا أحد يعرف كيف تستطيع إعداد كل ذلك الطعام بهذه السرعة»

واصلنا السير، وتوقفنا أحيانًا لمشاهدة بعض الأشياء الصغيرة في الحديقة.

كانت فريسيا تتحدث براحة أكبر مما كانت عليه في البداية. لم تعد تتردد قبل كل جملة، ولم تعد تنظر إلى الأرض باستمرار أثناء الحديث.

وأنا أيضًا بدأت أشعر بأن التوتر الذي صاحبني منذ مغادرة المنزل يتلاشى شيئًا فشيئًا.

كان الأمر مريحًا.

لم نكن بحاجة إلى اختراع مواضيع للحديث، ولم يكن الصمت بيننا محرجًا. أحيانًا كانت تتوقف لتشير إلى زهرة أعجبتها، وأحيانًا كنت أعلق على شيء رأيناه في الطريق، ثم نعود إلى الحديث كما لو أننا نعرف بعضنا منذ زمن طويل.

وبينما كنا نسير، التفتت إليّ فجأة.

«نيراس؟»

«نعم؟»

«هل أنت مستمتع؟»

نظرت إليها باستغراب بسيط.

«بالطبع. لماذا تسألين؟»

«.لا أعرف، أردت التأكد فقط»

ابتسمت.

«.لو لم أكن مستمتعًا، لكنت اخترعت عذرًا للعودة إلى المنزل»

ضحكت.

«.إذن سأعتبر ذلك إطراءً»

«.اعتبريه شهادة رسمية»

تابعنا جولتنا، ثم قررنا التوجه إلى المدينة العتيقة.

***

كانت أزقة المدينة العتيقة أكثر ازدحامًا في ذلك الوقت من اليوم.

انتشرت رائحة المخبوزات والحلويات من المتاجر الصغيرة، وكان الباعة ينادون على بضائعهم، بينما انعكست أشعة الشمس على الجدران القديمة والأبواب الخشبية.

توقفنا عند أحد المحلات لشراء بعض الفطائر.

اختارت فريسيا واحدة، ثم نظرت إلى الخيارات الأخرى.

«أي واحدة تنصحني بها؟»

تأملت الواجهة قليلًا.

«.هذه»

أشارت إلى الفطيرة التي اخترتها.

«لماذا؟»

«.لأنني جربتها من قبل، وهي جيدة»

«هل أنت متأكد؟»

«.أضمن لك أنها لن تحاول قتلك»

ضحكت.

«.هذا مطمئن جدًا»

اشترينا ما أردناه، ثم أخذنا عصيرًا مثلجًا من متجر قريب.

جلسنا لبعض الوقت في مكان مناسب، نتبادل الحديث ونأكل.

كان الجو لطيفًا، والنسيم يمر بين الأزقة، بينما كان ضجيج المدينة يمنح المكان حيوية خاصة.

لاحظت أن فريسيا كانت تستمتع بالطعام، فقلت:

«.أعتقد أن اختيارك كان جيدًا»

نظرت إلى الفطيرة في يدها.

«.نعم، إنها لذيذة»

«.أرأيت؟ لدي خبرة في هذه الأمور»

ابتسمت.

«هل لديك خبرة في اختيار الطعام فقط؟»

«.وفي التخطيط العسكري أيضًا»

رفعت حاجبها.

«التخطيط العسكري؟»

«.لا تسألي. إنها قصة طويلة»

ضحكت.

«.حسنًا، سأتركك تحتفظ بأسرارك»

لم أكن أعرف لماذا جعلتني تلك الجملة أبتسم.

ربما لأنني كنت أستمتع بوجودها أكثر مما توقعت.

أو لأنني بدأت أعتاد تلك الطريقة التي تنظر بها إليّ عندما تقول شيئًا مازحًا، وكأنها تنتظر معرفة ما سأجيب به.

بعد انتهاء طعامنا، واصلنا السير بين المتاجر، وتوقفنا عند بعض الواجهات. أحيانًا كانت فريسيا تسبقني بخطوات صغيرة عندما ترى شيئًا لفت انتباهها، ثم تلتفت لتتأكد أنني ما زلت خلفها.

كنت أراقبها من بعيد للحظات.

لم يكن هناك شيء استثنائي في تلك اللحظات.

ومع ذلك، كنت أشعر بأنني أريد الاحتفاظ بها في ذاكرتي.

***

مع اقتراب المساء، قررنا دخول أحد المطاعم لتناول وجبة قبل العودة.

كان المكان هادئًا نسبيًا، بإضاءة دافئة وطاولات مرتبة، وكانت رائحة الطعام تملأ الأجواء.

اخترنا طاولة قرب النافذة، وجلسنا متقابلين.

تحدثنا عن أشياء كثيرة؛ عن الكتب التي قرأتها فريسيا، وعن الألعاب التي أفضلها، وعن بعض أحلامنا المستقبلية.

كانت تستمع إليّ باهتمام عندما أتحدث عن التاريخ والاستراتيجيات، رغم أنني لم أكن أشرح لها التفاصيل المعقدة التي اعتدت مناقشتها في حياتي السابقة.

أما عندما أخبرتها عن الألعاب القديمة التي أحبها، فقد بدت مهتمة بمعرفة سبب تفضيلي لها.

قلت:

«.أظن أنني أحب العوالم التي تمنحك شعورًا بأن لكل شيء قصة، حتى الأشياء الصغيرة»

قالت:

«مثل ماذا؟»

«.مثل مكان مهجور، أو رسالة تركها شخص ما، أو حتى شخصية لا تعرف عنها الكثير في البداية»

ابتسمت.

«أنت تحب البحث عن التفاصيل المخفية، أليس كذلك؟»

توقفت قليلًا.

ثم أجبت:

«.ربما»

كانت تنظر إليّ بهدوء، ولم يكن في عينيها ذلك الفضول العابر الذي يظهر عندما يستمع شخص إلى حديث لا يهمه.

بل كانت تصغي فعلًا.

وهذا جعلني أواصل الحديث دون أن أشعر بالوقت.

ثم سألتني عن شيء آخر، وانتقلنا إلى موضوع مختلف.

ضحكنا أكثر من مرة، وتبادلنا بعض المزاح، حتى بدأت أشعر أن المسافة بيننا لم تعد كما كانت في بداية اليوم.

لم تكن المسألة مجرد أنني أصبحت أكثر راحة في الحديث معها.

كان هناك شيء آخر.

شيء صغير يصعب الإمساك به.

عندما تبتسم، أجد نفسي أبتسم دون أن أفكر.

وعندما تتوقف عن الحديث، أنتبه إلى صمتها.

وعندما تنظر إليّ مباشرة، أشعر أحيانًا بأنني أحتاج إلى ثانية إضافية حتى أجيب.

لم أكن أعرف ما إذا كانت تشعر بشيء مشابه، لكن بعض تصرفاتها جعلتني أتساءل.

كانت تبتسم أحيانًا عندما تلتقي أعيننا، ثم تشغل نفسها بكوب العصير أو الهاتف.

وكانت تسألني أسئلة بسيطة، ثم تستمع إلى إجاباتي كما لو أنها تريد أن تعرفني أكثر.

ربما كنت أبالغ في تفسير الأمور.

وربما لم أكن كذلك.

في كل الأحوال، كنت أستمتع بالحديث معها.

وهذا كان كافيًا في تلك اللحظة.

***

رن هاتفي.

نظرت إلى الشاشة، فرأيت إشعارًا من أشين.

لم أفتح الرسالة فورًا، فقد كنت في منتصف الحديث مع فريسيا.

عدت إلى الحديث.

وبعد قليل، رن الهاتف مرة أخرى.

تنهدت وأخرجته من جيبي.

كانت هناك رسالة جديدة.

من أشين.

«.انظر خلفك»

قطبت حاجبي.

ما الذي يريده هذا المعتوه الآن؟

رفعت رأسي ببطء، ثم التفتُّ خلفي.

وفي اللحظة التي رأيتهما فيها، شعرت أن روحي غادرت جسدي للحظة.

أشين.

ولوكاس.

كانا يجلسان في طاولة قريبة منا.

أشين يحدق بي بابتسامة عريضة، بينما لوكاس يحاول إخفاء ضحكته خلف يده.

حدقت فيهما.

ثم أعدت النظر إلى هاتفي.

ثم إليهما مجددًا.

...يا رباه

كيف سأفسر الأمر لرأس الأباجورة الذي هناك؟

رفع أشين يده ولوح لي ببطء شديد، بتلك الطريقة التي يستخدمها الأشخاص عندما يريدون إزعاجك عمدًا.

أما لوكاس، فقد اكتفى بابتسامة خجولة.

أعدت الهاتف إلى جيبي، وحاولت التصرف بصورة طبيعية.

لكن فريسيا لاحظت تغير ملامحي.

«هل حدث شيء؟»

التفت إليها.

«.لا، لا شيء مهم»

«هل أنت متأكد؟»

«.مجرد صديقين قررا الظهور في المكان نفسه»

ابتسمت.

«أشين ولوكاس؟»

نظرت إليها بدهشة.

«كيف عرفتِ؟»

ضحكت.

«.لا أعرف، لكنني أظن أن أشين قادر على تحويل أي مكان إلى فوضى بمجرد دخوله»

لم أستطع الاعتراض.

كانت محقة تمامًا.

أخذت نفسًا عميقًا، ثم قلت:

«.سأذهب إلى المرحاض للحظة، سأعود فورًا»

أومأت.

«.حسنًا»

نهضت من مكاني واتجهت نحو الجهة الأخرى من المطعم.

لكنني لم أكن ذاهبًا إلى المرحاض.

كان لدي هدف آخر أكثر إلحاحًا.

أردت دفع ثمن الطاولة قبل أن يقرر أشين التدخل في حياتي الاجتماعية بصورة لا يمكن إصلاحها.
توجهت إلى المحاسب، وأخبرته أنني أريد تسوية الحساب.

نظر إليّ قليلًا، ثم قال:

«.الحساب مدفوع بالفعل»

توقفت.

«ماذا؟»

«.الطاولة مدفوعة»

نظرت إليه باستغراب.

«من دفع؟»

أشار بيده إلى إحدى الطاولات المجاورة.

«.السيدة التي تجلس هناك»

التفتُّ نحو المكان الذي أشار إليه.

ثم تمنيت لو أنني لم أفعل.

كانت لوسي.

وبجانبها بعض الأشخاص الذين عرفتهم من سهرة المنزل.

مجموعة أبي.

أغلقت عيني للحظة.

يا إلهي.

ليس اليوم.

ليس الآن.

لم أكن بحاجة إلى أكثر من رؤية ابتسامة لوسي حتى أدركت أن الأمر لن يمر مرور الكرام.

كانت تلوح لي بيدها، وعلى وجهها ذلك التعبير الذي رأيته في منزلنا عندما بدأت تسألني عن الفتاة التي تحدثت معها عبر الهاتف.

أما أحد الرجال، فقد رفع كوبه نحوي بتحية مرحة.

وبدا أن لوسي تقول شيئًا للمرأة الجالسة بجانبها، ثم نظرتا نحوي معًا.

شعرت بأنني محاصر.

سألت المحاسب:

«هل انتهى الأمر؟»

أجاب:

«.ليس تمامًا. لقد طلبت السيدة أيضًا إضافة بعض الطعام على حسابها»

نظرت إليه.

«طعام؟»

«.نعم، سيصل إلى طاولتكما بعد قليل»

أغمضت عيني مرة أخرى.

حسنًا.

إذن لم يكتفوا بمراقبتي، بل قرروا أيضًا تمويل الموعد.

هذا رائع.

رائع جدًا.

تنفست بعمق، وقررت أن أفضل طريقة للتعامل مع الأمر هي تجاهله تمامًا.

لا أريد أن أسمع شيئًا.

لا أريد أن أعرف شيئًا.

ولا أريد أن أرى لوسي وهي تبتسم بتلك الطريقة مرة أخرى.

عدت إلى الطاولة، وجلست أمام فريسيا.

نظرت إليّ بابتسامة.

«هل كل شيء بخير؟»

أجبت:

«.نعم، بالتأكيد»

وفي داخلي كنت أقول:

لقد انتهت حياتي الاجتماعية.

***

وصل الطعام الإضافي بعد دقائق.

نظرت فريسيا إلى الأطباق باستغراب.

«هل طلبت شيئًا آخر؟»

هززت رأسي.

«.لا»

«إذن؟»

نظرت نحو طاولة لوسي بطرف عيني، ثم عدت إليها.

«.يبدو أن أحدهم قرر أن يكون كريمًا»

ابتسمت.

«.هذا لطيف»

«.نعم... لطيف جدًا»

لم تكن قد لاحظت شيئًا، أو ربما لم تربط الأمر بما يجري حولنا.

وهذا كان أفضل ما يمكن أن يحدث.

قررت أن أترك كل شيء خلف ظهري، وأركز على الحديث معها.

لم أكن أريد أن أسمح لأشين أو لوسي أو حتى أبي بأن يفسدوا ذلك اليوم.

سألتها عن كتابها، فأخبرتني عن بعض الشخصيات التي أعجبتها، ثم سألتني عن خططي بعد العطلة.

تحدثنا عن أشياء كثيرة، وتبادلنا الضحكات، حتى عاد الجو إلى هدوئه الطبيعي.

وفي إحدى اللحظات، قالت فريسيا:

«.كان هذا اليوم ممتعًا»

نظرت إليها.

«حقًا؟»

«.نعم. لم أخرج معك من قبل بهذه الطريقة»

ابتسمت.

«.وأنا أيضًا»

ثم أضافت وهي تنظر إلى الكوب أمامها:

«.أظن أننا يجب أن نكرر الأمر في وقت آخر»

توقفت للحظة.

لم تكن جملة كبيرة، ولم تكن اعترافًا، لكنها جعلتني أشعر بدفء صغير في صدري.

أجبتها:

«.يسعدني ذلك»

رفعت عينيها إليّ، وابتسمت.

«.إذن اتفقنا»

كان ذلك كل شيء.

لا وعود كبيرة، ولا كلمات مبالغ فيها.

مجرد اتفاق بسيط على يوم آخر.

ومع ذلك، شعرت بأنني أريد أن يأتي ذلك اليوم قريبًا.

***

بعد انتهاء الطعام، خرجنا من المطعم.

كان المساء قد بدأ يلف المدينة، وأصبحت الأضواء الصغيرة في المحلات أكثر وضوحًا مع تراجع ضوء الشمس.

عرضت أن أوصل فريسيا إلى منزلها، فوافقت.

سرنا في الطريق، وتحدثنا عن اليوم، وعن بعض المواقف التي حدثت خلاله.

كانت تحمل حقيبتها على كتفها، بينما كانت خطواتها تسير بمحاذاة خطواتي.

وفي بعض الأحيان، كانت تلتفت نحوي لتكمل جملة بدأت بها، أو لتسألني عن شيء تذكرته فجأة.

لم يكن بيننا أي صمت ثقيل.

بل كانت هناك راحة غريبة، وكأننا لم نكن بحاجة إلى بذل جهد كي نجد ما نتحدث عنه.

عندما وصلنا إلى منزلها، توقفت أمام الباب.
قالت:

«.شكرًا على هذا اليوم، نيراس»

ابتسمت.

«.أنا من يجب أن يشكرك على قبول الدعوة»

«.سأراك قريبًا»

«.بالتأكيد»

ترددت لحظة، ثم أضافت:

«.ولا تنسَ... اتفقنا على يوم آخر»

أجبتها:

«.لن أنسى»

ابتسمت، ثم دخلت.

بقيت واقفًا لثوانٍ أنظر إلى الباب المغلق، قبل أن أستدير وأبدأ طريق العودة.

كانت خطواتي هادئة، وكنت أشعر بشيء من الخفة.

لم يكن يومًا استثنائيًا من حيث الأحداث.

لم نخض مغامرة خطيرة، ولم نكتشف سرًا غامضًا، ولم يحدث شيء يستحق أن يُكتب في كتب التاريخ.

لكنني كنت سعيدًا.

سعيدًا بطريقة بسيطة.

وربما كان هذا هو أجمل ما في الأمر.

***

عندما عدت إلى المنزل، فتحت الباب ودخلت.

كان المكان هادئًا.

أو هكذا ظننت.

ما إن أغلقت الباب حتى رفعت رأسي.

كانت أمي وأبي جالسين في الصالة.

ينظران إليّ.

ويبتسمان.

تلك الابتسامة.

الابتسامة البليدة نفسها التي رأيتها في وجهيهما عندما غادرت أمي المنزل في يوم السهرة.

توقفت مكاني.

نظرت إلى أمي.

ثم إلى أبي.

ثم عدت إلى أمي.

«مساء الخير؟...»

وضعت أمي يدها على ذقنها وقالت:

«...حسنًا، حسنًا، حسنًا»

ثم ابتسمت ابتسامة واسعة.

«.يبدو أن ابني قد كبر، وأصبح يخرج في مواعيد غرامية»

أغمضت عيني.

يا إلهي.

لقد وصل الخبر.

أما أبي، فقد أخرج هاتفه، وبدأ يتصفح شيئًا فيه.

«.انظري إلى هذه الصورة»

التفتت أمي نحوه.

«أي صورة؟»

أدار الهاتف باتجاهها.

كانت صورة لي في المطعم، أجلس أمام فريسيا وأبتسم.

ثم انتقل إلى صورة أخرى.
كنت فيها أستمع إليها باهتمام، وهي تتحدث بيديها.

ثم صورة ثالثة، التقطت على ما يبدو عندما خرجنا من المطعم.

قال أبي بفخر:

«!انظري إلى ابتسامته هنا»

ثم أضاف:

«.لكن عليّ الاعتراف بأن له ذوقًا رفيعًا، بصراحة»

نظرت إليه بصدمة.

«!أبي»

رفع كتفيه.

«.ماذا؟ أنا أقول الحقيقة»

أما أمي، فقد كانت تنظر إلى الصور بابتسامة لا تبشر بخير.

«!يا إلهي، إنها فتاة لطيفة»

قلت بسرعة:

«.أمي، أرجوكِ. لا يوجد شيء مما تفكران فيه»

أمالت رأسها.

«إذن ماذا كان ذلك؟»

«.خرجنا للتنزه، وتناولنا الطعام، وتحدثنا. هذا كل شيء»

قال أبي:

«وهل كانت الطاولة مدفوعة أيضًا ضمن هذا الشيء الذي تسميه كل شيء؟»

تجمدت.

«كيف عرفت؟»

ضحكت أمي.

«.لوسي اتصلت بنا»

وضعت يدي على وجهي.

لوسي.

بالطبع.

كان ينبغي أن أتوقع ذلك.

تابع أبي:

«.قالت إنكما كنتما في المطعم نفسه، وإنها قررت أن تدفع الحساب»

ثم ابتسم وأضاف:

«.وقالت أيضًا إنك كنت تبدو سعيدًا للغاية»

نظرت إلى السقف.

هل يمكن للإنسان أن يختفي داخل الجدار؟

سيكون ذلك مفيدًا جدًا الآن.

قالت أمي بنبرة أكثر هدوءًا:

«.حسنًا يا بني، لا داعي لأن تشعر بالإحراج. نحن فقط نمزح معك»

تنهدت.

«.أعرف، لكنكما تبالغان»

ابتسم أبي.

«.إذن لا تنكر أنك استمتعت بالموعد»

فتحت فمي لأجيب، ثم أغلقته.

لم أكن أعرف كيف أصف الأمر.

لم يكن موعدًا بالمعنى الذي يصران عليه.

كانت فريسيا صديقة عزيزة، وشخصًا أحب الحديث معه، وأشعر بالراحة عندما أكون برفقته.

...لكن

هل كان ذلك كل شيء؟

لم أكن متأكدًا.
قلت أخيرًا:

«.كانت نزهة جميلة، هذا كل ما أعرفه»

تبادلت أمي وأبي نظرة سريعة.

ثم ابتسمت أمي.

«.حسنًا، سنكتفي بهذا الجواب الآن»

أما أبي، فقد أضاف:

«.لكنني أريد أن أعرف متى سنلتقي بهذه الفتاة مجددًا»

«!أبي»

ضحك.

«.حسنًا، حسنًا. لن أسألك»

ثم عاد إلى هاتفه.

كنت أعلم أن الأمر لم ينتهِ.

بل ربما كان قد بدأ للتو.

***

صعدت إلى غرفتي وأغلقت الباب خلفي.

جلست على سريري، وأخرجت هاتفي.

كانت هناك رسالة جديدة من فريسيا.

«وصلت إلى المنزل؟»

ابتسمت دون أن أشعر.

كتبت:

«نعم، وصلت للتو. وأنتِ؟»

«.نعم، شكرًا مرة أخرى على اليوم»

«.لا داعي للشكر، استمتعت بوقتي»

ظهرت علامة الكتابة لثوانٍ.

ثم وصلتني رسالة:

«.وأنا أيضًا. تصبح على خير يا نيراس»

قرأت الرسالة مرة.

ثم قرأتها مرة أخرى.

وكتبت:

«.وأنتِ من أهله، فريسيا»

أغلقت الهاتف ووضعته بجانبي.

ثم استلقيت على السرير، ونظرت إلى السقف.

تذكرت أيلارا.

في حياتي السابقة، كنت أظن أن الحب يعني أن تحمل مشاعرك بصمت، وأن تراقب شخصًا من بعيد، وأن تنتظر اللحظة المناسبة حتى تصبح شجاعًا بما يكفي لتقول ما في قلبك.

لكن تلك اللحظة لم تأتِ أبدًا.

لقد أحببت أيلارا سنوات طويلة، وكنت أعتقد أنني أعرف شعوري تجاهها جيدًا، حتى بعد أن فقدتها.

...أما الآن

فلم أكن أملك يقينًا مشابهًا.

لم أكن أبحث عن اعتراف، ولا أريد أن أضع اسمًا على شيء لم أفهمه بعد.

كنت فقط سعيدًا لأنني قضيت يومًا معها.

وسعيدًا لأنها استمتعت بوقتها معي.

وربما كنت أتطلع إلى رؤيتها مجددًا أكثر مما ينبغي.

هل كان ذلك حبًا؟

أم بداية شيء لا أعرفه؟

لا أعلم.

كل ما أعرفه أنني لم أشعر بالحاجة إلى الهرب من هذا الإحساس.

لم أشعر بأن عليّ مقاومته، ولا بأنني مطالب بفهمه فورًا.

كان يكفيني أن أتركه ينمو بهدوء، كما تنمو الأشياء الجميلة دون أن نلاحظها في البداية.